البلاء والابتلاء

د عبد النعيم مخيمر

فهرس

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الى يوم الدين

وبعد

غايتى من هذا الكتاب ان يكون دواء يداوى آلام المعذبين والمبتلين وعلاج لكل مصاب ولكل مهموم

الى اليائسون من الحياة من داء ليس له دواء ، ومن مرض ليس له علاج

ومن هم ليس له من كاشف ،ومن حزن ليس له من راشف ، ومن قلق ليس له من زائل

الى المكدودين من قسوة الحياة والكادحين مع جبروت الايام

الى كل آمل فى السعادة ولم يجدها فى مال او ولد ، ولم يلمسها مع صاحب او رفيقة ، ولم يشعر بها مع جاه اومنصب

واسال الله تعالى ان ينفع به كل خائف او حزين ويجعل فيه الامن والسرور والرضا

وهذا الكتاب مقسم لثمانى ابواب

- باب لشرح وتفسير الابتلاء والفتنة
- باب الابتلاء فى القرآن مفصلة على حسب ما جاء فى القرآن من لفظ (الفتنة. فتنة . فتنا. بلاء........................)
- باب الثبات فى آيات القرآن وفى سنة نبيه (ص)
- باب الابتلاء فى الاحاديث النبوية
- باب انواع الابتلاء
- باب ابتلاء الانبياء
- باب ابتلاء الصحابة والائمة
- باب مقالات فى الابتلاء لبعض العلماء

ومن هنا كانت كتابة هذه الرسالة لتسلية كل مصاب مهما بلغ مصابه، أبيِّن له من خلالها بعض حِكم البلاء العظيمة التي ربما غفل عنها بعض الناس - هداهم الله- ونسوا أو تناسوا أن الله لا يبتلينا ليعذبنا، بل ليرحمنا. وأن على المؤمن أن ينظر إلى البلاء-سواءً كان فقداناً للمال أو الصحة أو الأحبة-

ونسال الله التوفيق

د. عبد النعيم مخيمر

الباب الاول

معنى الابتلاء

الابتلاء

- بلوته: اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له،
- سمي الغم بلاء من حيث إنه يبلي الجسم،
- سمي التكليف بلاء من أوجه:
  - أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.
  - والثاني: أنها اختبارات، ولهذا قال الله عز وجل: (ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم([محمد/٣١].
  - والثالث: أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر.
- والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: (بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر)
- وإذا قيل: ابتلى فلان كذا وأبلاه فذلك يتضمن أمرين: أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره، والثاني ظهور جودته ورداءته، وربما قصد به الأمران، وربما يقصد به أحدهما،
- ويقال: أبليت فلانا يمينا: إذا عرضت عليه اليمين لتبلوه بها

معنى الفتنة

- فتن: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الانسان النار، قال (يوم هم على النار يفتنون -ذوقوا فتنتكم)
- وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه نحو قوله (ألا في الفتنة سقطوا)
- وتارة في الاختبار نحو: (وفتناك فتونا)
- وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الانسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد قال فيهما (ونبلوكم بالشر والخير فتنة).
- وقوله (فتنتم أنفسكم) أي أوقعتموها في بلية وعذاب
- قوله: (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) فقد سماهم ههنا فتنة اعتبارا بما ينال الانسان من الاختبار بهم، وسماهم عدوا في قوله (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) اعتبارا بما يتولد منهم وجعلهم زينة في قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) الآية.

- الفتنة من الأفعال التى تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك
- ولهذا يذم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان نحو قوله: (والفتنة أشد من القتل - إن الذين فتنوا المؤمنين - ما أنتم عليه بفاتنين) أي بمضلين وقوله: (بأيكم المفتون) قال الأخفش: المفتون الفتنة

(محن) المِحْنة الخِبْرة وقد امتَحنه وامتَحن القولَ نظر فه ودَبَّره التهذيب

- مَحَثُ الفضةَ إِذا صفيتها وخلصتها بالنار
- عن مجاهد في قوله تعالى أُولئك الذين امتَحَنَ اللهُ قلوبَهم قال خَلَّصَ اللهُ قلوبهم. امتَحنَ اللهُ قلوبهم صَفَّاها وهَذَّبها
- امتحن الله قلوبهم للتقوى شَرَحَ اللهُ قلوبهم كأَنَّ معناه وَسَّع الله قلوبَهم للتقوى ومَحَنْتُه وامتَحْنتُه بمنزلة خَبَرْتُه واختبرته وبَلَوْتُه وابتَلَيْتُه
- أَصل المَحْن الضَّرْبُ بالسَّوْط وامتَحَنتُ الذهب والفضة إِذا أَذبتهما لتختبرهما حتى خَلَّصْتَ الذهب والفضة والاسم المِحْنة والمَحْنُ العطية وأَتيتُ فلاناً فما مَحَنَني شيئاً أَي ما أَعطاني والمِحْنة واحدة المِحَن التي يُمتَحَنُ بها الإِنسانُ من بلية
- والمَحْن مَحَنه عشرين سَوْطاً ضربه
- النكاح الشديد يقال مَحَنها ومَخَنها ومَسَحَها إِذا نكحها
- مَحَنْتُ الثوبَ مَحْناً إِذا لبسته حتى تُخْلِقه
- مَحَنت البئر مَحْناً إِذا أَخرجت تُرابها وطينه

<u>الدنيا والابتلاء لغويا</u>

فعليكم بتقوى الله العظيم و طاعته ، و أحذّركم وبال عصيانه و مخالفةأمره ، و أُذَكّرُكم و نفسي بأنّ حياتنا قائمةٌ على الابتلاء ،

حيث قال تعالى :**{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** } [الإنسان : ٢] ،

و قال سبحانه : **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** } [البلد : ٤] ، أي : في مكابدة و معاناة منذ مولده في دارٍ كلـّها بلاء و عناء و كدر ،

أحسن في وصفها الإمام علي رضي الله عنه لمن سأه عنها : دار أولها بكاء و أوسطها عناء و آخرها فناء.

و وَصَفَها أبو الحسن التهامي فأجاد في قوله:

جُبلت على كَدَرٍ و أنت تريدها **صفواً من الآلام و الأكدار

و مُكلّفُ الأيامِ ضدَّ طِباعِها **مُتطَلّبٌ في الماء جذوةَ نار

<u>هذه هي الدنيا الدنيّة</u> ، لم يسلَم منها أحد ، و مع ذلك فلم يكف عن السعي في الاستزادة منها أحد ، و أسعد الناس فيها من قَنِع منها ببُلغة تبلغه غايته، و لُقمةٍ يسد بها جوعته ، و ليبذل وسعه بعد ذلك في مقارعة البلاء و اللأواء ، في دار الابتلاءِ ؛ سنةِ اللهِ في خلقِه ، و قدره المحتوم الذي لا يتخلـّف في عباده.

الابتلاء له من المبررات الشيئ الكثير ، فهو ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد ، و هو موضوع تمس إليه الحاجة في زمن غربة الدين التي تكاد تطبق على حياة المسلم من كل جهة و جانب ، الغربةِ التي لا يكاد يشعر بها من لم يستشعر عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه دينه و أمته ، و لا من لم يتذوق حلاوة الإيمان في حياته الدنيا.

و للمسلم حلاوتان يذوقهما في حياته معاً ؛ حلاوة الإيمان المترتبة على حبه لله و لرسوله ، و حبه العباد في الله دون سواه ، و كراهيته الكفر بعد الإيمان كما يكره أن يُلقى في النار ، فمن ذاق حلاوة الإيمان المترتبة على هذه الخصال ، كان أهلاً لنيل حلاوة التضحية في سبيل الله ، و بذل الغالي و النفيس من النقير إلى القِطمير في سبيل ، فلا يلوي ذراعه بلاء ، و لا تلين له قناة أمام الشدائد و العناء.

أما من أعرض عن ذكر ربِّه {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }طه ١٢٤ مَن جانَبَ الهدى ، فمصيره إلى الردى ، و حياته ضنكٌ تعُجُّ بالبلاء ، و تصير به و بغيره إلى هلاكٍ و فناء.

تحرير معنى البلاء و الابتلاء في اللغة و الاصطلاح:

للبلاء في اللغة معان أشهرها ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله [عند تفسير الآية الثانية بعد المائة من سوره الصافات

أولاً : الإنعام ، و هو بذل النعمة للغير ، كما في قوله تعالى : (إن هذا لهو البلاء المبين) أي النعمة الظاهرة ؛ يقال : أبلاه الله إبلاء و بلاء إذا أنعم عليه . و قد يقال بلاه ، كما قال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي صَنَع بهما خيرَ الصَّنِيع الذي يَبْلُو به عباده.

ثانياً : الاختبار و الامتحان بالخير أو الشر ، كما في قوله تعالى : (و نبلوكم بالشر و الخير فتنة) [الأنبياء : ٣٥] أي اختباراً و امتحاناً ، يُقال : بلاه يبلوه إذا اختبره ، و لا يقال من الاختبار إلا بلاه يبلوه.

و البلاء بالمعنى الثاني مرادف للابتلاء ، فهما بمعنىً ، و هو المقصود فيما نحن بصدده.

قال ابن منظور [في مادة بَلا] : (و ابْتَلاه الله : امْتَحَنَه ، و الاسم البَلْوَى و البِلْوَةُ والبِلْيَةُ و البَلِيَّةُ و البَلاءُ ، و بُلِيَ بالشيء بَلاءً و ابْتُلِيَ ؛ و البَلاءُ يكون في الخير و الشَّر ، و الجمع : البَلايا.

و يقال أَبْلاه الله يُبْلِيه إبْلاءً حسناً إذا صنع به صُنْعاً جميلاً.

و بَلاه اللهُ بَلاء وابْتَلاه أي: اختَبره.

و التّبالي : الاختبار.

و البَلاء : الاختبار ... الخ.

و الذي يهمنا في موضوع بحثنا هذا هو المعنى المتبادر من الابتلاء عند ذكر ما يترض له المؤمن في حياته من سراء و ضراء ، و هو الاختبار و التمحيص المقرون -غالباً - بالشدائد و المحن ، و المصائب و الفتن.

من حِكَم الابتلاء:

لا شك في مدار الأقدار على حكمة الملك الجبار، الذي{ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ** } [

الأنبياء : ٢٣] و لا في أنّ الحكمة المقدرة في الخلق و التدبير قد تكون مما استأثر الله تعالى بعِلمه ، و قدتكون مما أخبر به في كتابه أو على لسان نبيّه ، و قد تكون مما وفّق من يشاء من عباده لمعرفته باستنباطه أو الاجتهاد في الوقوف عليه ، بإلهام أو دُربةٍ أو غير ذلك.

الدنيا دار ابتلاء واختبار

فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الدنيا واستخلف فيها البشر فجعلها دار اختبار وابتلاء وتمحيص حتى يميز الخبيث من الطيب ويفصل الصالح عن الطالح ويجزي المحسن ويعاقب المسيء فقال جل جلاله ((**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**)) فكان الابتلاء سنة من سنن الله سبحانه وتعالى يبتلي بها المسلم والكافر على حد سواء غير أن النتيجة مختلفة قطعا فكل من المسلم والكافر يتعرض للنعمة وللمصيبة وكل منهما يتأذى من المصيبة في الدنيا ويستفيد من نعم الله في الأرض إلا أن المؤمن يحصد من الثمرات في الآخرة ما لا يحصده غيره من البشر فقال صلى الله عليه وسلم ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن إصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))

عباد الله :

إن الله سبحانه وتعالى يبتلي العبد بالنعم كما يبتليه بالمصائب على حد سواء ولا يحسبن أحد أن المصائب والابتلاء بها دليل غضب أو سخط من الله سبحانه وتعالى أو أن كثرة النعم والخيرات هي دليل محبة الله سبحانه وتعالى بل قد يكون الأمر خلاف ذلك لأن الله جل الله جلاله يحب أن يسمع شكوى عبده المؤمن وأنينه بين يدي الله تعالى هذا وإن الابتلاءات من أوسع الأبواب التي يكفر الله تعالى بها الخطايا عن العبد المؤمن الصابر فهذا حبيبنا صلى الله عليه وسلم يقول ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئته)) ويقول صلى الله عليه وسلم ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)) كان من الصالحين فهو تنبيه من الله تعالى لخطأ ما أو تحذير لخلل وقع عند ذلك العبد أو تلك الأمة فإن من المصائب ما هو للتحذير والتنبيه عند التقصير واسمع إذا شئت قول الله تعالى ((فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان لهم ما كانوا يعملون)) .

إن مما يعين على النجاح في إمتحان الابتلاء في الدنيا العلم أن عدم الصبر وعدم الرضا لن يرد شيئا من المصيبة بل إن المصيبة ستقع وسيخسر معها الذي لا يصبر أجره في الآخرة وعون الله له في الدنيا كما أن الله سبحانه وتعالى مهما بلغت مصيبة العبد التي ينزلها عليه فإن فيها لطف منه جل جلاله وكما قال ذلك الصحابي الذي بترت ساقه ومات أحد أبنائه مرة واحدة فقال الحمد لله فإن أخذ طرفا فقد أبقى أطرافا وإن أخذ ولدا فقد أبقى أولادا فانظر يا عبد الله إلى نعم الله التي حولك حتى وإن وقعت بك المصيبة فإن الله لطيف بك ويمن معك . فاللهم يا ذا المن والعطاء أسبغ علينا نعمك في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير والحمد لله رب العالمين .

الفتنة والابتلاء

فإن من أراد تحقيق أمور الدين جميعها ، من التوحيد والإيمان والإسلام والإحسان ، لا بد له من الابتلاء والفتنة ، كما قال تعالىحَٰسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ.

وجماع معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذة من قولك : فتنت الفضة والذهب ، إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد لسان العرب لابن منظور

والفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء ، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا ، وقد قال الله تعالى فيهما : سورة الأنبياء الآية ٣٥ (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.**)

وللفتنة وجوه منها : الشرك والضلالة والنفاق والبلاء وعذاب الناس والحرق بالنار والصد والاستنزال والمعذرة والافتتان والإعجاب والقتل ، وقد ورد في القرآن دليل لكل وجه المفردات

قال ابن القيم : ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها : الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه ، بل خلص من الافتتان . ويراد بها : الامتحان الذي حصل معه افتتان .

والفتنة بحسب إضافتها ، فيقال : فتنة المال ، وفتنة الأولاد . وقد تطلق على أشياء خاصة كالنفاق والكفر والصد ، حيث إن أصل الفتنة الاعتبار ، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه ، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور

لذا فهي بحسب ما يضاف إليها ؛ لأن كل شيء فتنة فيقال : فتنة الحياة ، وفتنة الموت ، وفتنة الشرك ، وفتنة الغفلة والابتلاء . والفتنة من أقدار الله عز وجل التي لا بد من الإيمان بها. .

وأعظم فتنة هي الكفر كما قال تعالى : سورة البقرة الآية ٩٣ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ،

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي . فقالا : ألم يقل الله : سورة البقرة الآية ٩٣ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

الباب الثانى
الابتلاء فى القرآن

اولا: لفظ الفتنة

١- هُوَ الَّذِيَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)ال عمران

{ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ } ؟ إن الشيء المحكم هو الذي لا يتسرب إليه خلل ولا فساد في الفهم؛ لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هي النصوص التي لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول :
{والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا } [المائدة : ٣٨] .
و « المُتشابه » هو الذي نتعب في فهم المراد منه ، ومادمنا سنتعب في فهم المراد منه فلماذا أنزله؟
فكأن قول الراسخين في العلم : إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هي الهداية؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يا رب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ . وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير
والراسخون فى العلم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق

٢-سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١) النساء

{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ } وهؤلاء القوم هم قوم من بني أسد وعطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أي معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : { سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا ردوا إِلَى الفتنة أُرْكِسُواْ فِيهَا } . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار {

أُرْكِسُواْ فِيِهَا } . أي فشلوا في الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا في حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما في أعماقهم ازدادت حيرتهم

٣- لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) التوبة

والخبال مرض عقلي ينشأ معه اختلال موازين الفكر إذن فقوله تعالى : {مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } أي :أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يُرِدْهَا الله لكم ، وقوله تعالى : {ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ } أي :أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد؛

٤- لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التي ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من : مؤامرات على الإسلام ، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين؛ والتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥-وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)الاحزاب

{دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ } أي : البيوت : { مِنْ أَقْطَارِهَا } من نواحيها {ثُمَّ سُئِلُواْ الفتنة } أي : طُلب منهم الكفر { لآتَوْهَا } يعني : لكفروا .{وَمَا تَلَبَّثُواْ بِـهَآ إِلاَّ يَسِيراً } يعني :ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيراً ، ثم ينتقم الله منهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتنني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر - والعياذ بالله -؟ إن كل ذلك - وغيره - تجوز فيه الفتنة

ثانيا: لفظ فتنة

١- وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ (١٠٢)البقرة

الشياطين هم العصاة من الجن .

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي . . والشياطين هم مردةُ الجن المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس

تفسير المنتخب

ولقد صدَّقوا ما تَقَوَّله شياطينهم وفجرتهم على ملك سليمان ، إذ زعموا أن سليمان لم يكن نبياً ولا رسولاً ينزل عليه الوحى من الله ، بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحره ، وأن سحره هذا هو الذى وطّد له الملك وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح ، فنسبوا بذلك الكفرَ لسليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا ، إذ تقوَّلوا عليه هذه الأقاويل ، وأخذوا يعلّمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت ، مع أن هذين الملكين ما كانا يعلّمان أحداً حتى يقولا له : إنما نعلّمك ما يؤدى إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره وتَوَقَّ العمل به . ولكن الناس لم ينتصحوا بهذه النصيحة ، فاستخدموا ما تعلَّموه منهما فيما يفرقون به بين المرء وزوجه

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) الانفال

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ، والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت في الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب في ذلك الاختبار المبين في تلك الآية الكريمة .

لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد؟ . ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه . وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد . ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجيء الزوج ، يحتاج إلى المال؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد .

٣- ياأيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم } [التغابن : ١٤]

وفي هذا القول نجد أن العداوة تأتي من الأزواج قبل الأولاد ، ونعلم أن الزوجة في بعض الأحيان هي التي تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء ، وهذا كلام منطقي؛ لأن الذي يتكلم هو رب حكيم .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) الاسراء

أي : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب عن عِلْمِه تعالى ، لأن الإحاطة تعني الإلمام بالشيء من كُلّ ناحية .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبيتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفي (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم ، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم في نحورهم .
وقوله تعالى : { وما جعلنا الرؤيا التي أريناك } يريد رؤيا الإسراء والمعراج حيث أراه من آياته وعجائب صنعه وخلقه ، ما أراه { إلا فتنة للناس }أي لأهل مكة اختباراً لهم هل يصدقون أو يكذبون ، إذ ليس لازماً لتقرير نبوتك وإثبات رسالتك وفضلك أن نريك الملكوت الأعلى وما فيه من مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة .
وقوله تعالى : { والشجرة الملعونة } أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الكريم وهي شجرة الزقزم وأنها { تخرج في أصل الجحيم } إلا فتنة كذلك لأهل مكة حيث قالوا كيف يصح وجود نخلة ذات طلع في وسطالنار ، كيف لا تحرقها النار قياساً للغائب على الشاهد وهو قياس فاسد ، وقوله تعالى { ونخوفهم } بالشجرة الملعونة وأنها { طعام الأثيم تغلي في البطون كغلي الحميم }وبغيرها من أنواع العذاب الدنيوي والأخروي ، وما يزيدهم ذلك إلا طغياناً كبيراً أي ارتفاعاً وتكبراً عن قول الحق.

٥- لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) النور
وقوله تعالى : { لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا }هذا يحتمل أموراً كلها حق

الأول أن يحاذر المؤمنون إغضاب رسول الله بمخالفته فإنه إن دعا عليهم هلكوا لأن دعاء الرسول لا يرد ليس هو كدعاء غيره ،
والثاني أن لا يدعوا الرسول باسمه يا محمد ويا أحمد بل عليهم أن يقولوا يا نبي الله ويا رسول الله ،
الثالث أن لا يغلظوا في العبارة بل عليهم أن يلينوا اللفظ ويرتققوا العبارة إكباراً وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ما تضمنه قوله تعالى : { لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا } .
وقوله : {قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً }أعلمهم تعالى أنه يعلم قطعاً أولئك المنافقين الذين يكونون في أمر جامع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً بعد آخر بدون أن يستأذوا متلاوذين في هروبهم من المجلس يستتر بعضهم بعضاً ، وفي هذا تهديد بالغ الخطورة لأولئك المنافقين .
وقوله : { فليحذر الذين يخالفون عن أمره } أي أمر رسول الله وهذا عام للمؤمنين والمنافقين وإلى يوم القيامة فليحذروا أن تصيبهم فتنة وهي زيغ في قلوبهم فيموتوا كافرين ، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والعذاب ألوان وصنوف .

٦- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) الفرقان

ومعنى : { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ } [الفرقان : ٢٠] فأيّ بعض فتنة لأيِّ بعض؟ كما في قوله تعالى : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } [الزخرف : ٣٢] أيُّ بعض مرفوع ، وأيّ بعض مرفوع عليه؟

فكلٌّ مِنّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندي ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

{ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة } : أي بليّة فالغني مبتلَى بالفقير ، والصحيح بالمريض ، والشريف بالوضيع فالفقير يقول ما لي لا أكون كالغني والمريض يقول مالي لا أكون كالصحيح ، والوضيع يقول ما لي لا أكون كالشريف مثلاً .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)

قوله تعالى : {وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله . . . } [العنكبوت : ١٠] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : {ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : ٢] .

ومعنى : {فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله . . . } [العنكبوت : ١٠] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن { جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله . . . } [العنكبوت : ١٠] فتنة الناس أي : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوّاه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين؛ لأن عذاب الناس سينتهي ولو بموت المؤذي المعّذب ، أما عذاب الله في الآخرة فباق لا ينتهي ، والناس تُعذِّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطئ .

<u>ثالثا: لفظ فتنا</u>

١- وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هي الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . وتأتي الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيماني

ويميز أهل الصدق في الإيمان عن الكاذبين في الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دّل بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضي ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

ويجب الإيمان بقدر الله في خلقه؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غني ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .
فالمريض - على سبيل المثال - فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله في نفسه ولا ينظر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلي الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة؟ والفقير فتنة للغني ، وهو ينظر إلى الغني ليعرف أيحتقره ، أيحرجه ، أيستغله ، والغني فتنة للفقير ، يتساءل الغني أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضي عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .
وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم

٢- قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) طه
لا بد من الاختبار لكي يعطي كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم؟ نقول : بل ليعلم الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .
إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .
أو : لأن الاختبار من الله لِقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول :لو أعطاني الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضِع في الاختبار الحقيقي وأُعطِى المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندي كنتُ فعلت كذا وكذا .
وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بني إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه { فَتَنَّا } [طه : ٨٥] أي : اختبرنا .
ثم يقول تعالى : { وَأَضَلَّهُمُ السامري } [طه : ٨٥] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وِزْره ووِزْر غيره مِمَّنْ أضلّهم .
والسامري : اسمه موسى السامري ، ويُرْوَى أن أمه وضعته في صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت في نفاسها ، فظل الولد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربِّيه إلى أن شبَّ .
وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامري ، فقال
فَمُوسَى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كافِر ... وَمُوسَى الذِي رَبَّاه فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

٣- وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)العنكبوت
الحق - سبحانه وتعالى - يُسلِّي السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضِعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة

وأوراق الشجرة يُسلِّيهم :لَسْتم بدعاً في هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .
{ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [العنكبوت : ٣]فانظر مثلاً إلى ابتلاء بني إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم
ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .
عِلْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

٤- وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)ص

{ ولقد فتنا سليمان } أي ابتليناه ، وذلك أنه كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لأطأن الليل مائة جارية تلد كل جارية ولداً يصبح فارساً يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله أي لم يستثن ووطئ نساءه في تلك الليلة فعوقب لعدم استثنائه فلم يلدن إلا واحدة جاءت بولد مشلول بالشلل النصفي فلما وضعته أمه أتوا به إلى سليمان ووضعوه على كرسيه . وهو قوله تعالى {وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب } سليمان إلى ربه فاستغفر وتاب فتاب الله عليه

رابعا: لفظ يفتنون

- **يفتنون**

١-أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)التوبة

وقوله الحق : {أَوَلاَ يَرَوْنَ } أي : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون في كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فتجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق » . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

٢أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) العنكبوت

فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب؛ لأن القول قد يكون صِدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان { وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : ٢] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

٣يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)الذاريات

أي متى قيام الساعة ومجيئها وهم في هذا مستهزئون ساخرون وجوابهم في قوله تعالى يوم هم على النار يفتنون أي يعذبون ويقال لهم ذوقوا فتنتكم أي عذابكم هذا الذي كنتم به تستعجلون أي تطالبون به رسولنا بتعجيله لكم استخفافا وتكذيبا منكم .

خامسا: لفظ بلاء

١- {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [البقرة : ٤٩]

هو بلاء شديد الإِيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر في الهم والحزن على من يستبقي من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن في الخدمة .
وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحنله من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلَّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف « سام » الشيء أي : طلبه؛ و « سام سوء العذاب » أي : طلب العذاب السيء .
قد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفي هذا نِكاية شديدة .

٢- فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)الا نفال

الذي قتلهم هو الله فهو الذي أمرهم وأقدرهم وأعانهم ، ولولاه ما قتل أحد ولا مات فليعرفوا هذا حتى لا يخطر ببالهم أنهم هم المقاتلون وحدهم . وحتى رمي رسوله المشركين بتلك التي وصلت إلى جل أعين المشركين في المعركة فأذهلتهم وحيرتهم بل وعوقتهم عن القتال وسببت هزيمتهم كان الله تعالى هو الرامى الذي أوصل التراب الى أعين المشركين
وقوله تعالى { وليبلي المؤمنين منه بلاء الكافرين ويكسر شوكتهم { وليبلي المؤمنين } أي ولينعم عليهم الأنعام الحسن بنصرهم وتأييدهم في الدنيا وإدخالهم الجنة في الآخرة .
وقوله تعالى { إن الله سميع عليم }بمقتضى هاتين الصفتين كان الإِبلاء الحسن ، فقد سمع تعالى أقوال المؤمنين واستغاثتهم

٣-وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣)الدخان

{ وءاتيناهم مِنَ الآيات } مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم { بلاء مبين } أي نعمة ظاهرة ، لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق عن الزنديق

سادسا: لفظ ليبلوكم

١- لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)المائدة

ثم قال : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } يعني طريقةً وسُنَّة؛ أي أفردنا كلَّ واحدٍ منكم - معاشِرَ الأنبياء - بطريقة ، وأمَّا أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد ، وأنت المقدَّمُ على الكافة ، والمُفَضَّلُ على الجملة ، ولو شاء الله لَسَوَّى مراتَبكم ، ولكن غاير بينكم ابتلاء ، وفَضَّلَ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جلّ ذكره : {فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ } .

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همتهم من حيث المواجد .

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقَطْعِ الهوى ، واستباق العارفين بنفي المُنى ، واستباق الموحدين بترك الورى ، ونسيان الدنيا والعُقبى .

٢- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) الانعام

وهنا يقول الحق : {جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ } .

ومعنى « خليفة »أي الذي يخلف غيره؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً .

أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإِنسان لرب الإِنسان في الأرض؛ لأن كل شيء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبةً منه سبحانه

وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات؛ لكي يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد

وأما قوله:(ليبلوكم فيما آتاكم)، فإنه يعني: ليختبركم فيما خوَّلكم من فضله ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومن المؤدِّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفرِّط في أدائه .

٣-وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)هود

{ وهو الذي خلق المسوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء } أي أوجد السموات السبع والأرض وما فيها في ظرف ستة أيام وجائز أن تكون كأيام الدنيا ، وجائز أن تكون كالأيام التي عنده وهي ألف سنة لقوله في سورة الحج {وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون }

وقوله { وكان عرشه على الماء } أي خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، والعرش : سرير المُلك ومنه يتم تدبير كل شيء في هذه الحياة ، وقوله { على الماء } إذ لم يكن أرض ولا سماء فلم يكن إلا الماء كالهواء . وقوله تعالى {ليبلوكم أيكم أحسن عملاً } أي خلقكم وخلق كل شيء لأجلكم ، ليختبركم أيكم أطوع له وأحسن عملا أي بإخلاصه لله تعالى وحده وبفعله على نحو ما شرعه الله وبيّنه رسوله .

وأَحْسَنُ الأعمال موافقةُ الأمر، ولم يَقُلْ أكثر عملاً .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبُه أشدَّ إخلاصاً فيه .
ويقال أحسنهم عملاً أبعدُهم عن ملاحظة أعماله .
ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار .
ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عِوَضاً .
ويقال أحسن الأعمال ما غابَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود .
قوله : { لِيَبْلُوَكُمْ } الابتلاءُ في الشكر عند اليُسْر والصبر عند العُسر .

٤- الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)الملك

قوله:(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) قال: أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء.

وقوله:(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع.

٥- قال تعالى :{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) البقرة

أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين،

١.سيبتلي عباده { بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ } من الأعداء
٢.{ وَالْجُوعِ }
أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.
٣.{ وَنَقْصٍ مِنَ الأمْوَالِ } وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك.
٤.{ وَالأنْفُسِ } أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه،
٥. { وَالثَّمَرَاتِ } أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه.

<u>سابعا: لفظ مصيبة</u>

١-الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)البقرة

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهي مأخوذة من إصابة الهدف
والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها ،
وأي أمر يصيب الإنسان ،
إما أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه ،
وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلا ، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلا أم ظلما؟
إن كانت عدلا فهي قد جبرت الذنب ،
وإن كانت ظلما فسوف يقتص الله له ممن ظلمه . وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح
إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعا أن يأتي له منها خير . وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييما حقيقيا ، « هل لي على الله حق؟ أنا مملوك الله وليس لي حق عنده ، فما يجريه علي فهو يجريه في ملكه هو » ولن تستطيع درء أي مصيبة ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها كمؤمنين لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا .
إنه يدعونا أن نقول :{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } . إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا . أي نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله ، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية في المرجع؛ هو سبحانه ملك القوسين؛ الابتداء والانتهاء

٢ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) النساء

فيقول : { فإن أصابتكم } أيها المؤمنون الصادقون { مصيبة } قتل أو جراح أو هزيمة قال في فرح بما أصابكم وما نجا منه :لقد أنعم الله علي إذا لم أكن معهم حاضراً فيصبني ما أصابهم ، { ولئن أصابكم فضل من الله } أي نصر وغنيمة { ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة } أي معرفة ولا صلة يا ليتني متمنياً حاسداً - كنت معهم في الغزاة { فأفوز فوزا عظيما } بالنجاة من معرة التخلف والظفر بالغنائم والعودة سالماً .

٣ ـ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) النساء

روي أن منافقاً ويهوديا اختلفا في شيء فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم لعلمه أنه يحكم بالعدل ولا يأخذ رشوة ، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي والمنافقون يواجهون تساؤلاً : لماذا ذهبتم للطاغوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله؟ . فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصلك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً على حكمك؛ وهم يقولون هذا بعد أن انفضحوا أمام الناس .

وعندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم . ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون .

٤- إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)

{ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ } والمقصود بالحسنة هنا الانتصار في الحرب ، والنصر في الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر في حصول المؤمنين على الغنائم لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق في الغنائم . وفي هذه الحالة يقولون : يا ليتنا كنا معهم؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزموا في الحرب؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقون يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة ، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً في الفكر واحتطْنا للأمر

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم :

٥- قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)

أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين : إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله . وعندما نتأمل قوله الحق : {مَا كَتَبَ الله لَنَا } أي أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا ، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله .

إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بِشَرٍّ فهو سيئة .

إذن : فالمصائب نوعان؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم يمتلئ قلبي عليه بالحقد ، ويرغّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول : **{ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين }** [آل عمران : ١٣٤]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث في النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أي أن الغيظ موجود في القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقي المؤمن في انفعاله الإيماني ، فيأتي العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهي أن يُخرجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتي المرحلة الثالثة : { والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : ١٣٤]

أي : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزي عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله وكذلك يقول الحق : **{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور }** [الشورى : ٤٣]

أي : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التي تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .
أما المصائب التي ليس للإنسان فيها غريم فهي لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا اللون من المصائب : **{واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور }** [لقمان : ١٧]
لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم « لام التوكيد » التي جاءت في قوله تعالى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : ٤٣]

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)
إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : {لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و « لنا » تفيد الملكية؛ إما تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا .
وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول **{ فتربصوا }** أي : تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم
أما نهايتكم فاستدامة عذاب في الدنيا وفي الآخرة . وأسباب العذاب مجتمعة لكم في الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن .
٧-وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) القصص
لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعَذّبناهم فاحتجوا قائلين : {رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين } [القصص : ٤٧] فلو عَذّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .
وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام
إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذي يدلهم على الخير والثواب عليه في الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه في النار {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل . . . } [النساء : ١٦٥] .

٨-أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) ال عمر ان
لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أحُد وكيف يهزمنا الكفار؟ إنَّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أحُداً ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ، ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .
فأنتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحداً في «أُحد » ، أنتم أخذتم غنائم في بدر ، وهم لم يأخذوا أي غنيمة في أُحُد ، ما

العجيبة في هذه!! كان يجب أن تبحثوا في ذواتكم وفي نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم!؟
كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول .
أكان يترك السنن من أجلكم!؟ { سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً } [الأحزاب : ٦٢]

ثامنا: لفظ الباساء والضراء

١-وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) الاعراف

{ بالبأساء } : بالشدة كالقحط والجوع والحروب .
{ والضراء } : الحالة المضرة كالأمراض والغلاء وشدة المؤونة .
{ يضرعون } : يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ليكشف عنهم السوء .
{ مكان السيئة الحسنة } : أي بدل الغلاء الرخاء ، وبدل الخوف الأمن ، وبدل المرض الصحة .
{ حتى عفوا } : كثرت خيراتهم ونمت أموالهم ، وأصبحت حالهم كلها حسنة .
{ أخذناهم بغتة } : أنزلنا بهم العقوبة فجأة .
(عَفَوْا)أي كثروا عدداً ومالاً وقوة أي أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلاّ وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطي لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

٢وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) الانعام
لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .
إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمنا بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله : وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع

٣-أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) البقرة

أي أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم؟ إن الحق سبحانه ينفي هذا الظن ويقول : ليس الأمر كذلك ، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان ، فلو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلا ، لكن الذي يُصَعِبُ الإيمان هو العمل ، أي حمل النفس على منهج الإيمان . لقد استكبر بعض من الذين عاصروا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم فهموا مطلوبها؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤديها ، لكان أسهل عليهم أن يقولوها ، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها

قال: {وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ } وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.
{الْبَأْسَاءُ } الفقر: { وَالضَّرَّاءُ } السّقم.
{ وَزُلْزِلُوا } خَوْفًا من الأعداء زِلْزَالا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا،
ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سِجَالا يدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى، ثم تكون لها العاقبة .
لكن لشدة الأمر وضيقه قال { الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ } .
فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }
فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.
أخبرهم - سبحانه - بما سيقع لهم من بلاء ، ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ، وليستعدوا لتلقيه من غير فزع أو جزع ، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها ، أما الشدة التى تقع من غير توقع فإنها يصعب احتمالها .

تاسعا: لفظ الفساد

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) القصص

وحين نتأمل { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . } [القصص : ٧٧] نفهم أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكّرني الله بها .
ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التي تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .
واجعل نصيباً مما أعطى لك الله من الغنى والخير فى سبيل الله والعمل للدار الآخرة ، ولا تمنع نفسك نصيبها من التمتع بالحلال فى الدنيا ، وأحسن إلى عباد الله مثلما أحسن الله إليك بنعمته ، ولا تُفسد فى الأرض متجاوزاً حدود الله ، إن الله سبحانه لا يرضى عن المفسدين لسوء أعمالهم .

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد في الكون؟
لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل
انظروا إلى مَنْخالف منهج الله ماذا حدث له؛ لذلك في أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته

عاشرا: آيات اخرى فى البلاء

١- إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) آل عمران

« المس » وهو : إصابة بدون حس . . أي لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما « اللمس » هو أن تحس في الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، « والقَرْح » هو : الجراح ، وفي لغة أخرى تقول « القُرح » - بضم القاف - وأقول :القَرح وهو الألم الناشئ من الجراح ، كي يكون لفظ معنى .
وقوله الحق : { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ
القرح الذي أصاب المشركين في بدر كان أسبق من القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد .

٢- وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) آل عمران
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) آل عمران

والتمحيص يختلف عن المحْق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها .
ويقول الحق:
إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لا بد من تجربة تثبت أنكم فُتِنْتم ونجحتم في الفتنة ، والفتنة هي الامتحان إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفي منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين في قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الحنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .
والحق يقول : { وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين } وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا من المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير

٣- وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) آل عمران
{وَكَأَيِّن } هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل (كم)

. وقوله الحق { رِبِّيُّونَ } أي ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و « ربيون » أيضا تعني أتباعا يقاتلون ، و « ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهي مثل « الربانيين » .
وقول الحق : { فَمَا وَهَنُواْ } أي ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتي بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول :أنتم لماذا ضعفتم في موقفكم في غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتال معه أشد من حماس أي أتباع نبي مع نبيهم؛ لأنه النبي الخاتم الذي سيضع المبدأ الذي ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتي أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .
إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفي هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ } أي وكثير من الأنبياء { قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ } ونستوحي من كلمة { وَهَنُواْ } أي ما ضعفوا . فكأنه قد حدث في القتال ما يضعف ، { فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ } أي ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .
{ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا } . وكل من { وَهَنواْ } و { ضَعُفُواْ } و { استكانوا } هذه جاءت في موقعها الصحيح؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و « الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) الفجر

{ فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه } اى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار { فأكرمه } فضلنى بما اعطانى من الجاه والمال حسبما كنت استحقه ولا يخطر بباله انه محض تفضل عليه ليبلوه ايشكر ام يكفر
(واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه)
وجعله على قدر كفايته وقوت يومه { فيقول } متضجرا { ربى اهانن } اذلنى بالفقر ولا يخطر بباله ان ذلك ليبلوه ايصبر ام يجزع مع انه ليس من الاهانة فى شئ
ولذا لم يقل فأهانه فقدر عليه رزقه فى مقابلة اكرمه ونعمه بل التقتير قد يؤدى الى كرامة الدارين فى حق الفقير الصابر أما تأديته الى كرامة الآخرة فامر ظاهر واما تأديته الى كرامة الدنيا فلانه قد يسلم به من طمع الاعدآء فيحصن فيه اعتقاد الكبرآء من أهل الدنيا فيراجعونه ويلتمسون منه الدعاء والتوسعة قد تفضى الى خسران الدارين بالكفران فيكون استدراجا
وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه ردآء اما ازار واما كساء قد ربطوه فى اعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ نصف الكعبين فيجمعه بيده كراهة ان ترى عورته فتأمل هل تكون هذه اهانة لخواص عباد الله فالمؤمن اما فى مقام الشكر او فى مقام الصبر قال عليه السلام والسلام « الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر »
كما قال بعض الكبار فى قوله فيقول ربى اهانن اى تركنى ذليلا مهينا لم يعرف المحجوب المسكين ان ربه ناظر اليه بنظر الرحمة والشفقة جذبه بالجذبة الرحمانية من العالم الطبيعى

الى العالم الروحانى ومن عالم النفس الى عالم القلب ومن عالم الفرق الى عالم الجمع ومن عالم الفراق الى عالم الوصال .

الباب الثالث

صور من الثبات في القرآن والسنة

أولا- في القرآن الكريم

١- ثبات الأنبياء والمرسلين أمام المحن والشدائد حتى آخر لحظة من حياتهم

قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} إبراهيم

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله

الأمر بالصبر والثبات عند المحن

قال تعالى :{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) الأنعام

قال القرطبي :

حض القرآن الكريم على الصبر والمصابرة، وجعل من الصبر ركيزة أساسية، وعاملا حاسما لإقامة الدين في النفس والأرض،

قال تعالى -: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين} (البقرة: ١٥٣)

وقال تعالى -: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} (آل عمران: ٢٠٠)

وقال - تعالى -عن أنبيائه ورسله مبيناً أعظم ركائز الإمامة والاستخلاف في الأرض: و{جعلنا منهم أَئمة يهدون بأَمرنا لما صبروا} (السجدة: ٢٤)

الأمر بالصبر كما صبر أولو العزم

قال تعالى :{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) [الأحقاف/٣٥] }

توجيه يقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى . وهو الذي نشأ يتيما ، وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد . الأب . والأم . والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل . كما هو مجرد من كل سند أو ظهير . وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة . وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

إن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم .(فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . .)
تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية . . ثم تطمين

الصبر على المصائب

قال تعالى : {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (١٧) سورة لقمان

عزم الأمور : أعاليها ومكارمها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى -على الإِنسان .

مِنْ عَزْمِ الأمور: يعود إلى الطاعات المذكورة قبله .وهى الصلاة.الامر بالمعروف. النهى عن المنكر. الصبر

ومنه الحديث : " إن الله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعزائمه "

الصبر واليقين أساس السعادة في الدرارين

قال تعالى :{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣)وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [السجدة/٢٣، ٢٤]

الصبر واليقين طريق النصر والتمكين

الصبر لايدوم، والثبات لا يستمر إلا عندما يكون القلب موصولاً بالله، والثقة عظيمة في نصر الله، واليقين لا يعتريه الشك في وعد الله - وذلك يثبت المؤمن بإذن الله - عز وجل

الصبر في القرآن

الإيمان نصفان: صبر وشكر،

فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد

تعريفه:

الصبر لغة: الحبس والكف، قال - تعالى -: ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي...)) الآية، أي احبس نفسك معهم.

واصطلاحاً: حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاء وجه الله قال - تعالى -: ((والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم)).

أنواعه فهي: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. ففي قولنا (على فعل شيء) دخل فيه الأول، وفي قولنا (أو تركه) دخل فيه النوعان الثاني والثالث: أما دخول الثاني فظاهر لأنه حبس للنفس على ترك معصية الله، وأما دخول الثالث فلأنه حبس للنفس عن الجزع والتسخط عند ورود الأقدار المؤلمة.

أما الباعث عليه: فهو في قولنا ((ابتغاء وجه الله)) قال - تعالى - ((ولربك فاصبر)) فالصبر الذي لا يكون باعثه وجه الله لا أجر فيه وليس بمحمود، وقد أثنى الله في كتابه على أولي الألباب الذين من أوصافهم ما ذكره بقوله: ((والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية)).

وهذا النص يشير إلى حقيقة هامة جداً وهي أن صبغة الأخلاق ربانية فيه ليست أخلاقاً وضعية أو مادية وإنما ربانية سواء من جهة مصدر الإلزام بها أو من جهة الباعث على فعلها، فالعبد لا يفعلها تحت رقابة بشرية حين تغيب ينفلت منها، بل يفعلها كل حين وعلى كل حال لأن الرقابة ربانية، والباعث إرادة وجه الله - تعالى -.

ب أهميته:

واعلم أن الصبر المتعلق بالتكليف وهو صبر إما على الطاعة أو عن المعصية أفضل من الصبر على مر القدر فإن هذا الأخير يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر فلابد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً، أما الصبر على الأوامر وعن النواهي فهو صبر أتباع الرسل، والصبر على الأوامر أفضل من الصبر عن النواهي لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى...

<u>فضائل الصبر في القرآن الكريم:</u>

حديث القرآن عن فضائل الصبر كثير جداً، وهذه العجالة لا تستوعب كل ما ورد في ذلك لكن نجتزىء منه بما يلي:

١- علق الله الفلاح به في قوله: ((يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)).

٢- الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره: ((أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)) وقال: ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)).

٣- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين: ((وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون)).

٤- ظفرهم بمعية الله لهم: ((إن الله مع الصابرين)).

٥- أنه جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم: ((أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)).

٦-أنه جعل الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به: ((واستعينوا بالصبر والصلاة)).

٧- أنه علق النصر بالصبر والتقوى فقال: ((بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)).

٨- أنه - تعالى - جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجن العبد بأعظم منهما: ((وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً)).

٩- أن الملائكة تسلم في الجنة على المؤمنين بصبرهم ((والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)).

١٠- أنه - سبحانه - رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ((إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)).

١١- أنه - سبحانه - جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها: ((ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور)).

١٢- أنه - سبحانه - جعل محبته للصابرين: ((والله يحب الصابرين)).

١٣- أنه - تعالى - قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون: ((وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)).
١٤- أنه - سبحانه - أخبر أنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور: ((إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)).
١٥- أنه - سبحانه - أثنى على عبده أيوب أجل الثناء وأجمله لصبره فقال: ((إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب))، فمن لم يصبر فبئس العبد هو.
١٦- أنه حكم بالخسران التام على كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ولم يكن من أهل الحق والصبر: ((والعصر، إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا... السورة)).
الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج لتكميل نفسه فهو محتاج لتكميل غيره، وهو التواصي بالحق، وقاعدة ذلك وساقه إنما يقوم بالصبر".
١٧- أنه - سبحانه - خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال - تعالى -: ((ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة)).
١٨- أنه - تبارك و تعالى - قرن الصبر بمقامات الإيمان وأركان الإسلام وقيم الإسلام ومثله العليا، فقرنه بالصلاة ((واستعينوا بالصبر والصلاة))
وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً ((إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات))،
وجعله قرين التقوى ((إنه من يتق ويصبر))،
وقرين الشكر ((إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور))،
وقرين الحق ((وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر))،
وقرين المرحمة ((وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة))،
وقرين اليقين ((لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون))،
وقرين التوكل ((نعم أجر العاملين))، ((الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون))،
وقرين التسبيح والاستغفار ((فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار))،
وقرنه بالجهاد ((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)).
١٩- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم

مجالات الصبر في القرآن الكريم:

أ - الصبر على بلاء الدنيا:

أبرز الأمثلة وأشدها وضوحاً صبر يوسف - عليه السلام - على مراودة امرأة العزيز، لقد كان الصبر ظهير يوسف في محنته التي ابتلي بها اضطراراً واختياراً وكشف عن هذا حين عثر إخوته عليه فقال: ((أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين))، لقد رفض كل العروض والإغراءات وخرج من الفتنة بإيمانه وصبره، وكان صبره هذا أرقى من صبر أبيه يعقوب على الفراق وأرقى من صبر أيوب على ما بلي

به لأن صبرهما كان اضطرارياً لا حيلة لهما في رفعه ولا دفعه بينما كان صبر يوسف اختياراً وحين تملك فلم يتكبر ولم يطغ صبراً اختيارياً

١-فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية.

٢-وعزباً ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته.

٣-وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي فيه بين أصحابه ومعارفه وأهله.

٤-ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر.

٥- والمرأة جميلة وذات منصب، وهي سيدته.

٦- وقد غاب الرقيب.

٧- وهي الداعية إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص.

٨- وتوعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار.

ب- الصبر على أقدار الله المؤلمة:

إن أشهر من يقرن اسمه بهذا اللون من الصبر نبي الله أيوب - عليه السلام -، لقد أصابه ضر عظيم في بدنه وأهله وماله فصبر، فخلد ذكره في القرآن فقال الله - تعالى -: ((واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب))، لقد ذكر له من ألوان التكريم وأوسمة الشرف ما هو جدير بمثله لعظيم صبره، فأولهما تكريمه بتخليد ذكره ومباهاة الله به عند رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -، وثانيه: تكريمه بقوله ((عبدنا))، حيث أضافه إليه، والعبودية من أشرف أوصاف الإنسان التي يتحلى بها، وثالثها: عندما استجاب نداءه وكشف ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم، ورابعها: حينما جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته فكرمت وكرم بما يخلصه من مأزق الحنث، وكانت خاتمة ذلك هذا الوسام من الشرف العريض ((إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب))، فوصفه بالصبر حتى قرن الصبر بأيوب فلا يذكر إلا وهو معه، ثم قال: نعم العبد فكانت شهادة من الله بتمام عبوديته، ثم ختم ذلك بقوله إنه أواب، والأواب: المبالغ في شدة رجوعه إلى الله - تعالى -.

وقد ذكر الله - تعالى - صبره في موطن آخر فقال: ((وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين، وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين))، لقد كان نداء أيوب في ضرائه غاية في اللطف والأدب ولذا كانت الإجابة آية في التمام والكمال، لقد نادى ربه ولم يسأله شيئاً بعينه من الأهل والعافية وذكر ربه بما هو أهله وبما اتصف به ((إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين))، فاستجاب له دعاءه فكشف عنه الضر ورد عليه الأهل ومثلهم معهم وجعله ذكرى للعابدين وإماماً من الصابرين.

<u>الصبر للشيخ الشعراوى</u>

، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخريجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه

١-والمَصْبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشَقَّة التكليف الذي يقول « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يأمرك بترْكِ ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضي مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشَاقِّ التكليف .ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً : { .
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين } [البقرة : ٤٥]
وهذا صَبْر الَّذات على الذات .
٢-ولكن هناك صَبْر آخر؛ صبر منك على شيء يقع من غيرك؛ ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .
وهو ينقسم إلى قسمين :قسم تجد فيه غريماً لك؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .
فالمرض الذي يُخرج الإنسان عن حَيِّز الاستقامة الصِّحية ويُسبِّب لك الألم؛ ليس لك فيه غريم؛ لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً ؛ ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك .
وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله؛ فالذي يَقْدر على شيء ليس فيه غريم؛ يكون صَبْره معقولاً بعض الشيء؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .
أما صبر الإنسان على أَلم أوقعه به مَنْ يراه أمامه؛ فهذا يحتاج إلى قوة ضَبْط كبيرة؛ كي لا يهيج الإنسان ويُفكِّر في الانتقام .
ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين؛ يفصل بين شيء أصابك ولا تجد لك غريماً فيه ، وشيء أصابك ولك من مثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر ليس لك غريم فيه :
{واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : ١٧]
ويقول عن الصبر الذي لك فيه غريم ، ويحتاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :
{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : ٤٣]
وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك؛ وأنت فرد واحد .

- الصبر لله: الصبر لوجه الله وليس للناس
- الصبر بالله: جميع حركاته وسكناته من عند الله
- الصبر على الله:لا يوجد مؤثر الا الله والبلاء تجليات من اسمائه اى هى صور
- الصبر فى الله : لاهل الحضور
- الصبر مع الله صبر المشاهدين جمال الاسماء
- الصبر عن الله : صبر المشتاقين (صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك)

اجتهاد:
الصبر لله :رجاء الثواب من الله فلا تبرم ولا قلق وانتظار للفرج
الصبر بالله : الاستعانة بالله والدعاء ليتم التوفيق بالصبر او هناك سكينة واطمئنان عند البلاء او المصيبة ليست منك وانما من الله (اى صبر عند الوقوع وبعده)

الصبر على الله : اى لا تتعجل الاجابة وتتيقن ان الفرج آت ولكن لم يحن توقيته(اتى امر الله فلا تستعجلوه)
الصبر فى الله :الصبر على العبادات او الصبر على اخيك فى الله
الصبر مع الله : الصبر طول ايام الحياة فى كل ما قدره لك من مرض وصحة ،غنى وفقر،مدح وقدح من الناس ،فرح وترح، قرب احباب وبعدهم ، صداقة ومخاصمة ،تجمع وفراق،عزة وذل
الصبر عن الله: فتور عبادة ،عدم وجود دموع خشوع وسعادة قرب وتجليات مناجاة وراحة تسليم وسكينة رضا (والضحى والليل اذا سجى) فتخاف الفراق بعد القرب وتخاف الجفاء بعد الحب وتخاف القطيعة بعد الوصل ،فيكون الرجاء والشوق كانك ظمآن تامل الارتواء وتحن الى الروح والريحان والى السبوح والتسبيح والى الرضا والرضوان

ثبات السحرة أمام بطش فرعون وجبروته

وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا .
وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه " . وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين .
وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون ، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين ، رب موسى وهارون ، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم

(آمنتم له قبل أن آذن لكم) . . لم يقل آمنتم به . إنما عده استسلاما له قبل إذنه .
ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير: (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تبناه ، أو كان يختلف إليهم في المعابد . فارتكن فرعون إلىهذه الصلة البعيدة ، وقلب الأمر فبدلا من أن يقول:إنه لتلميذكم قال:إنه لكبيركم . ليزيد الأمر ضخامة وتهويلا في أعين الجماهير !
ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين:
(قالوا:لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) . .
لا ضير . لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف . لا ضير في التصليب والعذاب . لا ضير في الموت والاستشهاد . . لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . وليكن في هذه الأرض ما يكون:فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) جزاء (أن كنا أول المؤمنين) . . وأن كنا نحن السابقين . .
يا لله ! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر . وإذ يفيض على الأرواح . وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس . وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين . وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر ، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد .

ثبات صاحب ياسين

(إني آمنت بربكم فاسمعون) . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لايبالي بهم ماذا يقولون !

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه .وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق ،متبعاً صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل . نراه في العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد:

(قيل:ادخل الجنة . قال:يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . .

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء .

وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين .

ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين .

هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف:

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . .

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم ،تهويناً لشأنهم ،وتصغيراً لقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم . . ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل !

صبر موسى عليه السلام وقومه على فتنة فرعون

قال تعالى :{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) [الأعراف/١٢٧-١٢٩] }

رمي النبي إبراهيم عليه السلام بالنار

قال تعالى قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) [الأنبياء

(قال:أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟!)

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف .
عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ:
(قالوا:حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) . .
فلا نسأل:كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟ فالذي قال للنار:كوني حارقة . هو الذي قال لها:كوني بردا وسلاما

ثانيا- صور من الثبات عند الأمم السابقة(من السنة)

١-ثبات ماشطة بنت فرعون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا كَانَ اللَّيْلَةُ الَّتِى أُسْرِىَ بِى فِيهَا أَتَتْ عَلَىَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ فَقَالَ هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلاَدِهَا. قَالَ قُلْتُ وَمَا شَأْنُهَا قَالَ بَيْنَمَا هِىَ تَمْشُطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ أَبِى قَالَتْ لاَ وَلَكِنْ رَبِّى وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ قَالَتْ أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا فَقَالَ يَا فُلاَنَةُ وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِى قَالَتْ نَعَمْ رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِىَ وَأَوْلاَدُهَا فِيهَا قَالَتْ لَهُ إِنَّ لِى إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ وَمَا حَاجَتُكِ قَالَتْ أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِى وَعِظَامَ وَلَدِى فِى ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا. قَالَ ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ. فَأَمَرَ بِأَوْلاَدِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِداً وَاحِداً إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِىٍّ لَهَا مُرْضَعٍ وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِى فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ ». قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَشَاهِدُ يُوسُفَ وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ.

٢-ثبات أصحاب الأخدود

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّى قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَىَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِى طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِى أَهْلِى. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِى السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِىَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَىْ بُنَىَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّى. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَىَّ .وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِىَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِى فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ

عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَىْ بُنَىَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِى قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِى حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِى عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِى ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ.

ثُمَّ ارْمِنِى فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِى. فَجَمَعَ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِى صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِى صُدْغِهِ فِى مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ.

فَأُتِىَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِى أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِىٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِى فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ »

<u>أصحاب الأخدود</u>

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ [البروج: ١-٧].

هؤلاء الذين أحرقوا في خنادق النار مع نسائهم وأطفالهم.

وكان نكالاً دنيوياً بالغَ القسوة وجريمةً نكراء عندما يقادُ أولئك المؤمنون الأطهار إلى خنادقَ وحفر أضرمت فيها النار، هم ونساؤهم وأطفالهم ليلقوا فيها لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله جل وعلا.

حتى تأتي المرأةُ معها طفلُها الرضيعُ تحملُه، حتى إذا أوقفت على شفير الحفرةِ والنارُ تضطرمُ فيها تكعكعت، لا خوفاً من النار ولكن رحمةً بالطفل.

فيُنطقُ اللهُ الطفلَ الرضيع ليقولَ لها مؤيدا مثبتاً مصبراً: يا أمه اصبري فأنك على الحق.

فتتقحم المرأةُ الضعيفةُ والطفل الرضيع، تتقحمان هذه النار.

٣-صاحب جريج

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « كَانَ رَجُلٌ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ ، يُصَلِّى ، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ ، فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا ، فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّى ثُمَّ أَتَتْهُ ، فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ . وَكَانَ جُرَيْجٌ فِى صَوْمَعَتِهِ ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا . فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى ، فَأَتَتْ رَاعِيًا ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلاَمًا ، فَقَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ . فَأَتَوْهُ ، وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلاَمَ ، فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلاَمُ قَالَ الرَّاعِى . قَالُوا نَبْنِى صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لاَ إِلاَّ مِنْ طِينٍ »

واعلم أن جريجا كان مخطئا في تقديم نافلة الصلاة على طاعة أمه، فكان الأولى به أن يخفف الصلاة ويسلم أو يقطعها ويجيب أمه،

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال: ((كان جُرَيج رجلاً عابدًا، فاتخذ صَوْمَعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلى فقالت: يا جُرَيج))، فوصف أبو هريرة لصفة رسول الله أمه حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه، ((فقالت: يا جُرَيج، أنا أمك كلّمني، فقال: يا رب، أمي وصلاتي! فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جُرَيج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي! فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت: يا جُرَيج، فقال: أي رب، أمي وصلاتي! فأقبل على صلاته فقالت: اللهم إن هذا جُرَيج وهو ابني، وإني كلمته فأبى أن يكلّمني، اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المُومِسَات))، قال: ((ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتِن)).

تأمّلوا رحمكم الله، جُرَيج رجل عابد تقي دعته أمه ولم يكن في لهو، بل كان في صلاة وعبادة فلم يجبها حتى غضبت عليه، ودعت عليه بهذه الدعوة: أن يرى وجوه المُومِسَات، أي: الزَّوَانِي، فجاءه البلاء حينئذ:

وفى دعاء أمه عليه وهو فى الصلاة دليل أن دعاء الوالدين إذا كان بنية خالصة أنه قد يجاب، وإن كان فى حال ضجر وحرج ولم يكونا على صواب؛ لأنه قد أجيب دعاء أمه بأن امتحن مع المرأة التى كذبت عليه، إلا أنه تعالى استنقذه بمراعاته لأمر ربه، فابتلاه وعافاه،

أخبار الصحابة رضوان عليهم، فقد كان لهم من الكرامات الربانية واستجابة الدعاء أكثر مما كان لجريج

قال رسول الله : ((ثلاث دعوات مُسْتَجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر)).

كان جريج في أول أمره تاجراً ، وكان يخسر مرة ويربح أخرى ، فقال : ما في هذه التجارة من خير ، لألتمسن تجارة هي خير من هذه التجارة ، فانقطع للعبادة والزهد ، واعتزل الناس ، واتخذ صومعة يترهَّب فيها ، وكانت أمه تأتي لزيارته بين الحين والحين ، فيطل عليها من شُرْفة في الصومعة فيكلمها ، فجاءته في يوم من الأيام وهو يصلي ، فنادته ، فتردد بين تلبية نداء أمه وبين إكمال صلاته ، فآثر إكمال الصلاة على إجابة نداء أمه ، ثم انصرفت وجاءته في اليوم الثاني والثالث ، فنادته وهو يصلي كما فعلت في اليوم الأول ، فاستمر في صلاته ولم

يجبها ،فغضبت غضبا شديداً ، ودعت عليه أن لا يميته الله حتى ينظر في وجوه الزانيات ، ولو دعت عليه أن يفتن لفتن - كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الرواية الأخرى لهذا الحديث - ، فاستجاب الله دعاء الأم ، وهيأ أسبابه ، وعرضه للبلاء

فقد تذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته وزهده ، فسمعت بذلك امرأة بغي يضرب الناس المثل بحسنها وجمالها ، فتعهدت لهم بإغوائه وفتنته ، فلما تعرضت له لم يأبه بها ، وأبى أن يكلمها ، ولم يعرها أي اهتمام ، فازدادت حنقا وغيظا ، حيث فشلت في ما ندبت نفسها له من فتنة ذلك العابد ، فعمدت إلى طريقة أخرى تشوه بها سمعته ، ودبرت له مكيدة عظيمة ، فرأت راعياً يأوي إلى صومعة جريج ، فباتت معه ، ومكنته من نفسها ، فزنى بها ، وحملت منه في تلك الليلة ، فلما ولدت ادَّعت بأن هذا الولد من جريج ، فتسامع الناس أن جريجا العابد قد زنى بهذه المرأة ، فخرجوا إليه ، وأمروه بأن ينزل من صومعته ، وهو مستمر في صلاته وتعبده ، فبدءوا بهدم الصومعة بالفؤوس ، فلما رأى ذلك منهم نزل إليهم ، فجعلوا يضربونه ويشتمونه ويتهمونه بالرياء والنفاق ، ولما سألهم عن الجرم الذي اقترفه ، أخبروه باتهام البغي له بهذا الصبي ، وساقوه معهم ، وبينما هم في الطريق ، إذ مروا به قريبا من بيوت الزانيات ، فخرجن ينظرن إليه ، فلما رآهن تبسم ، ثم أمر بإحضار الصبي ، فلما جاءوا به طلب منهم أن يعطوه فرصة لكي يصلي ويلجأ إلى ربه ، ولما أتم صلاته جاء إلى الصبي ، فطعنه في بطنه بإصبعه ، وسأله والناس ينظرون ، فقال له: من أبوك ؟ فأنطق الله الصبي بقدرته ، وتكلم بكلام يسمعه الجميع ويفهمه ، فقال : أبي فلان الراعي ، فعرف الناس أنهم قد أخطئوا في حق هذا الرجل الصالح ، وأقبلوا عليه يقبلونه ويتمسحون به ، وأرادوا أن يكفروا عما وقع منهم تجاهه ، فعرضوا عليه أن يعيدوا بناء صومعته من ذهب ، فرفض وأصر أن تعاد من الطين كما كانت ، ثم سألوه عن السبب الذي أضحكه عندما مروا به من عند بيوت الزانيات ، فقال : ما ضحكت إلا من دعوة دعتها عليَّ أمي .

إن قصة جريج مليئة بالعبر والعظات ، فهي تبين لنا خطورة عقوق الوالدين وتركِ الاستجابة لأمرهما ، وأنه سبب لحلول المصائب على الإنسان ، فكل هذه المحن والابتلاءات التي تعرض لها هذا العبد الصالح ، كانت بسبب عدم استجابته لنداء أمه ، ومن فوائد القصة ضرورة أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد ، والصلاة هي خير ما يُفْزع إليه عند الكرب ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وأن الله ينجي العبد ويجعل له فرجاً ومخرجاً ، بصلاحه وتقواه كما أنجى جريجا وبرأه مما نسب إليه .

ومن الفوائد التي لها علاقة بالواقع ، أن الماضين كانوا يعتبرون مجرد النظر إلى وجوه المومسات نوعاً من البلاء والعقوبة ، ولهذا دعت أم جريج على ابنها بتلك العقوبة ، فكيف بحالنا في هذا العصر الذي انفتح الناس فيه على العالم انفتاحا شديدا

وهكذا ظهر لنا أن الابتلاء فيه خير للعبد في دنياه وأخراه ، إذا صبر وأحسن الظن بالله، فجريج كان بعد البلاء أفضل عند الله وعند الناس منه قبل الابتلاء ، نسأل الله السلامة من الفتن وأن يثبتنا عند البلاء

<u>٤-قصة الأبرص والأقرع والأعمى</u>

اقتضت حكمة الله جل وعلا أن تكون حياة الإنسان في هذه الدار مزيجاً من السعادة والشقاء ، والفرح والترح ، والغنى والفقر والصحة والسقم ، وهذه هي طبيعة الحياة الدنيا سريعة التقلب ، كثيرة التحول طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ «إِنَّ ثَلاَثَةً فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لِلَّهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، قَدْ قَذِرَنِى النَّاسُ . قَالَ فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، فَأُعْطِىَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا فَقَالَ أَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ هُوَ شَكَّ فِى ذَلِكَ ، إِنَّ الأَبْرَصَ وَالأَقْرَعَ ، قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ ، وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ - فَأُعْطِىَ نَاقَةً عُشَرَاءَ . فَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّى هَذَا ، قَدْ قَذِرَنِى النَّاسُ . قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ ، وَأُعْطِىَ شَعَرًا حَسَنًا . قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ قَالَ فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلاً ، وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا وَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ يَرُدُّ اللَّهُ إِلَىَّ بَصَرِى ، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ . قَالَ فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ . قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ . فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا ، فَأُنْتِجَ هَذَانِ ، وَوَلَّدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ ، تَقَطَّعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى ، فَلاَ بَلاَغَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِى سَفَرِى . فَقَالَ لَهُ إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ كَأَنِّى أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ . فَقَالَ لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ . فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ وَأَتَى الأَعْمَى فِى صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى ، فَلاَ بَلاَغَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِى سَفَرِى . فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِى ، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِى ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَىْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ . فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ »

إن هذه القصة تبين بجلاء أن الابتلاء سنة جارية وقدر نافذ ، يبتلي الله عباده بالسراء والضراء والخير والشر ، فتنة واختباراً

كما تشير القصة إلى معنىً عظيم ، وهو أن الابتلاء بالسراء والرخاء قد يكون أصعب من الابتلاء بالشدة والضراء ، وأن اليقظة للنفس في الابتلاء بالخير ، أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر .

كما تؤكد القصة على أن خير ما تحفظ به النعم شكر الله جل وعلا الذي وهبها وتفضل بها ، وشكره مبنيٌ على ثلاثة أركان لا يتحقق بدونها : أولها الاعتراف بها باطناً ، وثانيها التحدث بها ظاهراً ، وثالثها تصريفها في مراضيه ومحابه ، فبهذه الأمور الثلاثة تحفظ النعم من الزوال ، وتصان من الضياع .

٥- الابتلاءوالصخرة

عباد الله، الابتلاء سنةُ الله في خلقه، يبتليهم بالخير والشر والضار والنافع، ليرى صدق الصادقين وإقبال المقبلين عليه، فمن أ ُلهم الإنابة والتضرع والدعاء عند نزول البلاء فقد أريد به الإجابة. والناس في هذه الدنيا متقلبون فيها بين خير وشر ونفع وضر، وليس لهم في أيام الرخاء إلا الشكر والثناء، ولا في أيام المحنة والبلاء إلا الصبر والدعاء، وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أنه ما من ليل إلا بعده صباح، وما من ضيق وشدة إلا بعده فرح ومخرج:

تصبّر إن عقبَى الصبر خيرٌ...ولا تجزع لنائبة تنوبُ

فإن اليسر بعد العسر يأتي...وعند الضيق تنكشف الكروبُ

وكم جَزعت نفوسٌ من أمورٍ...أتى من دونِها فرجٌ قريب

والرسول في هذا الباب يذكرنا بقصة الثلاثة الذي اختارهم الله للابتلاء، وكيف أن الله سبحانه نجاهم بإخلاصهم وصدقهم ودعائهم له سبحانه وتعالى، يقول عليه الصلاة والسلام: ((انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ـ أي: دخلوا الغار للمبيت فيه قال: ـ فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ـ أي: يتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم أي: بأرجي عمل عملوه لله تعالى ـ

قال الأول:اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً ـ أي: لا أقدم عليهما أحدًا بهذا الغبوق من الحليب ـ قال: فنأى بي طلب الشجر يومًا ـ أي: استطرد مع غنمه في المرعى إلى أن بعُد عن مكانه على غير العادة ـ قال: فلم أرح عليهما ـ أي: لم أرجع عليهما ـ حتى ناما، فحلبت لهما غبُوقهُما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ـ أي: يتصايحون ببكاء من شدة الجوع ـ قال: فاستيقظا فشربا غبُوقهُما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت لا يستطيعون الخروج منه)).

الله أكبر عباد الله، فهذا الرجل بلغ مبلغًا عظيمًا في بره بوالديه لأن الله عز وجل قال: وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا [العنكبوت:٨]، وقال: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوْا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا [الإسراء:٢٣]، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أقبل رجلٌ إلى نبي الله فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، فقال: ((هل لك من والديك أحد حي؟)) قال: نعم بل كلاهما، قال: ((فتبتغي الأجر من الله تعالى؟!)) قال: نعم، قال: ((فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)) متفق عليه.

قال الثاني: ((اللهم إنه كانت لي ابنة عمّ كانت أحبّ الناس إلي)) وفي رواية: ((أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها ـ أي: طلبت منها ما يطلب الرجل من زوجة ـ فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين ـ أي: ألمت بها حاجة ـ قال: فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ـ أي: لا تزل عفافي وبكارتي إلا بزواج صحيح ـ قال: فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم))، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

الله أكبر عباد الله، مخافة الله جعلت هذا الرجل ينصرف عن ابنة عمّه، والتي تمكن منها بعد أن وعظته بتقوى الله عز وجل.

<u>أما الثالث فقال</u>: ((اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفَرَق أرُزٍّ، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فَرقَه فرغب عنه، فثمّرتُ أجره ـ أي: كثّرت أجره بتنميته حتى أصبح مالاً كثيرًا ـ قال: فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فارتعجت، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي، فخرجوا يمشون)) متفق عليه.

الله أكبر عباد الله، حفظ مال أجيره، بل ونماه، ولمّا رجع إليه أخذ كل شيء له، سبحان الله عباد الله، أين هذا الرجل لينظر صورَ الظلم لهؤلاء الأجراء والعمال في هذا الزمن وما يقوم به الكفلاء نحو مكفوليهم؟! بعضهم يؤخر مرتبه شهورًا عديدة أو يعطيه جزءًا منه ويماطل في الجزء المتبقي، فيتذلل هذا العامل لكفيله، ولربما سابقت دموعُه كلماتِه، لكن دون جدوى، فأين هؤلاء من قول المصطفى : ((أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)) رواه ابن ماجه؟!

من أعظم العبر والدروس من قصة هؤلاء الثلاثة التعرف على الله في الرخاء، فإن هؤلاء الثلاثة دعوا الله بإخلاص، واستذكروا أعمالاً صالحة كانوا تعرفوا فيها على الله في أوقات الرخاء راجين أن يتعرف إليهم ربهم مقابلها في أوقات الشدة، كما ورد في الحديث الصحيح: ((تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)) رواه أحمد.

وانظروا ـ فضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل وتحمل المشقة لأجلهما، وانظروا ثمرة العفاف والكف عن الحرام، وكذلك فضل حُسن العهد وأداء الأمانة والسماحة في المعاملة.

الحمد لله الذي جعل بعد الشدة فرجًا، ومن الضيق سعة ومخرجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: عباد الله، يقول الله تعالى:أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَءلاهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ [النمل:٦٢]، وقال تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ [غافر:٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام لابن عباس : ((واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا)) رواه أحمد وصححه الألباني، وكتب عمر لأبي عبيدة : (مهما نزل بامرئٍ من شدة إلا جعل الله بعدها فرجًا، وإنه لن يغلب عسر يسرين).

الباب الرابع
الابتلاء في السنة النبوية

الأنبياء يمرضون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا . قَالَ « أَجَلْ إِنِّى أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ » قُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ قَالَ « أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ الله عنه

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ وَلاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلاَءُ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأَرْزِ لاَ تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ »

عدم طلب البلاء

عَنْ عَلِىٍّ قَالَ كُنْتُ شَاكِيًا فَمَرَّ بِى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأَنَا أَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَجَلِى قَدْ حَضَرَ فَأَرِحْنِى وَإِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا فَارْفَعْنِى وَإِنْ كَانَ بَلاَءً فَصَبِّرْنِى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « كَيْفَ قُلْتَ ». قَالَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ قَالَ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ فَقَالَ « اللَّهُمَّ عَافِهِ أَوِ اشْفِهِ ». شُعْبَةُ الشَّاكُّ. فَمَا اشْتَكَيْتُ وَجَعِى بَعْدُ

مضاعفة البلاء تضاعف الأجر

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يُوعَكُ فَوَضَعْتُ يَدِى عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَىَّ فَوْقَ اللِّحَافِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ « إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلاَءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ » قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً قَالَ « الأَنْبِيَاءُ ».

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاَءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ »

الدُّنْيَا بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ

عن مُعَاوِيَةَ قال : سَمِعْتُ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ : « لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ

البلاء يمحو الذنوب

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ قُلْت يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً ، قَالَ الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ مِنْ النَّاسِ وَمَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ

تمنى أهل البلاء يوم القيامة

عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ :يَوَدُّ أَهْلُ الْبَلاَءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَنَّ أَجْسَادَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ

نسيان البلاء يوم القيامة

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ

البلاء كفارة للذنوب

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ «لاَ يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إِلاَّ بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ ». قَالَ وَقَرَأَ {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (٣٠) سورة الشورى

المعاصي سبب البلايا والمحن

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ «إِذَا - يَعْنِى - ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنِ وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلاَءً فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ »

رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ :لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ

و عَنْ عَائِشَةَ تَبْلُغُ بِهِ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِى الأَرْضِ أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَهْلِ الأَرْضِ بَأْسَهُ ». قَالَتْ وَفِيهِمْ أَهْلُ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ «نَعَمْ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِي الأَرْضِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَأْسَهُ بِأَهْلِ الأَرْضِ " ، قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ ؟ قَالَ : "نَعَمْ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ ، يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ

من يرد الله به خيراً يصب منه

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ »

النهي عن تمني الموت لضرٍّ نزل به

عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِى ، وَتَوَفَّنِى إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِى »

من علامات الساعة تمني الموت

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى مَكَانَهُ »

ثواب من حمد الله على البلاء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَيَقُولُ : انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ ، فَإِنْ هُوَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ

إِلَى اللَّهِ وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَيَقُولُ لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ أَنَا تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ أَنَا أَشْفَيْتُهُ أَنْ أُبَدِّلَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ ، وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ

ثواب المرض وأن ثواب أعماله لا يفوت بسبب المرض

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَكِهِ أَنِ اكْتُبْ لِعَبْدِي أَجْرَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الصِّحَّةِ وَالرَّخَاءِ إِذْ شَغَلْتُهُ ، فَيَكْتُبُ لَهُ "

وعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِذَا ابْتَلَى اللَّهُ الْعَبْدَ بِالْبَلاءِ فِي الدُّنْيَا قَالَ اللَّهُ لِصَاحِبِ الْيَسَارِ : لا تَكْتُبْ عَلَى عَبْدِي خَطِيئَةً وَاحِدَةً . وَقَالَ لِصَاحِبِ الْيَمِينِ: اكْتُبْ لِعَبْدِي أَحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صِحَّتِهِ حَتَّى أَقْبِضَهُ إِلَيَّ أَوْ أُطْلِقَهُ مِنْ وَثَاقِي "

المرض كفارة للذنوب

عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلاَ مُسْلِمَةٍ وَلاَ مُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ يَمْرَضُ مَرَضاً إِلاَّ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ »

ثواب من أصيب بالصداع والمليلة

عَنْ مُعَاذِ بْنِ سَهْلِ بْنِ أَنَسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ يَعُودُهُ ، فَقَالَ : بِالصِّحَّةِ لا بِالْمَرَضِ . فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنَّ الصُّدَاعَ وَالْمَلِيلَةَ مَا يَزَالانِ بِالْمُؤْمِنِ ، وَإِنَّ ذُنُوبَهُ مِثْلُ أُحُدٍ ، فَمَا يَدَعَانِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ "

ثواب من أصيب بالصرع فصبر

عَنْ عِمْرَانَ أَبِى بَكْرٍ قَالَ حَدَّثَنِى عَطَاءُ بْنُ أَبِى رَبَاحٍ قَالَ قَالَ لِى ابْنُ عَبَّاسٍ أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَتْ إِنِّى أُصْرَعُ ، وَإِنِّى أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِى . قَالَ «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ » فَقَالَتْ أَصْبِرُ . فَقَالَتْ إِنِّى أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا

الأنبياء أشد الناس بلاء

عَنْ أَبِى عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- نَعُودُهُ فِى نِسَاءٍ فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »أصحاب البلاء والكفارات

عَنْ مُسْلِمٍ مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ، قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِيَاسِ بْنِ أَبِي فَاطِمَةَ الضَّمْرِيِّ فَحَدَّثَنِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُصِحَّ فَلا يَسْقَمُ؟ فَابْتَدَأْنَاهُ فَقُلْنَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَعَرَفْنَاهَا فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحَمِيرِ الصَّيَّالَةِ؟ قَالُوا: لا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَلا تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا أَصْحَابَ بَلاءٍ وَأَصْحَابَ كَفَّارَاتٍ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ إِنَّ اللَّهَ لَيَبْتَلِي الْمُؤْمِنَ الْبَلاءَ وَمَا يَبْتَلِيهِ بِهِ إِلا لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَهُ مَنْزِلَةً لَمْ يَبْلُغْهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ فَيَبْتَلِيهِ مِنَ الْبَلاءِ مَا يُبَلِّغُهُ تِلْكَ الدَّرَجَةَ.

ثواب الحمد على البلاء

عَنْ أَبِى الأَشْعَثِ الصَّنْعَانِىِّ أَنَّهُ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَهَجَّرَ بِالرَّوَاحِ فَلَقِىَ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ وَالصُّنَابِحِىُّ مَعَهُ فَقُلْتُ أَيْنَ تُرِيدَانِ يَرْحَمُكُمَا اللَّهُ قَالاَ نُرِيدُ هَا هُنَا إِلَى أَخٍ لَنَا مَرِيضٍ نَعُودُهُ. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا حَتَّى دَخَلاَ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقَالاَ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ قَالَ أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةٍ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنِّى إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْداً مِنْ عِبَادِى مُؤْمِناً فَحَمِدَنِى عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا وَيَقُولُ الرَبُّ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِى وَابْتَلَيْتُهُ وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ »

ثواب من ابتلي بعينيه فصبر

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ »

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضى الله عنه - قَالَ سَمِعْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ «إِنَّ اللَّهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِى بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ »

ثواب من ابتلي بشيء من البنات

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ "

السعيد من جنب الفتن

عَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ ايْمُ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا .

ثواب من ابتلي ببدنه

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ «إِذَا ابْتَلَى اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ بِبَلاَءٍ فِى جَسَدِهِ قَالَ لِلْمَلَكِ اكْتُبْ لَهُ صَالِحَ عَمَلِهِ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُ فَإِنْ شَفَاهُ غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَإِنْ قَبَضَهُ غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ »

لقد كان من كلام المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في التشويق والتثبيت:

-صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

- ربح البيع أبا يحيى.

-والله لا يقاتلهم اليوم الرجل مقبلاً غير مدبر فيقتل إلا دخل الجنة.

فكان من أتباعه من يقول:

- فزت ورب الكعبة (حين طعن).

- إني لأجد رائحة الجنة من وراء أحد.

- بخ بخ يا رسول الله ليس بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

عبرة مما أصاب الصحابة من بلاء ومحنة

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا . فَقَالَ « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ

جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ »

فتنة المال

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِىَّ كَانَ يُصَلِّى فِى حَائِطِهِ فَطَارَ دُبْسِىٌّ فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ يَلْتَمِسُ مَخْرَجًا فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ فَجَعَلَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ سَاعَةً ثُمَّ رَجَعَ إِلَى صَلاَتِهِ فَإِذَا هُوَ لاَ يَدْرِى كَمْ صَلَّى فَقَالَ لَقَدْ أَصَابَتْنِى فِى مَالِى هَذَا فِتْنَةٌ فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَذَكَرَ لَهُ الَّذِى أَصَابَهُ فِى حَائِطِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ صَدَقَةٌ لِلَّهِ فَضَعْهُ حَيْثُ شِئْتَ

قَالَ سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ - رضى الله عنه - فَقَالَ أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِى الْفِتْنَةِ قُلْتُ أَنَا ، كَمَا قَالَهُ . قَالَ إِنَّكَ عَلَيْهِ - أَوْ عَلَيْهَا - لَجَرِىءٌ . قُلْتُ « فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِى أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْىُ » . قَالَ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ الَّتِى تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ . قَالَ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا . قَالَ أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ قَالَ يُكْسَرُ . قَالَ إِذًا لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا قُلْنَا أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ قَالَ نَعَمْ ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ ، إِنِّى حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ . فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ الْبَابُ عُمَرُ

الصبر عند الصدمة الأولى

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضى الله عنه - قَالَ مَرَّ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - بِامْرَأَةٍ تَبْكِى عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ «اتَّقِى اللَّهَ وَاصْبِرِى » قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّى ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِى ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ . فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - فَأَتَتْ بَابَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ لَمْ أَعْرِفْكَ . فَقَالَ « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى »

عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: يقول الله - سبحانه -: ابنَ آدم إن صبرتَ واحتسبتَ عند الصدمةِ الأولى؛ لم أرْضَ لك ثواباً دون الجنة

"أصْلُ الصَّدمِ: الضربُ في شيء صُلْبٍ، ثم استُعمِلَ مجازا في كلِّ مكروهٍ حَصَلَ بَغتَةً"

فالمصيبةُ صَدْمَةٌ نَفسِيَّةٌ بكلِّ ما في العبارةِ من معنى؛ فإنها تَهجُم على النفس؛ فتصدمها وتبغتها وتكشف عن حقيقتِها في تلك اللحظة..(عند الصدمة الأولى) عند هَيَجان العاطفة وجَيَشان المشاعر وسَيَلان اللِّسان وانفِلاتِ الزِّمام

فـ(الصبرُ عند الصدمةِ الأولى): عنوانُ قوةِ الإيمان وصِدق الاحتساب وتحمُّلُ المصيبةِ ابتغاءَ ما عند الله

(اتقي الله) توطئةٌ لقولِه (واصبري)؛ كأنه قيل لها: خافي غضب الله إن لم تصبري، ولا تجزعي؛ ليحصلَ لك الثواب"

(وإنما الصبر عند الصدمةِ الأولى): أي أصْعبُه في أول وَهلةٍ، ثم ما بعده أسهلُ منه، وهو صِدقُ السَّجيةِ وثباتُها"

إنما الصبر الشاقُّ على النفس الذي يعظم الثوابُ عليه إنما هو عند هُجومِ المصيبةِ وحرارتِها؛ فإنه يدلُّ على قوةِ القلبِ وتثبتِه في مقامِ الصَّبر، وأما إذا بردَت حرارةُ المصيبةِ فكلُّ أحدٍ يصبر إذ ذاك؛ ولذلك قيل: يجبُ على كلِّ عاقلٍ أن يلتزمَ عند المصيبة ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاث".

الصبر عند البلاء

واعلم...

إن الله إن أخذ منك شيئاً فهو ملكه...

وإن أعطاك شيئاً فهو ملكه...

فكيف تسخط إذا أخذ منك ما يملكه هو؟!! (فإن لله ما أخذ وله ما أعطى)

فعليك إن أخذ منك شيئاً محبوباً لك أن تقول هذا لله له أن يأخذ ما يشاء وله أن يعطي ما يشاء..

فاصبر... وارض... واستلذ بقضاء الله وقدره... وثِق بحكمته وتدبيره.

وما أنت إلا عبد من عباده.

واصبر يا أخي على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله ، ولا بد أن تحتسب هذا الصبر وتتذكر أنه رافع لدرجاتك... ومكفر لخطاياك.

ولا تحزن.. فما أشقاك الله إلا ليسعدك ،وما حرمك إلا ليتفضل عليك، وما أخذ منك إلا ليعطيك، وما كان الله ليؤذيك بل لأنه يحبك...

وفي الحديث: (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط)

يا من ابتلاك الله اصبر واحتسب ولك الجنة

إن هذه الدنيا لا تخلو من الأكدار ولا تصفو لأحد أبدا..ما هي إلا دار امتحان وابتلاء ما سرت إلا وأحزنت..وما أضحكت إلا وأبكت.. وما وسعت إلا وضيقت

وصايا للصبر على المصائب

في هذه الدنيا منح ومحن، وأفراح وأتراح، وآمال وآلام؛ فدوام الحال من المحال، والصفو يعقبه الكدر، والفرح فيها مشوب بترح وحذر. وهيهات أنْ يضحك من لا يبكي، وأنْ يتنعّم من لم يتنغَّصْ، أو يسعدَ من لم يحزنْ!!

هكذا هي الدنيا، وهذه أحوالها، وليس للمؤمن الصادق فيها إلا الصبر؛ فذلكم دواء أدوائها. قال الحسن - رحمه الله -: «جرَّبْنا وجرَّب المجرِّبون فلم نر شيئاً أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يُداوى بغيره». «وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»، وكان أمر المؤمن ـ من بين الناس ـ أمراً عجيباً؛ لأنه «إنْ أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له»

ما يعين على الصبر على النوائب:

إعداد النفس:

على المسلم أن يهيِّئ نفسه للمصائب قبل وقوعها، وأنْ يدرِّبها عليها قبل حدوثها، وأنْ يعمل على صلاح شؤونها؛ لأنّ الصبر عزيز ونفيس، وكل أمر عزيز يحتاج إلى دربة عليه.
عليه أنْ يتذكر دوماً وأبداً زوال الدنيا وسرعة الفناء، وأنْ ليس لمخلوق فيها بقاء، وأنّ لها آجالاً منصرمة، ومدداً منقضية، وقد مَثّل الرسول - عليه الصلاة والسلام -حالَه في الدنيا «كراكب سار في يوم صائف، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»
فلا تغترّ - أيها المسلم - برخاء، ولا تؤمِّلْ أنْ تبقى الدنيا على حالة، أو تخلوَ من تقلُّب وإصابة واستحالة؛ فإنّ من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها، وقد قال بعض الحكماء: «من حاذر لم يهلع، ومن راقب لم يجزع، ومن كان متوقّعاً لم يكن متوجِّعاً». ومن أحبَّ البقاء فليُعِدَّ للمصائب قلباً صبوراً.

الإيمان بالقضاء والقدر:

من آمن بالقضاء والقدر، وعلم أنّ الدنيا دار ابتلاء وخطر، وأنّ القدر لا يُردّ ولا يؤجَّل اطمأنت نفسه، وهان أمره. ومن المشاهَد المعلوم أنّ المؤمنين هم أقلّ الناس تأثُّراً بمصائب الدنيا، وأقلُّهم جزعاً وارتباكاً؛ فالإيمان بالقضاء والقدر صار كصِمَام الأمان الواقي لهم - بإذن الله - من الصدمات والنكسات. إنهم مؤمنون بما أخبرهم به الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم -: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف»(٢)، وبأنّ الآجال والأرزاق مقرَّرة مقدَّرة والمرء في بطن أمه؛ فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «وكّل الله بالرَّحِم مَلَكاً، فيقول: أيْ ربِّ نُطفَة؟ أيْ ربِّ علقة؟ أيْ ربِّ مُضغَة؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أيْ ربِّ أذكر أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما» الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمه»

الباب الخامس

اقوال فى الابتلاء

ابتلاء المؤمن

موقف المؤمن من الابتلاء

أولاً : إن المصائب والبلاء امتحانٌ للعبد ، وهي علامة حب من الله له ؛ إذ هي كالدواء ، فإنَّه وإن كان مُرًّا إلا أنّك تقدمه على مرارته لمن تحب - ولله المثل الأعلى - ففي الحديث الصحيح : (إنَّ عِظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنَّ الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١) ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة ، وكيف لا وفيه تُرفع درجاته وتكفر سيئاته ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة) رواه الترمذي

وقال الحسن البصري رحمه الله : لا تكرهوا البلايا الواقعة ، والنقمات الحادثة ، فَلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ، ولَرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك - أي : هلاكك - .

وقال الفضل بن سهل : إن في العلل لنعَماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها ، فهي تمحيص للذنوب ، وتعرّض لثواب الصبر ، وإيقاظ من الغفلة ، وتذكير بالنعمة في حال الصحة ، واستدعاء للتوبة ، وحضّ على الصدقة .

والمؤمن يبحث في البلاء عن الأجر ، ولا سبيل إليه إلاّ بالصبر ، ولا سبيل إلى الصبر إلاّ بعزيمةٍ إيمانيةٍ وإرادةٍ قوية .

وليتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم :(عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) رواه مسلم

وعلى المسلم إذا أصابته مصيبة أن يسترجع ويدعو بما ورد .

فما أجمل تلك اللحظات التي يفر فيها العبد إلى ربه ويعلم أنه وحده هو مفرج الكرب ، وما أعظم الفرحة إذا نزل الفرج بعد الشدة ، قال الله تعالى : (وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ) .

وروى مسلم (٩١٨) عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله " إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها "إلا أخلف الله له خيراً منها) . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني قلتها فأخلف اللهُ لي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً :وهناك أمور إذا تأملها من أصيب بمصيبة هانت عليه مصيبته وخفت .

وقد ذكر ابن القيم في كتابه القيم أموراً منها :

١- " أن ينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه ، وادَّخر له إن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة ، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي .

٢- أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وأنه لو فَتَّش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن شرور الدنيا أحلام نوم ، أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سَرَّت يوماً ساءت دهراً ، وإن مَتَّعت قليلاً منعت طويلاً ، ولا سرته بيوم سروره إلا خبأت له يوم شرور ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : لكل فرحة ترحة ، وما مليء بيت فرحاً إلا مليء ترحاً . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء .

٣- أن يعلم أن الجزع لا يردها - أي : المصيبة - بل يضاعفها ، وهو في الحقيقة من تزايد المرض .

٤- أن يعلم أن فوات ثواب الصبر والتسليم وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة .

٥- أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، وإذا صبر واحتسب وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه ، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم ، لا لطم الخدود ، وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور ، والسخط على المقدور .

٦- أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه ويكفيه من ذلك " بيت الحمد " الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه ، فلينظر أي المصيبتين أعظم : مصيبة العاجلة ، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد ، وفي الترمذي مرفوعاً : (يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء) ، وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس

٧- أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحا ببابه ، لائذاً بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعا قصص الشكوى إليه .

٨- أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا وآجلا ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يفتقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظا لصحة عبوديته ، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلي بنعمائه ، كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

٩- أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة ، يقلبها الله سبحانه ، كذلك وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك ، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : (حُفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) " انتهى باختصار .

<u>ثالثاً :كثير من الناس إذا أحسن تلقي البلاء علم أنه نعمة عليه ومنحة لا محنة</u>

قال شيخ الإسلام رحمه الله :" مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله "
وقال سفيان : " ما يكره العبد خير له مما يحب ، لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء ، وما يحبه يلهيه " .

وكان ابن تيمية رحمه الله يعد سجنه نعمة عليه تسبب فيها أعداؤه .

قال ابن القيم : " وقال لي مرة - يعني شيخ الإسلام - ما يصنع أعدائي بي !! أنا جنتي وبستاني في صدري ، أنى رحت فهي معي لا تفارقني ، إنّ حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله ، وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه ، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط ، مع كل ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها

أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانًا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفضيل إلا الله عز وجل:

<u>فمنها:استخراج عبوديتهم</u>، وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين، غالبين؛ لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم عدوهم؛ لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة،

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة، وكونهم مغلوبين تارة.
فإذا غُلبوا.. تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلبوا؛ أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوه، ونصروا أولياءه.

ومنها :أنهم لو كانوا دائمًا منصورين؛ لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة. ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا؛ لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية: أن كانت لهم الدولة تارةً، وعليهم تارةً، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم، والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم،

كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد:{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[١٣٩]إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[١٤٠]وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ[١٤١]أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[١٤١]وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[١٤٣]وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ[١٤٤] وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ[١٤٥]}[سورة آل عمران.

فذكر سبحانه أنواعا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولًا بين الناس، فيصيب كلا منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال، ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم -وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه- ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

وإن مما يزيد طمأنينة المؤمن ويقوي صبره إذا علم هذه النقاط الست:

١ - **أن الابتلاء فيه تكفير للسيئات**: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ،عن النبي قال: ((ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ،حتى الشوكة يشاكها ،إلا كفر الله بها من خطاياه)) [متفق عليه].

٢ - **رفع المنزلة والدرجة عند الله** تعالى ،المؤمن إذا ابتلاه الله فصبر على بلواه ،لا تكفر عنه سيئاته فحسب بل يجزل الله له أيضاً في الثواب ويرفع مكانته عند الناس وفي الجنة.

٣ - **المكافأة في الدنيا ،وذلك بأن يعوضهم الله ما فقدوه** ،ومن هذا القبيل ما حدث لأيوب عليه السلام.

٤ - **إخلاص النفوس لله** ،فإن الابتلاء من شأنه أن ينقي النفوس من الشوائب والقلوب من الرياء والعمل من الشرك ويوجهها نحو الإخلاص.

٥ - **إظهار الناس على حقيقتهم.** فمن الناس من يدعي الصبر وليس بصابر ،ويدعي الزهد وليس بزاهد، فإن الابتلاء لا تطيقه كل النفوس. ومن هنا كان الابتلاء لتمييز أصحاب الهمم العالية والنفوس القويمة والعزائم الفتية المؤمنة ،من أصحاب الهمم الضعيفة والنفوس الساقطة والعزائم الخائرة.

٦ - **الإقتداء بالصابرين**: وفي هذا حافز للمؤمن أن يصبر ويصابر ويتحمل كما صبر أولئك الصابرون المؤمنون، فينال ما نالوا من الرضا والقبول والنعيم المقيم في الآخرة والعزة في الدنيا.

الأذى والابتلاء في حياة المؤمنين

الابتلاء سنة ربانية

الصلاة فيها تكليف،

الله يقول: حافظوا على الصلوات كلها، لكن قال: والصلاة الوسطى، فضيعنا الصلاة الوسطى - فلا. حتى لا تضيع وقت صلاة العصر، هذه فيها بلاءلكن الله هو الذي يقول:إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً [النساء:١٠٣] أي:مفروضاً معلوماً في جميع الأوقات، فالذي حددها هو الله، يقول الله:أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ [الإسراء:٧٨] أي: الظهر والعصر:إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ [الإسراء:٧٨] أي: المغرب والعشاء ثم قال: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً [الإسراء:٧٨] أي صلاة الفجر.

والزكاة فيها تكليف؛ لأن المال محبوب إلى النفس، وإذا جئت لتخرج الزكاة فأنت تبرهن في إخراجك على أن حبك لله أكثر من حبك لهذا المال،

والصيام فيه تكليف، تدع شهوتك وطعامك وشرابك وزوجتك من أجل الله، فهذا نوع من التكليف،

والحج تكليف، كل التكاليف الشرعية فيها مشقة، وهي نوع من الابتلاء،

وكذلك الشهوات المحرمة، فميل النفس إلى الزنا، وميلها إلى لخمور، وميلها إلى ممارسة الربا، وميلها إلى شرب المحرمات، وكل هذا في النفس البشرية، وهو ابتلاء، ولكن المؤمن عنده إيمان قوي يحجزه ولو قطعوه قطعة قطعة؛ لأنه يخاف الله، بل لو دعي إلى الجريمة يقول: إني أخاف الله رب العالمين

لماذا هذا العذاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللصحابة أليسوا على الحق؟ لماذا لم ينصرهم الله ابتداء؟ ولماذا لم يعصمهم الله من إيذاء الكفار والمشركين؟

والجواب على هذا التساؤل هو: أن للإنسان في الدنيا أول صفة أنه مبتلى، وأنه مكلف بإعلاء الدين وإظهار كلمة الإسلام، العبودية لله سبحانه وتعالى، فالله يقول وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات:٥٦] وقال: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ [الملك:٢] [أي:يختبركم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [الملك:٢] وقال: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [الكهف:٧].

فمستلزمات العبودية والابتلاء والتكليف تحمل المشاق، ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الابتلاءات والفتن، والفتنة والابتلاء هي المحك وهي الميزان الذي يميز به بين الصادق والكاذب،

قال الله تعالى فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [البقرة:٨-١٠].

وجد أناس قالوا: آمنا؛ لكن لما جاء المحك، لما جاء الابتلاء لم يثبتوا تأتي صلاة الفجر فلا يصلون، وأثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر، جاء الجهاد فتخلفوا، جاء الإنفاق فكانوا يلمزون في الصدقات،

لما طلبوا للجهاد قال أحدهم: لا تفتني أنا إذا جئت ورأيت النساء لا أستطيع أن أقاتل، قال الله: أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا [التوبة:٤٩]

طلب منهم الإنفاق قالوا: هذه أخت الجزية. أيها الإخوة: البلاء سنة إلهية، وسنة كونية ربانية، فإنه لا بد من البلاء للإنسان، حتى يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق

المسلم عليه أن يسأل الله العافية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس حين سأله وقال: (أدع الله لي يا رسول الله، قال: سل الله العافية، قال: زدني، قال: سل الله العافية، ثم قال: يا عباس ! يا عم رسول الله ما أوتي عبد في الدنيا ولا في الآخرة أحسن من العافية)

<u>يختلف المؤمن في موقفه من المقدور عن سائر البريّات</u> ، فهو يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، و هذا ما يحدوه لتسليم أمره ، و زمام قياده إلى ربّه الرؤوف الرحيم ، الذي وعد المؤمنين و المؤمنات بالتثبيت عند الشدائد و الملمّات .

{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم : ٢٧] .

<u>و المؤمن باحتسابه الأجر فيما يلحقه من البلاء</u> ، موعود بجزيل الأجر ، و عظم الجزاء ، و لذلك يتلقاه بتثبيت الله تعالى له ، راضياً مطمئناً ، و إن لم يكن يتمناه .

يقول مسروق الوادعي رحمه الله (إن أهل البلاء في الدنيا إذا لبثوا على بلائهم في الآخرة إن أحدهم ليتمنى أن جلده كان قرض بالمقاريض

<u>و في مقابل المؤمن الثابت كالطود الشامخ أمام نوائب الدهر</u> ، صنف آخر من البشر لا يلوح له البلاء إلا و تنهار قواه ، و يهتز كيانه ، و لا يلبث أن يسقط في ما يعترض سبيله من فتن ، و هذا شأن المنافقين ، و من قالوا آمنّا بألسنتهم و لم يدخل الإيمان في قلوبهم .

فهم كخُشُبٍ مسنّدةٍ ، لا حياة فيها و لا إيمان يقويها .

ليس من مات فاستراح بـِمَيْتٍ *** إنما المَيْتُ ميِّتُ الأحياء!
إنما المَيْتُ من يعيش كئيباً ***كاسِفاً بالَـهُ قليلَ الرجاء !

و لعلّ من المناسب في ختام هذا الكلمات التذكير بقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله (ما أغبط أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء)

موقف المؤمن من الابتلاء

أولاً :إن المصائب والبلاء امتحانٌ للعبد ، وهي علامة حب من الله له ؛ إذ هي كالدواء ، فإنّه وإن كان مُرّا إلا أنّك تقدمه على مرارته لمن تحب - ولله المثل الأعلى - ففي الحديث الصحيح : (إنَّ عِظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنَّ الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط)

ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة ، وكيف لا وفيه ُترفع درجاته وتكفر سيئاته ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة)

وقال الحسن البصري رحمه الله : لا تكرهوا البلايا الواقعة ، والنقمات الحادثة ، فَلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ، ولَرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك - أي : هلاكك - .

وقال الفضل بن سهل : إن في العلل لنعَماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها ، فهي تمحيص للذنوب ، وتعرّض لثواب الصبر ، وإيقاظ من الغفلة ، وتذكير بالنعمة في حال الصحة ، واستدعاء للتوبة ، وحضّ على الصدقة .

والمؤمن يبحث في البلاء عن الأجر ، ولا سبيل إليه إلاّ بالصبر ،ولا سبيل إلى الصبر إلاّ بعزيمةٍ إيمانيةٍ وإرادةٍ قوية .

وعلى المسلم إذا أصابته مصيبة أن يسترجع ويدعو بما ورد .

فما أجمل تلك اللحظات التي يفر فيها العبد إلى ربه ويعلم أنه وحده هو مفرج الكرب ، وما أعظم الفرحة إذا نزل الفرج بعد الشدة

وروى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله " إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها "إلا أخلف الله له خيراً منها) . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني قلتها فأخلف اللهُ لي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً :وهناك أمور إذا تأملها من أصيب بمصيبة هانت عليه مصيبته وخفت .

وقد ذكر ابن القيم في كتابه القيم "زاد المعاد أموراً منها :

١- " أن ينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه ، وادَّخر له إن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة ، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي .

٢- أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وأنه لو فَتّش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن شرور الدنيا أحلام نوم ، أو كظل زائل ، إن أضحكت

قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرَّت يوماً ساءت دهراً ، وإن متّعت قليلاً منعت طويلاً ، ولا سرته بيوم سروره إلا خبأت له يوم شرور ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : لكل فرحة ترحة ، وما مليء بيت فرحاً إلا مليء ترحاً . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء .

٣- أن يعلم أن الجزع لا يردها - أي : المصيبة - بل يضاعفها ، وهو في الحقيقة من تزايد المرض .

٤- أن يعلم أن فوات ثواب الصبر والتسليم وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة .

٥- أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، وإذا صبر واحتسب وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه ، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم ، لا لطم الخدود ، وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور ، والسخط على المقدور .

٦- أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه ويكفيه من ذلك " بيت الحمد " الذي يبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه ، فلينظر أي المصيبتين أعظم : مصيبة العاجلة ، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد ، وفي الترمذي مرفوعاً : (يود ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء) ، وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس .

٧- أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحا ببابه ، لائذاً بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعا قصص الشكوى إليه .

٨-أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلا وآجلا ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يفتقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظا لصحة عبوديته ، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلي بنعمائه ، كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

٩- أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة ، يقلبها الله سبحانه ، كذلك وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك ، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم (حُفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) " انتهى باختصار .

ثالثاً :كثير من الناس إذا أحسن تلقى البلاء علم أنه نعمة عليه ومنحة لا محنة

قال شيخ الإسلام رحمه الله : " مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله " .

وقال سفيان : " ما يكره العبد خير له مما يحب ، لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء ، وما يحبه يلهيه " .
وكان ابن تيمية رحمه الله يعد سجنه نعمة عليه تسبب فيها أعداؤه .
قال ابن القيم : " وقال لي مرة - يعني شيخ الإسلام - ما يصنع أعدائي بي !! أنا جنتي وبستاني في صدري ، أنى رحت فهي معي لا تفارقني ، إنّ حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .
وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هده النعمة أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا .
وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله ، وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه ، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط ، مع كل ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها " انتهى

<u>الابتلاء وطريق السلامة</u>

<u>القسم الأول</u> : **<u>إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن ، فإن رده ذلك الابتلاء والامتحان إلى ربه ، وجمعه عليه وطرحه ببابه</u>** ، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به ،

فمن حكمة الابتلاء بالنسبة للمؤمنين : تكميل العبودية لله في السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم ، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية ، بمقتضى تلك الحال ، لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب وأضدادها ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني ، والاستقامة المطلوبة منه ، ووجود الملزوم بدون لازمه

<u>. . ومن العبودية أن يشكو العبد إلى ربه ويتضرع إليه ويدعوه</u> ، فالله يحب ذلك من العبد ، (فهو سبحانه يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها ، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم ، فيثيب كل عبد على قصده ونيته ، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه ، ولم يستكن له وقت البلاء

. كما قال تعالى : سورة المؤمنون الآية ٦٧وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . فالله عز وجل يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد ، وزوال ذلك الأنس والقرب

ليمتحن عبده ، فإن أقام على الرضى بهذه الحال ، ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأولى مع الله ، بل اطمأنت وسكنت إلى غيره ، علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبته التي تليق به.

وإن استغاث به استغاثة الملهوف ، وتعلق تعلق المكروب ، ودعاء دعاء المضطر ، وعلم أنه قد فاتته حياته حقا ، فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ، ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه ، علم أنه موضع لما هو أهل له ، فرد أحوج ما هو إليه ، فعظمت به فرحته ، وكملت به لذته ، وتمت به نعمته ، واتصل به سروره ، وعلم حينئذ مقداره ، فعض عليه بالنواجذ ، وثنى عليه الخناصر ، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذ وجدها بعد معاينة الهلاك

.فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر

القسم الثاني : إذا ابتلي الإنسان ولم يرده ذلك البلاء إلى الله ، بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق ، وأنساه ذكر ربه ، والضراعة إليه ، والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه ، فهو علامة شقاوته ، وإرادة الشر به ، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته ، وسلطان شهوته ، ومرحه وفرحه ، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع من الشر والبطر ، والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء ، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء ، فبلية هذا وبال عليه ، وعقوبة ونقص في حقه. . ويرد على هذا:

مسألة : هل المصائب في الدنيا للمؤمنين فقط ؟

وأقول : إنها ليست خاصة بالمؤمنين ، فما يرى فيه الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه ، فهو دون ما يحصل للمؤمنين بكثير ، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان ، وإن كان في الظاهر بخلافه . قال الحسن البصري رحمه الله) : أما والله لئن تدقدقت بهم الهماليح ، ووطئت الرجال أعقابهم ، إن ذل المعصية لفي قلوبهم ، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله). وقد يشكل على بعض الناس حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . ولكن يزول هذا الإشكال إذا علم أن المؤمن على ما هو فيه بالدنيا من العزة والنصر

سنة الابتلاءالتداول والتدافع

للابتلاء صور ومظاهر وقوانين وسنن تفصيلية لسنة الابتلاء الأصلية والأساسية ومن تلك السنن:

سنة التداول :بمعنى أن الله تعالى يداول أحوال الناس من شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة ، ومن نصر إلى هزيمة ، ومن هزيمة إلى نصر، ومن يسر إلى عسر، ومن عسر إلى يسر إلى غير ذلك من مظاهر تقلبات الأحوال وتغيير المواقف وتداول المواقع، حتى تظهر بذلك مواقف الناس، وتنكشف بواطن ما في صدورهم

وفي هذه السنة يقول الله عز وجل ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٠.[

وإن كانت هذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب غزوة أحد، ليتبين للمؤمنين سنة الله عز وجل في النصر والهزيمة، وإن كانت العاقبة والمحصلة النهائية للمؤمنين ، والنصر موعود لهم، ولكن هناك حكمة تقتضي أن يذوق المؤمنون طعم الهزيمة.

ومداولة الأحوال لا يقتصر على تعاقب النصر والهزيمة فإن اختلاف الأحوال لا يقتصر على تعاقب النصر والهزيمة فإن اختلاف الأحوال والظروف التي يمر بها الإنسان تدخل في إطار هذه السنة، ولهذا قال بعض المفسرين أن معنى نداولها بين الناس: من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر إلى غير ذلك.

ثم إن وعد الله للمؤمنين بالنصر لا يعني أن الأمر سيجري وفق أهوائهم وأن الثمرة ستأتي على ما يشتهون، كلا. بل إن حكمة الله تقتضي بأن تتربى النفوس المؤمنة على تحمل نتائج الأخطاء، وأن تتعلم بأن المعصية تبعدهم عن رحمة الله وتوفيقه وعونه، فليس من الصدفة أو المجازفة ما يحصل في حياة البشر من تغييرات في أحوالهم، فإن وراء ذلك إرادة ومشيئة إلهية ذات حكمة بالغة على الإنسان أن يعرفها ويفقهها.

ومن سنن الابتلاء سنة التدافع بين الحق والباطلفإن الله أراد لهذه الحياة أن تكون مسرحاً للصراع بين أنصار الحق والباطل، بين قوى الخير وقوى الشر،

قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[الفرقان: ٢٠]. فالتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل سنة حتمية لا بد منها، فلا يتصور أن يعيش الحق والباطل في سلم دون صراع ومن دون غلبة أحدهما على الآخر، إلا لعلة كضعف أصحابهما أو جهلهما بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم،

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلوو ينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه زبد أو خبث، ما يلبث أن ينتهي ويذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء الزلال والمعدن الصافي ينفع الناس (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ) لقد مضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والمحق للباطل وأهله

كما قال تعالى ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[الشورى: من الآية٢٤]غير أن للنصر عوامل وأسباباً، وانتصار الله للحق وأهله لا يأتي إلا بجهد وتعب، وقد يصيب المؤمنين كثير من الأذى. والنصر إنما يتحقق في واقع الناس إذا هيأ الله في أنفسهم عوامل النصر التي أرشد إليها الإسلام وأمر بها الله ورسوله وأبعدوا عن أنفسهم عوامل الفشل ومعوقات النصر.

ومن أهم عوامل النصر: الإيمان، فقد وعد الله أهل الإيمان بالنصر والتأييد كما قال؟وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَانَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ الروم: ٤٧

نجاح القلة وإخفاق الكثرة في ابتلاء الله ـ عز وجل ـ

فهل على القلة أن تنساق للكثرة؟، أو على الكثرة أن تنساق للقلة؟، والجواب الحق: أن على الجميع اتباع الحق، على الجميع أن ينساق في الكبير والصغير والجزئية إلى أوامر الله ـ تعالى ـ وطاعته وطاعة أنبيائه،

والناس في الابتلاء على الطاعة، والامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ الناجحون منهم قلة، وتفشل الكثرة؛ مع أنه ابتلاء ليس بالصعب، وأن بإمكان البشرية جميعاً ـ بما حباها الله من مؤهلات وقدرة واستطاعة ـ بعد دخولها الابتلاء في العبودية الخالصة لله أن ينجحوا فيه

إيثار الدنيا على الآخرة أو العكس

حذّر من فتنة الدنيا، وحذّر من فتنة المال، فعن مصعب بن سعد قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ" :احذروا الدنيا، فإنها حلوة خضرة

وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ" :إن لكل امة فتنة، وفتنة أمتي المال

ولقد نجت القلة من السقوط، بسبب صدق اتباعها، فأطاعت ربَّها وحَذِرت مما حذّر منه، لذا قال بعض السلف ـ رحمهم الله ـ: "من أحب الدرهم والدينار فليتهيأ للذل."

ونجت القلّة لأنها تذكّرت قول الله ـ تعالى ـ في تحذيره :

) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ] (آل عمران/١٤[

وعندما سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الآية الكريمة قال :

"اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه."

القلّة تذكّرت فاتبعت، والكثرة ابتعدت

سأله: كيف الطريق إلى الله؟ قال :أصح الطرق وأعمرها وأبعدها من الشبه: اتباع الكتاب والسنة، قولاً وفعلاً، وعقداً ونيّة، :

فسأله: كيف طريق اتباع السنة؟ قال: بمجانبة البدع، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع ، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) آل عمران : ٣١

واتباع الهوى يؤدي بصاحبه إلى الغلو، والغلو مدعاة إلى الانشقاق والافتراق. والافتراق عن منهاج النبوة والسلف عنوان للحزبيات المقيتة والتجمعات الحاقدة، التي يقع للأسف في براثنها الكثير من الناس، قال ـ تعالى ـ في سورة المائدة :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ.)

الكثرة غافلون

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

ولغفلتهم حرموا الانتفاع بما أخبر الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز، فلم يعتبروا على الرغم من

التكرار، والسبب عدم إقبالهم على ما في القرآن من الهدى والرحمة، فلو كانوا عقلاء حكماء مؤمنين إيماناً قوياً لانتفعوا فخرجوا من الغفلة .لكنهم آثروا الضلال على الهدى لذلك جاء تحذير رب العالمين لأتباعه من طاعة الكثرة في ضلالهم.

القلة هم الغرباء، والكثرة ضالة

"أناس صالحون قليل، في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"،"] صحيح

وفسَّره بقوله :

"الذين يصلحون إذا فسد الناس

قـال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ:

"استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء."

وقال الحسن بن أبي الحسن ـ رحمه الله ـ :

"يا أهل السنة ترفقوا رحمكم الله؛ فإنكم أقل الناس ."

ولم تلتفت الكثرة الطاغية العاصية للقلة المؤمنة الداعية إلى الحق، واستمروا في ضلالهم وغيِّهم كما قال ـ تعالى ـ في الآية)وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (قال ابن كثير: "أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ."

وهذه حال أتباع الأنبياء أنهم قلة في وسط الأكثرية الفاسدة، قال ـ تعالى ـ في سورة الشعراء (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)٥٢ (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) ٥٣

لَشِرْذِمَةٌ (يعني بني إسرائيل، قال ابن قتيبة: أي: طائفة. قال الزجاج: والشرذمة في كلام العرب: القليل. وقال ـ تعالى ـ في وصف من اتبع نوح ـ عليه السلام ـ في سورة هود) وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ

قال شيخنا الألباني: "فالمؤمن لا يستوحش من قلة السالكين على طريق الهدى، ولا يضره كثرة المخالفين] ."ختام رسالته "صلاة العيدين في المصلى هي السنة["

وقال الإمام الشاطبي: وهذه سنة الله في الخلق، أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل، لقوله تعالى ـ:

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ

<u>وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦ـ)يوسف</u>

قال ابن عباس، واكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية: أن أكثر الناس وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في الربوبية، إلا وهم مشركون به غيره في عبادته. وبذلك يتبيَّن لنا أن سبب الضلال المؤدي إلى الإضلال هو الشرك بالله ـ تعالى ـ. الذي حذَّر الله من عاقبته الوخيمة وهي الخلود في نار جهنم، لذا حذَّر ـ عز وجل ـ من طاعة الأكثرية في ضلالها، لأنها متبعة الظّن، وهذا يؤدي بها في كثير من الأحيان إلى الشرك بالله، قال ـ تعالى ـ في سورة الأنعام

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ١١٦)

فأخبر الله - تعالى - عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنهم على الضلال، بل ويجتهدون في الدعاء إليه، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل،

كما قال - تعالى - (لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ)١٠٣ الصافات

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) يوسف

وقال - تعالى - في سورة ٧١ نوح **(وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً**)٢٤.

وقال في سورة إبراهيم **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)(٣٥)رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ...**

فنسب الله - تعالى - الإضلال إليهن، والإضلال هو ضرر لمن أضللنه، فالعلاقة مع الأصنام علاقة سببية .

القلة حجة على الكثرة

إن القلة المؤمنة حجة على الكثرة الهالكة،

إنه كما ترى تدبير الحق بالحق. وهكذا الأمر لكل نبي ورسول، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقد جاء في القرآن ما يؤكد للقلة صدق إيمانها بما جاءت به رسل ربها، ففي مجال الحديث عن إيمان هذه القلة، وكفر الكثرة،

قال الله - تعالى - في سورة يس/ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٧.)**

لقد آثر أهل الكفر والشرك - كما ترى - الباطل على الحق، والسبب ليس نقصاً في بلاغ الحجة، وظهور البيِّنة، بل كما وصفهم الله - تعالى - بالكذب، والافتراء على الله، والصد عن سبيله، وحيلتهم في الاعوجاج والتنكر، وإيثارهم الدنيا على الآخرة، قال - تعالى - في سورة الشعراء

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨

.وفضح الله - تعالى - أسلوبهم الخبيث على لسان الأشهاد بقوله في سورة هود

:(إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ(١٧)وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨)الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩.)

قال ابن كثير - رحمه الله - في قوله - تعالى -(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِٱلْحَقِّ) "أي: بيَّنَّاه لكم، ووضحناه، وفسرناه، **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)** أي :ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظِّمه وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة."

ومن ظلم العبد لنفسه أنه يعرض عن الحق كفراً وعناداً لذا قال الله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٤)
فنفى الله عنهم العلم بالحق لأنهم أعرضوا عنه كفراً وعناداً.
فالحاصل أن الكثرة من الناس آثرت اتباع الباطل ونأت عن اتباع الحق بعد أن قامت عليها الحجة فاستحقت النار، لذلك فضح الله ـ تعالى ـ موقف الكثرة الباطلة من الناس في سورة المؤمنون بقوله :

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ(٦٦)مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ(٦٧)أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ(٦٨)أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٦٩)أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٠).

وقال ـ رحمه الله ـ: "وفي الآية الكريمة في قوله(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) يفهم من مفهوم مخالفته أن قليلاً من الكفار ليسوا كارهين للحق، وهذا السؤال وارد أيضاً على آية الزخرف التي ذكرنا آنفاً وهي ـ قوله تعالى ـ :(وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) .والجواب عن هذا السؤال: هو ما أجاب به بعض أهل العلم أن قليلاً من الكفار كانوا لا يكرهون الحق، وسبب امتناعهم عن الإيمان بالله ورسوله ليس كراهيتهم للحق، ولكن سببه الأنفة والاستنكاف من توبيخ قومهم، وأن يقولوا صبئوا وفارقوا دين آبائهم، ومن أمثلة من وقع له هذا أبو طالب فإنه لا يكره الحق الذي جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد كان يشد عضده في تبليغه رسالته."

التعيير بالذنب.. ذنب أكبر

يتفاوت الناس فيما بينهم، غنى وفقرًا، سعادة وحزنًا، جمالاً وقبحًا، صحة ومرضًا، ويتفاوتون أيضا من حيث طاعتهم لله عز وجل ومعصيتهم له سبحانه.
وكما لا تجيز الشريعة الإسلامية أن يعيِّر واحدٌ من الخلق أخاه بنقص اعتراه في المجالات الدنيوية المختلفة، أو يستطيل عليه بتفوقه في هذه المجالات، كذلك - بل من باب أولى - فإنها تحرم أن يعيِّر المسلم أخاه بمعصية وقع فيها، ويتفاخر عليه بتقواه لله عز وجل وطاعته له، فضلاً عن أن يفضحه أو يشهِّر به.

شماتة مرفوضة

إن التعيير بالذنب نوع من إظهار الشماتة بالمسلم، وهذا مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: " لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ"(رواه الترمذي). والمتأمل في هذا الحديث الشريف يجد النهي الواضح عن إظهار الشماتة بالمسلم، والترهيب والتحذير لمن يفعل ذلك. ومن أهم ما يدرَك من الحديث: التخويف من أن الشماتة أو التعيير قد يكونان سببًا في ابتلاء المعير أو الشامت بالعيب أو النقص الذي عيَّر به أخاه.
إن الله عز وجل قد يعافي أخاك من المعصية التي وقع فيها، وقد يغفر له تقصيره وذنبه، ويهيئ له سبل التوبة والعودة والإنابة، ولكنك لا تدري إن ابتلاك الله عز وجل بمثل ما وقع فيه أخوك، هل ستعافَى أم لا؟ هل ستتوب أم لا؟ هل سيغفر لك الله ويقبل توبتك أم لا؟.

ومما روي من روائع الإمام ابن القيم قوله:" إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا وأشد ذنبا من المعصية ذاتها، وذلك لأنه يحمل في طياته معاني التكبر والغرور بالطاعة لدى صاحبه، ويعبر عن تزكية النفس وشكرها، ووصفها - ضمنًيّا- بالبراءة من الذنب، والتنزه عن المعصية".

ويضيف ابن القيم: "ولعل كسر نفس أخيك بسبب ما وقع فيه من ذنب، وما حدث له من الذلة والخضوع، بسبب ما اقترف من معصية، وتخلصه من مرض الكِبر والعُجب، ووقوفه بين يدي الله منكس الرأس، خاشع الطَّرْف، منكسر القلب، لعل هذا أنفع له وخير من صولة طاعتك وزهوك بها، والمن بها على الله وعلى خَلقه".

ومما أثر من حكم ابن عطاء الله السكندري قوله: "رب معصية أورثت ذُلاً وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا". وكلام ابن عطاء الله يتسق مع ما قاله ابن القيم من أنه "ما أقرب المذنب العاصي من رحمة الله، وما أقرب المغرور المتكبر من مقت الله! إن الذنب الذي تَذِلُّ به لله عز وجل، أحب إليه من طاعة تمُنُّ بها عليه سبحانه، فإنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مُدِل، وأنين المذنبين أحب إلى الله عز وجل من زَجَل المسَبِّحين المدِلِّين".

أيكون الذنب دواء؟!

ومن رحمة الله بنا أنه قد يجعل في الذنب نذنبه دواءً لمرض عضال لا نقوى على مواجهته، وهذا المعنى هو ما أكده الإمام ابن القيم في روائعه حين قال: "ولعل الله قد سقى أخاك بهذا الذنب دواءً استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر، فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، ولا يأمن كرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله".

لذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لوم وتقريع المذنبين حتى ولو كانوا من أصحاب الكبائر، وبيَّن أن أقصى ما يملكه المجتمع حيال هؤلاء هو إقامة حد الله عز وجل عليهم، وليس للناس من سبيل عقاب على هؤلاء خلاف ذلك، لا قبله ولا بعده. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا" (رواه البخاري)، أي لا يعيِّرها ولا يوبخها، فقد نالت عقابها الذي كتبه الله عز وجل عليها، والسوط الذي ضُرِبَت به إنما كان بيد مقلب القلوب، والقصد هو إقامة الحد، لا التعيير والتثريب، وليس لسيدها أن يلومها أو يعيرها، وإن فعل فقد تعدى على حكم الله عز وجل بالإضافة والزيادة.

وذاك دأب وخلق جميع أنبياء الله، ومنهم يوسف - عليه السلام - الذي رغم ما فعله إخوته معه، ورغم قسوتهم وافترائهم عليه، ورغم تهيئة الله عز وجل لموقف يستطيع فيه الانتقام منهم أو على الأقل توبيخهم وتقريعهم، إلا أنه عليه السلام قال لهم: **(لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** (يوسف: ٩٢)، ولاحظ معي تذييل تسامحه معهم بالدعاء لهم بالمغفرة، وتأميلهم في رحمة الله عز وجل.

إن الفتنة لا تؤمن على حي، ولتأكيد هذا المعنى في نفوس المؤمنين، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الإسراء؛ وهو صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق به سبحانه وتعالى وأقربهم إليه وسيلة؛ : }

وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا {(الإسراء: ٧٣-٧٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ قَلْبٍ إِلا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ"، وكان صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:"يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ" (رواه بن ماجة).

طريق النجاة

ويحب الله تبارك وتعالى أن يعرف عباده أن لا طريق إلى النجاة إلا بعفو الله ومغفرته، ليس بالعمل لأن الله تبارك وتعالى عندما يذنب العبد ويُبتلى بالوقوع في المعاصي يحب أن يريه أنه إذا عذبه فبعدله، وببعض حقه عليه، بل باليسير من هذا الحق، وأنه إن أنجاه فبعفوه ومغفرته كما تعرفون من الحديث)) :لن يدخل الجنة أحدكم بعمله)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))

كذلك إن العبد إذا تربى في العافية لم يعرف ما يقاسيه المبتلون إذا عافاه الله من الأمراض والأسقام والوقوع في المعاصي والذنوب لم يعرف ما يقاسيه غيره من المرضى ومن الذين يقعون في الذنوب بسبب غلبة أنفسهم لهم فإذا ابتلي حينئذ عرف قيمة العافية وعرف مقدارها.

ثم إن من حكمة الله تبارك وتعالى

أنه يريد أن يتعامل العبد مع إساءات الناس إليه ونزلاتهم معه بالعفو والصفح والمغفرة، فيتعامل مع ذنوبهم معه كما يحب أن يصنع الله بذنوبه ، فليتعامل مع إساءات الناس إذا اعتذروا وإذا تأسفوا وندموا، فليقل عثراتهم وليقل معاذيرهم وليتقبل منهم، مع إقامته لأمر الله فيهم.

ما دمت تذنب كما يذنب الآخرون، وليس لك الكمال فإن عليك ألا ترى لنفسك فضلاً على أحد حتى تستريح وتريح، ثم إن من حكم الله تبارك وتعالى إذا ما ابتلى عبده أن يشتغل بعد ذلك بعيبه؛ لأنه إذا أذنب عذر الآخرين الذين غلبتهم أنفسهم في ساعة من الساعات، فإن غلبت كذلك هو نفسه عذرهم واشتغل بعيوبه وغض الطرف عنهم، وتفرغ لعيوبه، وارتفع عن التفكير أو الخوض في عيوب الآخرين، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن شغلته عيوب الناس وتفرغ لها.

ثم بعد ذلك من الحكم العظيمة في الابتلاء أن يستغفر العبد لإخوانه المسلمين لأنه إن أذنب أحس بالحاجة إلى أن يستغفر له إخوانه فيصير هجيراه: رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات.

فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين.

هل ابتلاء الخلق يعارض الرحمة؟

ينبغي أن تعلم أصولاً في هذه المسألة:

الأول: أن كل ما يقع في هذا الكون من أفعال الله -تعالى-، ومن أفعال العباد، والتي هي بمشيئة الله -تعالى- جميع ذلك مرتبط بالحكمة التامة، فمشيئته تابعة لحكمته، فهو سبحانه أحكم الحاكمين، وهو يحكم لا معقب لحكمه.

الثاني: أن الله -تعالى- عدل يحب العدل، وعدله تعالى تام في أحكامه وأفعاله وقضائه، ولا يظلم ربك أحداً لكمال عدله سبحانه.

الثالث: أن أفعال الله -تعالى- لها غايات، وحكم، وعلل لا تعود إلى ذات المخلوق، ونظره وقياسه، بل هي عائدة وراجعة إلى علم الله -تعالى- لم يوجب العباد عليه شيئاً، ولا يقاس الخالق بخلقه، لا قياس شمول ولا قياس تمثيل، وبالتالي فمنتهى رحمته هو منتهى علمه، قال تعالى: "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما"[غافر:٧]،

ووجه رحمته كما يكون في من يثيبهم يكون أيضاً فيمن يعذبهم بعدله، ولا منافاة بين الرحمة والعدل، ألا ترى أن إيقاع العذاب والقصاص في الدنيا على من يستحقه هو عدل وكمال، وهو أيضاً رحمة له بالتطهير، ولغيره بكف شره، واستيفائهم حقهم منه، يقول ابن تيمية -رحمه الله-: (ومسألة غايات أفعال الله ونهاية حكمته مسألة عظيمة، لعلها أجل المسائل الإلهية).

ويقول ابن قتيبة -رحمه الله-: (وعدل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور: كيف خلق؟ وكيف قدَّر؟ وكيف أعطى؟ وكيف منع؟ وأنه لا يخرج من قدرته شيء، ولا يكون في ملكوته من السماوات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دين لأحد عليه ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل).

الرابع: أن منشأ ضلال الخائضين في القدر هو التسوية بين الإرادتين الكونية والشرعية، حيث اعتقدوا أن كل ما شاءه وقدَّره فقد أحبه ورضيه، فنفت الجبرية لذلك أفعال العباد، وسلبتهم الحرية والاختيار.

ونفت القدرية قدرة الله، وتقديره لأفعال العباد؛ لئلا يقع ويصدر منه تعالى الشرور والمعاصي التي هي أفعال العباد، وهذا غاية التحريف والانحراف في هذه المسألة الجليلة. وأهل السنة قاطبة على أنه تعالى خلق الأشياء كلها وقدَّرها، وأرادها، فأحب الطاعات والإيمان، والخير، وكره الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: "إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم"[الزمر:٧]، وقال: "هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن"[التغابن:٢].

الخامس: أن أصل ضلال الخلق هو طلب تعليل أفعال الرب بعلل وحكم راجعة إليهم يحكمونها بآرائهم وأقيستهم لعقلية، فما يرونه مجانباً للعدل في عقولهم يعللون؟ بوجوبه على الله تعالى، وأن عليه أن يفعل الأصلح، ومن هنا صار عامة القدرية الخائضين في القدر على طريقة التعليل صاروا مشبهة في الأفعال، يقول ابن تيمية - رحمه الله- في تائيته المشهورة: (وأصل ضلال الخلق من كل فرقة، هو الخوض في فعل الإله بعلّة).

السادس: أن الحكمة تابعة للعلم والقدرة، فمن كان أعلم وأقدر كانت أفعاله أحكم وأكمل، والرب -تعالى-منفرد بكمال العلم والقدرة، فحكمته متعلِّقة بكل ما تعلّق به علمه وقدره، كما سبق ذلك في الأصل الأول.

السابع: أنه لا يلزم من أثبت تعليل أفعال الله بالحكم والمصالح أن يعلم علة كل فعل وأمر، بل عليه أن يعتقد أن لله -تعالى-في جميع أفعاله حكماً جليلة - ظهرت لنا أو خفيت- فالله -تعالى- لم يطلع خلقه على جميع حكمه، بل أعلمهم بما شاء، وما خفي عليهم أكثر مما علموه.

ومن هذه الأصول وغيرها يتبين لك - أخي- أنه لا تضاد بين علم الله وقدره، وبين رحمته وعدله، وكون هذا من الغيب أو لا - كما في سؤالك-، فأقول لك: رحمة الله وعدله آثارها وأسبابها ودلائلها ليست غيباً، بل هي معلومة لنا في القرآن والسنة، وهي داخلة ضمن ما أمرنا بتدبره، وكذلك أسماء الله وصفاته ما يتعلق بمعانيها ودلالاتها، ومعرفة الله وعبادته بمقتضاها هي من الوجه المعلوم لنا، والمذكور في دلائل القرآن والسنة.

أما الكيفيات لما سبق وتفاصيل الحكم والعلل والغايات، فهو ما لم نؤمر بمعرفته وتطلبه، بل بالعكس جاءت الأدلة بالمنع من ذلك، لا لأن العقل يحكم باستحالته وانتفائه وامتناعه، ولكن لأن العقل يحار فيه ولا يدركه ولا يطيقه، كما قال تعالى: "ولا يحيطون به علماً"[طه:١١٠]، فلا نحيط علماً بالله لا بذاته ولا بأسمائه، ولا بصفاته، ولا بأفعاله، ولا بأقداره، ولا بحكمه، يقول تعالى: "لا يُسأل عما يَفعل وهم يُسألون"[الأنبياء:٢٣]، وجاء النهي من النبي - صلى الله عليه وسلم- عن الخوض بالقدر كما في قوله: "... وإذا ذكر القدر فأمسكوا"

ولما خرج -صلى الله عليه وسلم- على الصحابة - رضي الله عنهم-يوماً وجد بعضهم يتنازعون في القدر، غضب غضباً شديداً حتى احمرّ وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان فقال: "أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه" من حديث أبي هريرة، وحسَّنه الألباني، وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- بلفظ: "لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم"

وهذه الأدلة وغيرها محمولة عند أهل العلم على النهي عن الخوض بالقدر بلا علم، وثانياً: على الاعتماد في معرفة أسرار القدر على العقل البشري، وثالثاً: على البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، ورابعاً: على الأسئلة الاعتراضية التي دافعها التعنُّت والتحكم على الله تعالى.

ابتلاء الله لعباده له حكم وعلى العبد التسليم

تحريم بعض الأمور فى الدنيا وإباحتها فى الجنة لانتهاء الابتلاء

فاعلم أن التحليل والتحريم إلى الله تعالى، وأنه ما من شرع إلا وراءه حكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.
والابتلاء بالتحريم والتحليل يظهر العبودية والامتثال، فالعبد المؤمن يقول: سمعنا وأطعنا. والعبد الخاسر يقول: سمعنا وعصينا. وليس للمؤمن فيما قضى الله و رسوله خيرة، كما قال تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبيناً.) [الأحزاب:٣٦]
وليس للعبد أن يعترض على مولاه، ولا أن يتقدم بين يديه بالسؤال: لم حرم هذا ؟ ولم أبيح ذاك؟ فالله تعالى: (لا يسأل عن ما يفعل وهم يسألون)[الأنبياء:٢٣]
وإذا دخل أهل الجنة الجنة انقطع التكليف، وزال الابتلاء، وحل عليهم الرضوان، وأعطاهم الله ما يشتهون من ألوان النعيم،ومن ذلك أن يبيح لهم بعض ما حرم عليهم في الدنيا، جزاء صبرهم وامتثالهم، مع أنه لا مقارنة بين ما في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى عن خمر الجنة: (يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم) [الطور:٢٣] وقال تعالى: (بيضاء لذة للشاربين* لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) [الصافات: ٤٦،٤٧] وقال تعالى: (يطوف عليهم ولدان مخلدون* بأكواب وأباريق وكأس من معين*. لا يصدعون عنها ولا ينزفون) [الواقعة: ١٧-١٩] قال القرطبي رحمه الله في تفسير آية الطور: (لا لغو فيها ولا تأثيم): أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي: هذيان، ولا إثم، أي: فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا، قال ابن عباس: اللغو: الباطل، والتأثيم: الكذب.
وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا و أذاها، كما تقدم، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ، الفارغ من الفائدة، المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن مظهرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: (بيضاء لذة للشاربين* لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون). انتهى.
وقال في تفسير آية الصافات: قال زيد بن أسلم: خمر بيضاء، أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدرة إلى غير ذلك مما ينفرمنه الطبع السليم. انتهى.
وقوله تعالى: (ولا هم عنها ينزفون) أي: لا تذهب عقولهم.
قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء ،والبول، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال.

<u>المصائب</u>

<u>فالبلاء والابتلاء</u> معناهما الاختبار والامتحان، قال في النهاية: والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معا من غير فرق بين فعليهما، ومنه قوله تعالى: وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ

فِتْنَةً... {الأنبياء:٣٥}، ومنه الحديث: من أبتلي فذكر فقد شكر ... والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان، يقال بلوته وأبليته وابتليته.
ومنه حديث كعب بن مالك:ما علمت أحداً أبلآه الله أحسن مما أبلاني. ومنه الحديث: اللهم لا تبلنا إلا بالتي هي أحسن أي لا تمتحنا ....
وفي فتح القدير للشوكاني ، عند تفسير قول الله تعالى: إن هذا لهو البلاء المبين قال: البلاء والابتلاء: الاختبار والمعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ولده...
__والمصيبة__ تقال لكل ما أصاب الإنسان من نوائب الدهر، قال في لسان العرب: والصابة والمصيبة: ما أصابك من الدهر .
وقد تبين من هذه التعريفات أن البلاء والابتلاء أعم من المصيبة، لأنهما يكونان في الخير والشر، وأما المصيبة فلا تكون إلا في الشر، والمرء إذا اختبر بنعمة أنعم الله عليه بها لتبين ما سيكون حاله من شكر لتلك النعمة أو كفران لها، فهذا إنما يوصف بأنه بلاء وابتلاء، ولا يمكن وصفه بأنه مصيبة، وأما إذا اختبر ببعض الفواجع والدواهي لتبين ما سيكون عليه حاله من الصبر أو الجزع، فهذا يمكن أن يوصف بأنه مصيبة وبلاء واختبار.
ولا شك أنه في كل الحالات يعتبر مأجوراً إن شكر النعم التي وقع الاختبار بها، بصرفها فيما يرضي الله، أو صبر واستعان بالله في حالة ما إذا كان الاختبار ببعض المصائب، ولا يتغير هذا الحكم بما إذا كان ما أصابه هو بسبب معصية ارتكبها وتاب منها، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما في الحديث الصحيح، ولا يجوز قول أستعين بالله وبك، ولو كان المتكلم لا يقصد التشريك، لأن هذا اللفظ مما نهى عنه الشارع، وفيه سوء أدب مع الله،

ففي زاد المعاد لابن القيم عند الكلام على الحديث الشريف: لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم ما شاء فلان... قال: وفي معنى هذا الشرك المنهي عنه قول من لا يتوقى الشرك: أنا بالله وبك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، وهذا من الله ومنك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، والله، وحياتك، وأمثال هذا من الألفاظالتي يجعل فيها قائلها المخلوق ندا للخالق، وهي أشد منعاً وقبحاً من قوله: ما شاء الله وشئت.والله أعلم.
المفتي: مركز الفتوى بإشراف د.عبدالله الفقيه
والمصائب التي يبتلي الله بها عباده كثيرة؛ من فقر ومرض وتعب وعنت وموت، وهي قدر محتوم يعم المؤمن والكافر والبر والفاجر، والقصد منها الاختبار والابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب.
قال - تعالى -: **"ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور"** {الحديد:٢٣،٢٢}.
__المصائب المكفرة__

١**- المصائب بسبب الذنوب:** وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير {الشورى: ٣٠}، من يعمل سوءا يجز به {النساء: ١٢٣}.

٢**- المصائب قدر محتوم ينبغي التسليم له:** "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور" {الحديد: ٢٢-٢٣}. "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم" {التغابن:١١}.

٣**- وجوب الصبر على المصائب** لأنها ابتلاء من الله - تعالى -: "يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين (١٥٣) ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (١٥٤) ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" {البقرة: ١٥٣-١٥٧}.

٤**- المصائب كفارات للذنوب:** عن عائشة قالت: قال رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم -: "ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكُها". (البخاري ٥٦٤٠).

وعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكُها، إلا كفر الله بها من خطاياه". {البخاري ٥٦٤١}.

والكفارة: صيغة مبالغة من التكفير، وأصله التغطية والستر، والمعنى أن ذنوب المؤمن تتغطى بما يقع له من ألم المرض، وسائر المصائب.

قال تعالى: **"ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا (١٢٣) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا"** {النساء:١٢٣-١٢٤}.

والمعنى أن كل من يعمل سيئة يجازى بها إما في الدنيا أو الآخرة، والمرض والمصائب يكون جزاءً للسيئات، وكفارة لها. ذهب أكثر أهل التأويل إلى أن معنى الآية أن المسلم يجازى على خطاياه في الدنيا بالمصائب التي تقع له فيها فتكون كفارة لها.

أخرج أحمد وابن حبان عن عائشة أن رجلًا تلا هذه الآية، فقال: إنا لنجزى بكل ما عملناه؟ هلكنا إذن. فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: نعم يجزى به في الدنيا من مصيبة في جسده مما يؤذيه.

وأخرجا أيضًا عن أبي بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ فقال: "غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض، ألست تحزن؟" قال: بلى. قال: "هو ما تجزون به".

وروى مسلم عن أبي هريرة: أن هذه الآية لما نزلت بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها".

هل المصائب كفارة بنفسها أم بالصبر عليها؟

قال العز بن عبد السلام: "إن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منها، بل الأجر على الصبر والرضا

وقال القرافي: "المصائب كفارات جزمًا، سواءً اقترن بها الرضا أم لا، لكن إن اقترن بها الرضا كان التكفير أعظم".

وقال ابن حجر: والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها، وبالرضا يؤجر على ذلك، فإن لم يكن للمصائب ذنب عُوِّض عن ذلك من الثواب بما يوازنه.

وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الآدمي لا ينفكُّ غالبًا عن ألم بسبب مرض أو همّ أو نحو ذلك، وإن الأمراض والآلام والأوجاع؛ بدنية كانت أو قلبية تكفر ذنوب من تقع له، وقد ورد في الحديث: "ما من مسلم يصيبه أذى- شوكة فما فوقها-إلا كفَّر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها".

راى الشعراوى

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَالِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) الكهف

وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة إذن قريبة فلا داعيَ لأنْ يُهلِك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقي؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشيء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا . . } [الكهف : ٧] أي : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هي الزخرف الذي يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة في قوله تعالى: { واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح . . } [الكهف : ٤٥] فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : {لِنَبْلُوَهُمْ . . } [الكهف : ٧] البلاء يعني : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفِق في الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

هل المصائب تكفّر جميع الذنوب؟

ظاهر النصوص يفيد ذلك، ولكن أكثر العلماء جعلوا ذلك خاصّا بالصغائر، أما الكبائر فلا بد فيها من التوبة النصوح، واستدلوا بحديث: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر".

والراجح أن الحسنات الماحية ومنها الصبر على القضاء والرضا به توضع في كفة الحسنات، وذلك في مقابلة الذنوب التي توضع في كفة السيئات، فإما أن ترجح بها وإما أن تعادلها.

والحسنات توضع متضاعفة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئات توضع منفردة.

وربما تعظم الحسنة الواحدة فتطيش بها سجلات عظيمة من الذنوب كما في حديث البطاقة عند أحمد والترمذي.

والله أعلم.

اسباب المصيبة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة:١٥٣-١٥٧

واعلموا أنه ليس الخطب في أن يصاب المرء في دنياه في نفسه أو أهله أو ولده أو ماله أو قرابته، فهذه سنة الله عز وجل في عباده، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [الأحزاب:٦٢]، فقد تكون المصيبة لذنب ارتكبه أو لسوء فعله أو لظلم وقع فيه، نسيه أو تناساه، ولكن الله عز وجل مطّلع عليه، ويعلم سره ونجواه،

قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] الروم:٤١]، وقال سبحانه: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [آل عمران:١٦٥]،

وفي سنن الترمذي عن أبي موسى الأشعري عن النبي أنه قال: ((لا يصيب عبدًا نَكْبَةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر))، ثم قرأ: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى:٣٠].

وقد تكون المصيبة من أجل تكثير الحسنات ورفع الدرجات، وقد تكون من أجل أن يشعر المسلم بضعفه وعجزه وافتقاره إلى ربه جل وعلا وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا.

عباد الله، ليس الخطب في هذا، ولكنّ الخطب فيما وقع فيه أكثر الناس اليوم، وهو الجزع والهلع من المصيبة في الدنيا إذا وقعت، والتسخط والتأوّه منها، والإعراض عن الآداب الشرعية التي شرعت للمسلم عندما تحل به مصيبة في الدنيا، والوقوع في أعمال تنافي الإيمان وتضعفه في القلب، وتوجب الاعتراض على القضاء والقدر، ثم الغفلة بعد ذلك عن مصيبة الدين،

فتجد المسلم يترك الصلاة ولا يعدّ ذلك مصيبة، يأكل الربا والرشوة ولا يعد هذا من البلاء، يقع في الفواحش والمنكرات ولا يعد هذا من الرزايا، يرفع الدشّ على سطح منزله ولا يعد ذلك رَزِيّة وبَلِيّة، يقع في عقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ولا يكترث لذلك، يقع في ظلم الناس وأكل أموالهم وحقوقهم ولا يخاف لذلك ولا يهتزّ له قلب أو عضو،

لقد صدق في الناس اليوم قول الصحابي الجليل أنس بن مالك في أهل زمانه: (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي من الموبقات)، قال أبو عبد الله البخاري رحمه الله: "يعني بذلك من المهلكات."

وعلى هذا؛ فلا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن من ارتكب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا بإقامة الحد عليه أو مصيبة تصيبه، فهذا من كسب يده، أي بسببه هو، ولن يعاقب عليه مرة أخرى في الآخرة، لأنه نال جزاءه في الدنيا.

وأما ما أصاب الأنبياء فهو للابتلاء وزيادة الأجر، ولتأُسي المؤمنين بهم.والله أعلم.

لا تعارض بين وعد الله بالحياة الطيبة للمؤمنين وبين الابتلاءات

كيف يوفق المسلم التقي بين ابتلاءات الله له للتمحيص وبين قول الله تعالى للمؤمن: (فلنحيينه حياة طيبة) (يجعل له مخرجا) (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)؟ وجزاكم الله خيراً
فإن ابتلاء المؤمن بالمصائب لا يتنافى مع تكريم الله له، ولا يتعارض مع ما وعده الله تعالى به من الحياة الطيبة، وكثرة الخير، وذلك لأن ابتلاء الله تعالى لخلقه له حكمة، كما أن إكثار الخير بين أيديهم له حكمة، وحكمة الله لا تتعارض أبداً وإن اختلفت محالُّها، إذ لو حصل تعارض بينها لكان علامة على نفي اسم من أسماء الله تعالى وهو (الحكيم) أو على الأقل اتصافه بالنقص فيه، والله تعالى منزه عن النقص، فقد قال عن نفسه: وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [النحل:٦٠].
كما أن الحياة الطيبة المذكورة في الآية لا تنحصر في الطعام والشراب واللباس ونحوها من الأشياء، بل قال بعض المفسرين: الحياة الطيبة هي حلاوة الطاعة، وقال بعضهم: هي المعرفة بالله.
والصواب من ذلك -والله أعلم- أن الحياة الطيبة هي العيش في طاعة الله، والبعد عن معصيته، لأن ذلك يحقق له السعادة وانشراح الصدر، والحياة لا تكون طيبة بدون سعادة، ولا سعادة إلا في ذلك، قال الله عز وجل: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه:١٢٤].

<u>الفرق شاسع بين الابتلاء والمصيبة</u>
السؤال كيف يمكن التوفيق بين الآية الكريمة؟

<u>(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)</u>
<u>وبين الحديث الشريف: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم</u> ...
فأنا تصيبني المصائب ولست بعاص ومجاهر مع أنه لدي من المعاصي ما يعلم به الله فهل ما أنا فيه هو بلاء نسبة للمقربين من الله أم أنه كما ذكرت الآية الشريفة بما كسبت أيدينا وكيف التوفيق بين الأمرين
الفتوى
فلا تعارض بين الآية والحديث المذكورين حتى يُوَفق بينهما، فكلاهما سيق لمعنى غير المعنى الذي سيق له الآخر، ويتضح ذلك بتفسير كل منهما على حدة.
فقد قال المفسرون في تفسير الآية الكريمة وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى:٣٠]
ما يحل بكم من مصائب الدنيا فإنما تصابون به عقوبة لكم على ما اجترحتم من السيئات والذنوب والآثام، وما عفا الله عنه في الدنيا، أو أخذ به فإنه لا يعاقب عليه في الآخرة، ولذلك فإن الله تعالى اتصف بالرحمة وتنزه عن الظلم.
<u>وقال ابن عطية في تفسيره</u> : روي عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله تعالى أكرم من أن يُثَنِّيَ على عبده العقوبة إذا أصابته في الدنيا مصيبة بما كسبت يداه . رواه أحمد وقال: وقال الحسن : معنى الآية في الحدود: أي ما أصابكم من حد

من حدود الله تعالى.. فإنما هي بكسب أيديكم، ويعفو الله سبحانه وتعالى عن كثير، فيستره على العبد حتى لا يحد عليه .
وأما الحديث: فهو حديث صحيح، قال البخاري في صحيحه: باب: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. وفي الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه...
والابتلاء معناه الاختبار والامتحان كما قال تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [الأنبياء: ٣٥] فالأنبياء هم أكثر ابتلاء واختباراً، وذلك لعلو منزلتهم، وقوة إيمانهم ورفعة مستواهم..
قال المباركفوري في تحفة الأحوذي : لأنهم يتلذذون بالابتلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء، ولأنهم لو لم يبتلوا لَتُوُهِّم فيهم الألوهية، ولِيُتَوَّهَنَ (يضعف) على الأمة الصبر على البلية، لأن من كان أشد بلاء، كان أشد تضرعاً والتجاء إلى الله تعالى.
وعلى هذا؛ فلا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن من ارتكب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا بإقامة الحد عليه أو مصيبة تصيبه، فهذا من كسب يده، أي بسببه هو، ولن يعاقب عليه مرة أخرى في الآخرة، لأنه نال جزاءه في الدنيا.
وأما ما أصاب الأنبياءفهو للابتلاء وزيادة الأجر، ولتأسي المؤمنين بهم.والله أعلم.

المصيبة في النفس،

ومن المعلوم: أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات، وأفضلها، وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول:{قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا[١٦]} [سورة الأحزاب].
فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلًا؛ إذ لابد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه.
ثم قال:{قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا[١٧] [سورة الأحزاب].
فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فرّ منه، فإنه فرّ من الموت لما كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءًا غيره؛ لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه،

مصيبة المال، والعرض، والبدن،

فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته؛ سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلًا وآجلًا، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفه بدنه وعرضه، وآثر راحته على التعب لله، وفي سبيله؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير

سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.. قال أبو حازم ':لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقى الله من معالجة التقوى.'
واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لأدم فرارًا أن يخضع له، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادمًا لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضى أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته. وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، وأن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.
وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لابد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته؛ عقوبة له، كما قال بعض السلف:' من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته.'
من كتاب:'إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان' للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله.
الابتلاء تخليص الخير من الشر وتمييزه سواء في الدنيا الآخرة ،
كما قال تعالى : سورة الأنفال الآية ٣٧ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ،
وكما قال - صلى الله عليه وسلم - : صلى الله عليه وسلم -. تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مربادا المرباد : هو شدة البياض في سواد) أو شبه البياض) والكوز مجخيا أي منكوسا ٠ . كالكوز مجخيا ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه .
وعلى هذا فهل يمكن تمييز الخبيث من الطيب بدون ابتلاء ؟ إنه لا بد للتمييز من ابتلاء ، فما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه ، وأذاه له في بعض الأحيان أمر لازم لا بد منه ، وهو كالحر الشديد والبرد الشديد ، والأمراض والهموم والغموم ، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار ، حتى الأطفال والبهائم ، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر والنفع من الضر واللذة عن الألم لكان عالما غير هذا ونشأة أخرى غير هذه النشأة.
إذا لا بد من الابتلاء ، فلو كان المؤمنون دائما منصورين قاهرين غالبين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول ، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم يدخل معهم أحد ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة ، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه انظر

ثمرات الابتلاء

إن هذه الدنيا هي دار المصائب والشرور وليس فيها لذةُ إلا وهي مشوبة بالكدر، فإن عمارتها وإن حسنت فهي إلى الخراب، وإقبالها إلى أدبار، فهل ينتظر الصحيح فيها إلا السقم، والكبير والموجود إلا العدم.
وقيل: العجب كل العجب لمن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وقد قيل:
طبعت على كدر وأنت .....تريدها صفواً من الأكدار

ومكلف الأيام فوق طباعها ....متطلب في الماء جذوة نار

فتبارك الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً، نجعل للذين أحسنوا الدرجات وللذين أساءوا الدركات، على ذا مضى الناس إجتماع وفرقة، ميت ومولود، وبشر أحزان، فالدنيا لاتخلوا من بلية ولاتصفو من محنة وزرية قال تعالى: وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون قال القرطبي رحمه الله: المصيبة هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، وقد جعل الله عز وجل كلمات الإسترجاع انا لله وانا إليه راجعون جعلها ملجأً وملاذاً لذوي المصائب وعصمة للممتحنين من الشيطان لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، قال عمر بن الخطاب : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، ويعني بالعدلين: الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى)، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله يقول: ((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما آمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها)) فلما مات ابوسلمة قلت أي المسلمين خير من ابي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله

__قال ابن القيم__: ومما يتسلى به المصاب الصبر على البلوى فإن الصبر جواد لا يكبو، وصارم لا ينبو، وجند غالباً لا يهزم وحصن حصين لا يهزم، فالنصر والصبر أخوان شقيقان، وقد مدح الله في كتابه الصابرين فقال تعالى: انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأخبر أنه معهم فقال: واصبروا إن الله مع الصابرين، وأخبر أن الصبر خير لأهله ولئن صبرتم لهو خيرُ للصابرين وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون المحتسبون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون .

__وعن أبي سعيد الخدري__ إن رسول الله قال: ((ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر))، وعن أبي هريرة إن رسول الله قال: ((من يرد الله به خيراً يصب منه)).

ومما يتسلى به المصاب أن يعرف ما كان يفعله الصحابة والسلف الصالحون إذا نزلت بهم المصائب، فهذا ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر فأسترجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ ثم صلى ركعتين، فأطال فيها الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: وأستعينوا بالصبر والصلاة ومات لرجل من السلف ولد فعزاه الناس وهو في حزن شديد حتى جاءه الفضيل بن عياض فقال: ياهذا لوكنت في سجن أنت وإبنك فأفرج عن إبنك قبلك أما كنت تفرح؟ قال: بلى، قال: فإن إبنك خرج من سجن الدنيا قبلك فسري عن الرجل.

ولما أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له:لو سقيناك شيئاً كي لا تنفر قال: إنما ابتلاني ليرى صبري.

ومما يتسلى المصاب عن ألم المصيبة أن يتذكر نعم الله وهي أكثر من أن تحصى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

ومن أعظم هذه النعم أن يتذكر كيف هداه الله للإسلام وجعله من أمة خير الأنام قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ثم يتذكر نعمة السمع والبصر والسلامة من العلل والآفات.

وهل تذكرنا وإياهم أن المرء عند الإمتحان يكرم أو يهان، هل تذكرنا امتحان الآخرة وحسابها في ذلك اليوم الذي ليس فيه رجعة لإعادة الكرة والإجتهاد مرة ثانية، ذلك الإمتحان الذي ليس فيه دور ثاني، فالحساب الحساب قبل يوم الحساب،

الفرق بين البلاء والابتلاء

فيقول الإمام البخاري في صحيحه: الابتلاء والتمحيص من بلوته ومحصته أي استخرجت ما عنده، يبلو يختبر، (مبتليكم) مختبركم، وأما قوله بلاء عظيم (فهو) النعم، وهي من أبليته، وتلك من ابتليته. انتهى.

قال الحافظ في الفتح: والمراد به الاختبار، ولهذا قال: هو من بلوته إذا استخرجت ما عنده، واستشهد بقوله نبلو أي نختبر، ومبتليكم أي مختبركم، ثم استطرد فقال: وأما قوله: بلاء من ربكم عظيم أي نعيم، وهو من ابتليته إذا أنعمت عليه، والأول من ابتليته إذا امتحنته.. إلى أن قال: وتحرير ذلك أن لفظ البلاء من الأضداد، يطلق ويراد به النعمة، ويطلق ويراد به النقمة، ويطلق أيضاً على الاختبار، ووقع ذلك كله في القرآن، كقوله تعالى:بلاء حسناً فهذا من النعمة والعطية، وقوله بلاء عظيم فهذا من النقمة، ويحتمل أن يكون من الاختبار، وكذلك قوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم، والابتلاء بلفظ الافتعال يراد به النقمة والاختبار أيضاً.

الفرق بين ابتلاء التمحيص وابتلاء العقوبة

فالبلاء تارة يكون عقاباً، وتارة يكون تمحيصاً واختباراً،.

ويمكن لمن نزل به البلاء أن يميز بينهما بالنظر إلى حاله، فإن كان صحيح الإيمان مستقيماً متحرياً للخير فإن هذا البلاء للتمحيص، وإن كان حاله بخلاف ما ذكرنا فإن هذا البلاء قد يكون عقوبة.

الجنة ليست دار ابتلاء

فالعبادات في الجنة تسبيح وتحميد، ولكن بغير تكليف، لأن الجنة دار جزاء ونعيم، وليست دار ابتلاء، وقد روى مسلم عن جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس، وذلك يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته . قال الحافظ في الفتح: ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ولا بد له منه، فجعل تنفسهم تسبيحا وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئا أكثر من ذكره

تزكية النفوس مراد الإبتلاء

من الظواهر السلبية في حياتنا إنّ أغلب الناس منصرفون الى هموم الدنيا، وشؤون المعاش من مأكل وملبس ومتع ولهو ولعب، غير ملتفتين الى علة وجودهم وحياتهم على هذه الأرض، ولا آبهين بغاية هذا الوجود؛ فقلّما نجد أولئك الذين يسائلون أنفسهم عن تلك العلّة والغاية، وما ينطوي عليهما من حقائق تنظّم الحياة، وتعبّد طرقها على أساس ذلك الفهم والادراك.

فلابدّ أن يكون هناك هدف وغاية من وجودنا، وتركيبنا بهذه الهيئة التي نحن عليها؛ بل إنّ الغائيّة والهدفيّة تعمّان كلّ صغير وكبير في أبداننا وأحاسيسنا. فأعضاء جسد الإنسان لم تخلق، ولم ينعم بها الإنسان إعتباطاً وعبثاً، بل لها أهداف تجتمع في بؤرة هدف واحد، هو الهدف الرئيس من الوجود.

هدفيّة الوجود تشمل كل شيء

وهدفيّة الوجود لا تقتصر على الإنسان وحده، بل إنها امتدّت الى كل شيء صغير وكبير في الطبيعة. فليس هناك شيء مخلوق دون هدف، وحاشى لله أن يصدر منه ذلك، وحتى المخلوق الذي فيه الضرر والفتنة للانسان فانّه ضروري لإصلاحه.

ويبقى من حقّ كل إنسان أن يسأل عن هذا الهدف، وسرّ الظواهر التي تحيط به؛ فهذا السؤال هو السؤال المهم الذي له صلة وثيقة بأوضاعنا التي نعيشها اليوم، والتي هي أوضاع خطيرة وحسّاسة يعجب منها الناس لأنهم يجهلون أسبابها وأسرارها والحكمة من ورائها، فلو عرفوها بطل العجب وزالت الحيرة عندئذ.

الفتنة.. هدف أساس

والإنسان المؤمن الواعي لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة، فيدع الشيطان يداهم نفسه، ويوهمها بالكمال والصلاح، فيرضى عن نفسه، ويكتفي بما بلغه من السير على طريق الكمال والصلاح؛ بل يبقى لآخر لحظة من حياته يروّض نفسه، ويربّيها على التقوى من أجل أن يضمن لها حسن العاقبة، وهو الأمر الخطير والمهمّ لدى كلّ انسان.

<u>عوامل الثبات</u>

ما عوامل الثبات على دين الله؟

ندعو الله أن يثبتنا وإياك على دينه - تبارك و تعالى - في الدنيا والآخرة، وبالنسبة لعوامل الثبات فمنها:

١- **المداومة على تقوى الله ومراقبته** - سبحانه وتعالى- في السر والعلن في كل زمان ومكان؛ لأن هذه التقوى هي خير زاد للمسلم في ظلمات هذه الحياة، كما قال الله - تبارك و تعالى -: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى" واتقون يا أولي الألباب (١٩٧) (البقرة).

٢- **لزوم العبادات والمحافظة عليها** سواء كانت عبادات يومية كالصلاة أو سنوية كالصيام والزكاة والحج.

٣- **ملازمة الصالحين والأتقياء ورفقاء الخير** والإيمان والتواصل معهم؛ لأنهم عون لك على الثبات على دين الله؛ ومن ثم الابتعاد عن رفقاء السوء والشر وأتباع الشيطان؛ لأنهم عوامل هدم وتثبيط للمسلم عن الثبات على هذا الدين.

٤- **الإكثار من دعاء الله** - تبارك و تعالى -والضراعة إليه بأن يثبتك ويثبتنا والمسلمين جميعاً على الحق؛ لأنه هو الله الذي يثبت على ذلك، كما قال - عز وجل - يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ٢٧ (إبراهيم).

تفقد ثباتك على الطريق

نحن في حاجة اليوم إلى فقه الثبات على دين الله - تعالى - أكثر من أي مدة مضت، أفواج المنحدرين قد كثرت، ومزامير الشياطين قد علت، والأطباق في كثير من البيوت قد تمكنت.

ما هي أوضاع المسلمين اليوم؟ وما أنواع الفتن والمغريات التي بنارها يكتوون؟ وأصناف الشهوات والشبهات التي بسببها أضحى الدين غريباً؟ فنال المتمسكون به مثلاً عجيباً (القابض على دينه كالقابض على الجمر).

وما ذاك إلا لفساد الزمان، وندرة الإخوان، وضعف المعين، وكيد الفاجر مع قلة الناصر قد ينزلق البعض في الفساد بسبب الإعجاب، والاغترار بما يتظاهر به أهل الباطل

وما أقل الثابتون على الخير، وما عساك مستفيد من عمل سبق أن عملته ولكنك طمسته، وما نفعُك من خير عملته يوماً، وتركته دهراً إلا نفع قليل، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

الثبات حتى الممات

من الناس.. من يشتاق إلى الهداية.. ولكن يمنعه منها بغضه لبعض الصالحين.. أو مواقف وقعت له معهم.. فحمل في نفسه عليهم.

أو تجده يعلق صلاحه واستقامته بأشخاص يعينونه على الدين.. فإذا فسدت أحوالهم.. أو فرق الدهر بينهم.. انتكس عن الدين.. وعصى رب العالمين.

وهذا حال أولئك المرتدين.. الذين علقوا إسلامهم بحياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فما داموا يخالطونه.. ويحدثهم ويساكنونه.. فهم ثابتون على الدين.. بل قوّام في الأسحار.. صُوّام في النهار..

ولكن ما إن فارق سواده سوادهم.. حتى ارتدوا على أدبارهم.. وكفروا بعد إسلامهم..

حتى قال لهم أبو بكر - رضي الله عنه -:من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

نعم.. الله حي لا يموت.. يسمع دعاء الداعين.. ويقبل توبة التائبين..

من لجأ إليه كفاه.. ومن فرَّ إليه قربه وأدناه..

إن ذكره العبد في نفسه ذكره في نفسه.. وإن ذكره في ملأ ذكره في ملأٍ خير منهم..

من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً.. ومن تقرب إليه ذراعاً.. تقرب إليه باعاً..

ومن استقر في قلبه الإيمان.. ثبت على عبادة الرحمن.. وإن اشتد البلاء..

وسائل الثبات وأسبابه

واعلموا أيها المؤمنون أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف شاء فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم –

يقول: ((إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)) رواه مسلم

وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -مبيناً شدة تقلب قلوب العباد: ((لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً))
وقد قيل:
وما سمي الإنسان إلا لِنَسْيِهِ *** ولا القلب إلا أنه يتقلب
ومصداق هذا كله مشاهد ملموس في واقع الناس فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم أصبحت وزهرها يابس هشيم
فبينا ترى الرجل من أهل الخير والصلاح ومن أرباب التقى والفلاح قلبه بطاعة ربه مشرق سليم إذا به انقلب على وجهه فترك الطاعة وتقاعس عن الهدى.
وبينا ترى الرجل من أهل الخنا والفساد أو الكفر والإلحاد قلبه بمعصية الله مظلم سقيم إذا به أقبل على الطاعة والإحسان وسلك سبيل التقى والإيمان.
إن تذكر هذا الأمر لتطير له ألباب العقلاء وتنفطر منه قلوب الأتقياء وتنصدع له أكباد الأولياء كيف لا والخاتمة مغيّبة والعاقبة مستورة والله غالب على أمره
والنبي - صلى الله عليه وسلم - قد قال: ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) متفق عليه، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
فيا عباد الله عليكم أن تجتهدوا في أخذ أسباب الثبات وأن تحتفوا بها علماً بأن المقام جد خطير والنتائج لا تخالف مقدماتها والمسببات مربوطة بأسبابها وسنن الله ثابتة لا تتغير، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

أيها المؤمنون إننا في هذه العصور أحوج ما نكون إلى معرفة أسباب الثبات والأخذ بها، فالفتن تترى بالشبهات والشهوات والقلوب ضعيفة والمعين قليل والناصر عزيز وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - عن سرعة تقلب أهل آخر الزمان لكثرة الفتن فقال: ((إن بين يدي لساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً))
فمن أسباب حصول الثبات على الحق والهدى والدين والتقى الشعور بالفقر إلى تثبيت الله - تعالى - وذلك أنه ليس بنا غنى عن تثبيته طرفة عين فإن لم يثبتنا الله وإلا زالت سماء إيماننا وأرضُه عن مكانها وقد قال مخاطباً خير خلقه وأكرمهم عليه: "وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً" وقال - تعالى -: "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا"
ومن أسباب الثبات على الخير والصلاح الإيمان بالله - تعالى
والإيمان الذي وعد أهله وأصحابه بالتثبيت هو الذي يرسخ في القلب وينطق به اللسان وتصدقه الجوارح والأركان فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل
قال الله - تعالى -: "وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً"
فمن أسباب الثبات على الإيمان نصر دين الله الواحد الديان ونصر أوليائه المتقين وحزبه المفلحين قال الله - تعالى -: "إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"

ومن أسباب الثبات على الهدى الرجوعُ إلى أهل الحق والتقى من العلماء والدعاة الذين هم أوتاد الأرض ومفاتيح الخير ومغاليق الشر فافزع إليهم عند توالي الشبهات وتعاقب الشهوات قبل أن تنشب أظفارها في قلبك فتوردك المهالك قال ابن القيم - رحمه الله -حاكياً عن نفسه وأصحابه: (وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه - أي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله عنا وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة).

ومن أسباب الثبات على الحق والتقى الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي

ومن أسباب الثبات على الدين والصلاح كثرة ذكر الله - تعالى - كيف لا وقد قال: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

ومن أسباب الثبات على الحق والهدى ترك الظلم

فقال جل ذكره: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

الثبات على الطاعة

لا يوجد أجمل من لحظات التوبة لكن .. !!! لحظات جميلة ومؤثرة تلك اللحظات التي يعود فيها العبد إلى ربه ويتوب بعد الغفلة والضياع في درب المعاصي والذنوب

. التائب بعد توبته يشغل فكره شيء ليس بالسهل الأ وهو الثبات على الهداية والاستقامة والخوف من الرجوع لحياة المعاصي والتفريط...

التوبة أمر جميل ومسعد لكن الأجمل معرفة كيف نحافظ على التوبة.. من أي صنف أنت...

أولاً / صنف سمعنا في نبض القلوب وعزم أن يلتزم وأقبل علي الله بكل حماس .. ووجد أن التدين شيء جميل للغاية ويعطي لحياته معنى، ولكن خلال الأسبوع الأول تعرض لمشكلة هنا أو هناك ... مثلا يخطئ في حقه شخص ملتزم وعندها يقول هؤلاء هم المتدينون

ثانياً / صنف آخر يقبل على الله، ويتدين ويزيد طاعته ودعائه وتضرعه، ولكن لماذا كل هذه الأشياء لأنه يريد طلبا من الله تعالى، مثلا عنده امتحان أو يريد أن يتزوج أو عند المصائب فإن نال ما تمنى... نسي وعده لرب العزة وأيضا تأخذه مشاغل الحياة ويبتعد عن ربه.

ثالثاً / صنف سمع لنا في نبض القلوب فقرر أن يقبل على الله تعالى ويدعو الناس للخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيؤذي

رابعاً / أيضا من النماذج ومن أنواع عدم الثبات إنسان مضت سنوات عديدة وهو ملتزم... ملتزم منذ صغره... لكنه لم يعد يتذوق حلاوة الإيمان... أصبحت عباداته فاترة

الدعاء أول عوامل الثبات

وتقول يا رب الثبات.. صاحب الصالحين من عوامل الثبات صحبة الصالحين

. تمسك بكتاب الله ومن وسائل الثبات التمسك بكتاب الله... القرآن

هل لك وردا يوميا من الاستغفار؟

هل تحرص علي أداء صلاة التوبة بين الفترة والأخرى؟

هل تلح على الله في دعائك أن يغفر لك ذنوبك كلها؟ هل تسأل من حولك أن يدعو لك بمغفرة الذنوب؟ اللهم اقبل توبتنا واغسل حوبتنا اللهم اغفر الذنوب و أصلح القلوب واستر العيوب

واقبل توبة من يتوب يا رب إنا مذنبون يا رب إنا مشفقون يا رب إنا راغبون في جنة فوق السماء.

الذكر والدعاء:

سبق أن تحدثت عن الدعاء وفضله وأثره. أما الذكر فهو حياة القلوب، وشفاء الصدور، وجلاء الأحزان، وأنس المستوحشين، وأمان الخائفين، فضله عظيم، وأثره عميم، وهو من أعظم أسباب التثبيت في الجهاد وغيره

الاستعانة بالله وحسن الظن به:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «وتحت قوله - تعالى -: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧] كنز عظيم من وُفِّق لمظنته، وأحسن استخراجه واقتناءه، وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حرم؛ وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين؛ فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانها، وقد قال - تعالى - لأكرم خلقه: {وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً} [الإسراء: ٧٤

الصحبة الصالحة، والأُخوة الصادقة:

إن الصحبة الصالحة والأُخوة الصادقة من أعظم الأمور المساعدة على الثبات على الدين والاستقامة عليه؛ إذ المؤمن الصادق يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهو مرآة له، كما جاء في الحديث، وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بمصاحبة الطيبين وتخير الصالحين فقال: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»

وهذا يدل على أثر الأخوة الصالحة في الثبات

وسائل كثيرة للثبات لعلنا نتناول بعضا منها، فمن هذه العوامل:

أولاً : الإقبال على كتاب الله، (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) [الفرقان: ٣٢]، لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفوس، ولأنه يزوّد المسلم بالتصوّرات الصحيحة لواقعهم، فيردّ على الشبهات ويفضح المخططات. والإقبال على القرآن يكون بتلاوته وحفظه ومعرفة تفسيره والعمل به، فداوم على تلاوته، ولا تقطع صلتك به، ولا تعرض عنه.

ثانيًا: الالتزام بشرع الله والإكثار من الأعمال الصالحة والسنن الرواتب والنوافل المطلقة، (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد: ١٧]، (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) [إبراهيم: ٢٧].

وهذا والله واضح ومرئي رأي العين، وإلا فهل نتوقع ثباتًا من الكسالى القاعدين والعصاة المنافقين إذا أطلقت الفتنه رأسها وادلهم الخطب؟! (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [الصف: ٥].

ثالثًا: ومن عوامل الثبات على دين الله والاستمرار عليه تدبر قصص الأنبياء ودراستها والتأسي بها، وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [هود: ١٢]، فكم نالهم عليهم الصلاة والسلام من الأذى والعذاب والفتن من أقوامهم.

فلسفة الابتلاء فى الإسلام

ومن هنا كانت كتابة هذه الرسالة لتسلية كل مصاب مهما بلغ مصابه، أبيِّن له من خلالها بعض حِكم البلاء العظيمة التي ربما غفل عنها بعض الناس - هداهم الله- ونسوا أو تناسوا أن الله لا يبتلينا ليعذبنا، بل ليرحمنا. وأن على المؤمن أن ينظر إلى البلاء-سواءً كان فقداناً للمال أو الصحة أو الأحبة-

الثبات ثمرة الإبتلاء

من أبرز حكم الله عز وجل في الحياة، حكمة الفتنة والامتحان؛ ولو عرف الانسان هذه الحكمة بوعي كامل، لانكشفت أمامه حقائق كثيرة، وزالت من قائمة إستفساراته تساؤلات كثيرة تتوارد على ذهن الانسان لتتركه حيران يبحث عن فلسفة خلقه، والسبب الكامن وراء مجيئه الى الحياة، والهدف من الصراع الدائر بين البشر والذي يفرز حالات قد تكون متباينة مثل الغنى والفقر، والظلم والأمن..

إن النفس الأمارة بالسوء لا تبقى بعيدة عن مسرح هذه الشكوك، بل تبادر الى طرح عشرات الأمثلة لزرع الوساوس في الانسان، ولتتحول هذه الوساوس بدورها الى حجب وعقد تتركز في ذهن الانسان، متحولة الى موجة عارمة لا تهديه السبيل، بل تفقده الوعي والبصيرة.

الثمار الإيجابية للإبتلاء

من ضمن الحقائق الثابتة التي لا مجال للشك والترديد فيها، إن الهدف من وجود الانسان في الحياة هو أسمى بكثير من التمتع بملاذ الدنيا، والعيش كما تعيش البهائم. فهو يدخل خلال حياته في خضم دورة تربوية تعليمية عميقة الأثر في كيانه، ثم يخرج منها إما الى جنة عرضها السماوات والأرض، لا توصف نعماؤها ولا تدرك لذائذها؛ وإمّا الى نار سجرها جبارها لغضبه، حيث تنعدم منها الرحمة والأمان .

ولو عرف الانسان هذه الحقيقة وأدركها لاستقامت حياته، ولاستطاع أن يتفوق على جميع المؤثرات، ويتحدى كل المتغيرات.

ولكن كيف يتسنى لنا ان نعرف هذه الحقيقة ؟

من الأمور والظواهر المشهودة في حياتنا أننا إذا أ ُصبنا في أموالنا أو أبنائنا وما الى ذلك، فان أنظارنا تتركز عادة على ذات المصيبة، فنسأل أنفسنا قائلين: لماذا نزلت بنا هذه المصيبة، ولماذا خصتنا دون غيرنا؟ في حين إن من الأجدر بنا أن نعي ظروف المصيبة وخلفياتها، ونستفيد منها - بالتالي - كمنهاج تربوي لنا في حياتنا.

كيف تعامل الائمة مع المآسي؟

ونحن نستطيع أن نلمس بشكل مباشر هذ الحقيقة في واقعة الطف، التي لا يشك أحد في أنها كانت أعمق أثراً، وأوسع نطاقاً من أي مصيبة أخرى. ففي صلب أجواء هذه المصيبة **كانت للإمام الحسين عليه السلام** كلمات وخطب تتفجر منها الحكمة، وتفيض منها الروح الايمانية الصلبة، والنور الإلهي البهي. فكلماته عليه السلام التي انطلقت من صميم واقع المصيبة كانت تعبر عن العمق الإيماني، والروح الوثابة في جبهة الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا الحال بالنسبة الى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام؛ ففي اللحظات الأخيرة من حياته وهو يعاني من ألم السم القاتل الذي دسه إليه معوية، دخل عليه جنادة طالباً منه أن يوصيه، فيبادر الإمام الى تقديم وصيته له قائلاً: "...واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل

لآخرتك كأنك تموت غداً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلِّ معصية الله الى عزِّ طاعة الله عز وجل

ولا ريب إن هذه الوصايا لم تكن مجرد كلمات عابرة يطلقها إنسان يحتضر، ويكاد جسده يتفجر من الألم، بل هي كلمات تفيض حكمة ورشداً وروحاً إيمانية.. وفي ذلك دلالة كبرى على مدى استيعاب الإمام عليه السلام لحكمة الحياة، فقد استطاع بشخصيته العظيمة أن يتجاوز حدود المأساة.

وهنا تنبغي الاشارة الى حقيقة هامة، وهي إن الإنسان الذي سرعان ما يستسلم للمصيبة، ولا يخطر على باله أن يقاومها ويتحداها، إنما هو إنسان ضعيف لم يترسخ الايمان في قلبه، ولم تطمئن نفسه ولو للحظة واحدة. كما أنه لا يمتلك رؤية مستقبلية الى الحياة، بل ينظر الى لحظته التي يعيشها فقط.

المصائب ضرورية

<u>وبناءً على ذلك فان المصائب التي تتوالى على الانسان ضرورية لبناء شخصيته</u>، بالرغم من عدم رغبته في أن تنزل عليه. ومع ذلك فلولاها فانه لا يستطيع أن ينتبه الى خطائه، ونقاط الضعف في شخصيته، ولولاها لما عرف قدره ومكانته في الحياة. فمن ضمن فوائد المصيبة أنها تنقذ الانسان من الغفلة، وتذكره بواقعه.

والقرآن الكريم ينبهنا في سورة الانعام، وعبر آيات عديدة إلى الثمار الايجابية للمصائب والصعوبات التي يلاقيها الانسان في حياته، فيقول عز وجل في هذا المجال:

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ *بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ *وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ *فَلَوْلآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ *فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ((الانعام/٤٠-٤٥)

والآيات السابقة تبين لنا أن الانسان قد يصاب أحياناً بالغفلة حتى عن الله سبحانه وتعالى، وحينئذ يأتي دور المصائب لتعيده الى ذكره -تقدست أسماؤه- وتوسع من آفاق معرفته.

وفي هذا المجال يروى إن رجلاً جاء الى الإمام الصادق عليه السلام، وقال له: يابن رسول الله دلني على الله ما هو، فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيّروني؟ فقال له: يا عبد الله؛ هل ركبت سفينةً قطّ؟ قال: نعم. قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم. قال:فهل تعلّق قلبك هنالك أنَّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: نعم. قال الإمام االصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث".

ومن هنا نفهم أن حالات المصائب والرزايا تقرب الانسان الى الله تعالى، وتزيد من معرفته به. وهل هناك نعمة أكبر وأعظم من نعمة معرفة الله تبارك وتعالى، هذه النعمة التي تعد خير الدنيا والآخرة، وهل هناك نقمة أشد من نقمة الضلالة والغفلة عنه عز وجل ؟

وعند نزول المصائب لا يتعلق الانسان المؤمن بشئ غير الله، وهذا ما يقودنا الى التوجه نحو رب العزة دائماً وأبداً، وبذلك نتحدى المصائب. فهي عندما تلم بنا فاننا سنرفع رؤوسنا وأيدينا متضرعين، طالبين من الله تعالى أن يرفعها عنا، وييسر أمورنا. فهو القادر وحده على كشفها.
وعلى الانسان أن يستدل من خلال زوال المصائب عنه، وخلاصه منها، أن هناك قوة فوق هذه القوى، ألا وهي قوة الله تعالى.
وفي مثل هذه الظروف التي نمر بها يجدر بنا أن نزداد إيماناً، وضراعة الى خالقنا من خلال إستغلال الدقائق والساعات والأيام في التوجه الى الله والتضرع إليه. فهو جل شأنه يباهي ملائكته بعبده المؤمن الذي يقوم من نومه، ويصلي له ركعات في جوف الليل، ويدعوه بأحسن الدعوات، ويتبتل إليه، ويعرض له حوائجه، فانه مجيب دعوة المضطرين، ونصير المظلومين.
يقول تعالى مشيراً الى تلك الفئة التي لا تعتبر من المصائب: **(فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**
فهناك البعض من الناس لم تنفعهم المصائب، لأنهم لم يعتبروا بها؛ فكلما نزلت بهم مصيبة كانت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، ونتيجة لذلك فقد أصبحت قلوبهم قاسية قد أحاطت بها الذنوب من جميع أرجائها.
إن مثل هذه الحالة تدعونا الى الحذر. فالأجدر بنا - إذن - أن نستغفر الله سبحانه وتعالى حال إرتكابنا أية معصية أو ذنب صغير. أمّا إذا لم يتضرع الانسان الى ربه، فان الله سيستدرجه بإنزال النعم الوافرة عليه، وحينئذ ينزل العذاب عليه بغتة، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر.

<u>الضراعة هدف الابتلاء</u>

الفطرة هي أكبر رأس مال يمتلكه الانسان في الحياة؛ فهذه الفطرة هي التي تكشف للانسان الحقائق، وتجعله ينسجم مع طبيعة الكون والنفس، فيتفاعل بهما ومعهما. ولكن هذه الفطرة التي لابد أن تقوم بدور المنسق بين الانسان والطبيعة من حوله تتعرض للرين، لأن حجب الشهوات والأهواء والتراكمات السلبية تفصل بينها وبين إدراك الحقائق. فقد تتحول هذه الفطرة الى فطرة تحجبها الأهواء والشهوات، فتفتقد القدرة على الكشف، ولا تستطيع ان تقوم بدورها الأساسي في تبصير الانسان بالحقائق.

<u>سبب جميع المآسي</u>

والانسان عندما ينظر بفطرته، وطبيعته الأولية الى الأشياء، فان حياته ستكون حياة قائمة على أسس حضارية تحمله خطوة فخطوة الى الأمام وبصورة مستمرة. وإذا ما استبعدت الفطرة فان كل سعي الانسان، وكل حركة له سيكونانباتجاه معاكس؛ أي إتجاه التخلف والتقهقر بدلاً من التقدم.
وإذا أردنا أن نبيّن بكلمة واحدة سبب تخلف الانسان، وسبب المشاكل المتراكمة عليه، لابد أن نقول ان تلك الفطرة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في ذات الانسان قد تغيرت وانقلبت واحتجبت بالشهوات. وهذا هو تعبير موجز عن جميع المآسي التي يتعرض لها الانسان.
وعلى سبيل المثال فان الانسان الذي ينظر الى الأمور بفطرته، يستطيع أن يتنبّأ بالمستقبل بصورة طبيعية. صحيح إنه لم يزود بالقدرة على إستشراق الغيب، ولكنه قد منح البصيرة

الكافية لتنسيق حياته، ودرء الأخطار عن نفسه، ولذلك فان الشعور بالألم وضع للدلالة والاشارة الى وجود المرض في الجسم.

<u>خلق الإنسان للابتلاء</u>

السؤال

إن الله يعلم مصير كل إنسان قبل أن يخلقه، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار. فلماذا خلق الله الإنسان إذن؟

فهذه الحياة هي دار ابتلاء حيث يبتلي الله عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فمن صدق بالرسل وعمل بما في الكتب كان من أهل الجنة ومن أهل السعادة ومن كذب كان من أهل الشقاء وأهل النار. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عما يعمله الناس أهو أمر قد قضي وفرغ منه أم أمر مستأنف ، فقال بل أمر قد قضي وفرغ منه ، فقالوا : ففيم العمل يا رسول الله ؟ فقال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له ".

وقد قال الله تعالى: (إنَّ سعيكم لشتّى، فأمّا من أعطى واتّقى وصدَّق بالحُسنى فسنيسّره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعُسرى) [الليل: ٤-١٠]

فعلى كل أحد أن يعمل ويبحث عن مواطن الهداية ويدعو الله أن يرزقه الثبات على الدين، وأن يعلم أن الله تعالى قد خلق الخلق وهو يعلم أرزاقهم وآجالهم وماهم عاملون، ونحن نرى أكثر الناس يستشكلون أمر السعادة والشقاوة، ولايستشكلون أمر الرزق ونحوه، وهي من باب واحد من جهة خفائها عن الخلق وأن علم الله قد سبق فيها.

وأما الاحتجاج بكونه سبحانه يعلم مصير كل فرد من مخلوقاته فهذا أمر طبيعي للإله القادر العليم.

وكيف يكون رباً للأشياء وهو لا يعلم مصيرها ولا ما تؤول إليه: فالإله الذي يجهل مستقبل مخلوقاته ولا يدري هل سيعصونه أم سيطيعونه،

ولا يدري من الذي سيعذب منهم ولا من سيرحم، لا يستحق أن يكون إلها، لعدم إحاطة علمه بما خلق، والله سبحانه وتعالى علمه محيط بكل شيء من مخلوقاته ولذا قال: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [الملك: ١٤].

وهو الذي يفعل ما يشاء كيف يشاء لا دخل لأحد من خلقه في فعله جل وعلا، قال تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) [الأنبياء: ٢٣].

وقد أخبرنا سبحانه أنه خلق الجن والإنس لعبادته وطاعته ، فقال " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[الذاريات:٥٦].

وفي إيجاد الإنس والجن ، وابتلائهم بالتكاليف ، ثم مجازاتهم على أعمالهم ظهور لآثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، فهو الخالق الرازق المحيي المميت ، وهو الرحمن الرحيم ، والحكيم العليم ، وهو ناصر المؤمنين ومخزي الكافرين ، وهو الديان الذي يحاسب عباده ويجازيهم على أعمالهم ، وهو المنتقم الجبار ، الذي ينتقم لأوليائه من أعدائه ، وهو الموصوف بكمال العدل والإحسان جل وعلا .

ثم إن هذا اللون من الأسئلة لا ينبغي للمؤمن التشاغل به، فالمتشاغل بذلك لا يأمن أن يتساقط إيمانه شيئاً فشيئاً، والواجب أن نثق بحكمة الله وعدله، وأنه لايعذب أحدا بغير ذنب استحقه

وأنه يعفو عن كثير. وقاعدة ذلك التسليم لأمر الله ، مابلغته عقولنا وما قصرت عن فهمه، وأن العجز والقصوروالخلل فينا لافي حكمة الله تعالى

حتمية الابتلاء

أن الابتلاء سنة ربانية ماضية، هي من مقتضيات حكمة الله ـ سبحانه ـ وعدله، متمثلا وقعه بجلاء، في الفقر والغنى، والصحة والمرض، والخوف والأمن، والنقص والكثرة، بل وفي كل ما نحب ونكره، لا نخرج من دائرة الابتلاء

وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] الأعراف:١٦٨].

وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء:٣٥]،

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

عباد الله، العاقل الحصيف يجب عليه حتما أن يوقن، أن الأشياء كلها قد فرغ منها، وأن الله سبحانه، قدر صغيرها وكبيرها، وعلم ما كان وما سيكون وأن لو كان كيف يكون،

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ [الأنعام:٣٨].

قال رسول الله)) : أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) [رواه أبو داود]

فالمقادير عباد الله كائنة لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، وإذا ما قدر على المرء حال شدة، وتكنّظته الأمور، فيجب عليه حينئذ أن يتازر بإزار له طرفان :أحدهما الصبر، والآخر الرضا، ليستوفي كامل الأجر لفعله ذلك، فكم من شدة قد صعبت، وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثم فرج عنها بالسهل في أقل من لحظة.

قيل للحسن: يا أبا سعيد، من أين أتي هذا الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله؟ قيل: ومن أين أتى قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

ولما جيء بسعيد بن جبير إلى الحجاج ليقتله، بكى رجل فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك. قال سعيد: فلا تبك إذا، لقد كان في علم الله أن يكون هذا الأمر، ثم تلا:

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا [الحديد:٢٢.[

ففي هذه الآيات إشارة إلى استمرار البلاء والفتنة ، وأن الإنسان لا بد أن يبتلى ويمتحن ، فإن كان من العارفين بالله وصبر وثبت على إيمانه فإنه سيحصل له من الفوز والفلاح ما حصل للمؤمنين قبله ، الذين قص الله علينا قصصهم ، وإن أعرض ولم يتعظ ولم يعتبر كما أمر فنهايته للهلاك والفتنة العظيمة التي لا فتنة بعدها ، وهي عذاب الله

كما قال تعالى : سورة الذاريات الآية ١٣ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ سورة الذاريات الآية ١٤ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

وقد نبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فتن عامة تكون في آخر الزمان في أحاديث كثيرة ؛ لذلك بوب غالب العلماء في كتبهم بابا خاصا بها سموه (أبواب الفتن) وذلك كالبخاري ومسلم

والترمذي وأبي داود وغيرهم ، ساقوا فيها ما أخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما يقع من الفتن . والإنسان يشاهد الفتن دائما لا تنقطع عنه ، ولكنها تختلف حسب شدتها وضعفها فمثلا الأمراض والمجاعات والجوائح وفقد الأحبة حتى الشوكة يشاكها المسلم ، فقد ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال. ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها.

كل ما اتصل بالإنسان من أهله وولده ووالديه وأصحابه وعشيرته ومن يتعامل معهم كل هؤلاء ، فهل يقوم بواجبه نحوهم من جلب خير أو دفع شر ؟ وهل يكف يده عن حقهم وبصره عما متعوا به ويسأل الله من فضله. ويكف لسانه عن غيبتهم وبهتهم ؟ فقد ورد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال : صدق الله سورة التغابن الآية ٥ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في الخطبة

. وقد ورد عن حذيفة قال : (كنا جلوسا عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، فقال : أيكم يحفظ قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الفتنة ؟ قلت : أنا كما قاله ، قال : إنك عليه أو عليها لجريء ، قلت : فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي ، قال : ليس هذا أريد ، ولكن الفتنة التي تموج كموج البحر ، قال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابا مغلقا ، قال : أيكسر أم يفتح ؟ قال : يكسر ، قال : إذا لا يغلق أبدا ، قلنا :أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما أن دون الغد الليلة ، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط . فهبنا أن نسأل حذيفة ، فأمرنا مسروق فسأله فقال : الباب عمر) . ففي هذا الحديث عمر لم ينكر على حذيفة وقوع الفتن الصغيرة ، وحذيفة أجابه إلى سؤاله بالنسبة للفتن الكبيرة.

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : (لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ؛ لأن الله تعالى يقول : سورة الأنفال الآية ٢٨ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن

فلا بد للمؤمن من الصبر والشكر ولا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت **لكن المؤمن** يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة الفوائد لابن القيم :

أما الكافر فقد تنقطع عنه الفتنة في الدنيا ولكنه يصير إلى الألم في الآخرة ، كما روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها فإذا سكنت اعتدلت وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ومثل الكافر كمثل الأرزة الأرز : ضرب من البر وقيل شجر الصنوبر . صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء .

والله سبحانه حذر من الدنيا وفتنتها ؛ ليحذرها المؤمن العارف بربه ، قال تعالى : سورة العنكبوت الآية 64 وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ . فالجميع مبتلى فيها ، فمن لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به ، وهي أعظم المحنتين ، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها ، أو عقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم ، فلا بد من المحنة في هذه الدار ، وفي البرزخ لكل أحد ، لكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية ، فإن الله يدفع عنه بالإيمان
. ، وقال تعالى : سورة الحج الآية ٣٨ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا . ولكن البلاء يشتد عليه بحسب إيمانه ؛ ليعلم صدقه من كذبه ، فإن صبر وأجاب داعي الله فإن له عند الله الفوز والنعيم .

وقد سئل الشافعي رحمه الله : أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى فقال : لا يمكن حتى يبتلى فإن الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا - صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين - ، فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة . .وقد أجمل الله عز وجل الابتلاء ، وأنه لا بد منه بقوله سبحانه : سورة العنكبوت الآية ١ الم سورة العنكبوت الآية ٢ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ سورة العنكبوت الآية ٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . ثم فصل سبحانه بعض الذين ابتلوا من قبلنا ، وقد ابتلي نبينا - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون من الصحابة ومن كان قبلهم والكفار مما يدل على استمرار الفتنة والابتلاء.

من أصعب صور الابتلاء بالغير أن يبتلى المرء في أقرب الناس إليه ؛ و هم أهله و ولده.

قال تعالى:وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيراً } الفرقان : ٢٠.
و قال تعالى: اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }الأنفال : ٢٨ و ما أكثر من نعرف ممن ابتُلِيَ بولد عاق أو مريض ، أو زوج نشاز أو ناشز تلطخ ما ابيض من صفحات زوجها بسوء أخلاقها أو أفعالها.
كميلكون الابتلاء بالخير تارةً و بالشر تارةً أخرى ، و قد يكون بهما معاً ،

قال تعالى : {وَ بَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الأعراف : ١٦٨. [
و قال سبحانه { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] { الأنبياء : ٣٥] ، و على المؤمن أن يوطن نفسه على مقابلة الابتلاء في كلتي الحالتين على مرضاة الله التي في تحصيل سعادة الدارين ، و بذلك يحوز خير الخيرَين ، و أفضل الأمرين

و روى مسلم عن صهيب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله : (عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له ، و إن أصابتهضراء صبر فكان خيراً له.)
أما من يُسَرُّ بالسرّاء ، و يستاء بالضراء فيسخط و يضجر و ينقلب على وجهه ، فهو على جرف هار يوشك أن ينهار به في نار جهنم و العياذ بالله.

فهل للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه ؛ طلبا لهذا الفضل العظيم ، أو يترك ما أوجبه الله عليه خوفا من الفتنة ؟ وهذا يرجع إلى الحكمة في الأمور والعمل لكل وقت بما يناسبه ، فالمتتبع لسيرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهو أكمل المؤمنين إيمانا وأقوى توكلا

وأعظم داعية يرى أنه لا يستدعي البلاء على نفسه ، ولا يترك ما أوجبه الله عليه ، وإنما جمع بين التوكل والعمل بالأسباب ، فقام بالدعوة إلى الله خير قيام ، حسب مقتضى الظروف والأحوال المقرونة بحكمة الله وأمره وشرعه ، فقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه دخل بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدي ليجيره من أذى قريش ، حتى يبلغ رسالة ربه. ، وكان - صلى الله عليه وسلم - يخرج إلى القبائل أيام الموسم ويدعوهم إلى الإسلام ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي . كذلك هجرته - صلى الله عليه وسلم - وهجرة أصحابه الأولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة ، تدل دلالة واضحة على أنه لا يجوز للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه ، حيث لم يستمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة القوم كما أنه كان يحمي نفسه من الأعداء في المعارك ، وينهى الصحابة من تعرضهم للبلاء ، وإيجابهم على أنفسهم ما لم يوجبه الله عليهم ، فقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق .

وقال - صلى الله عليه وسلم - لعبد الرحمن بن سمرة

يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير .

ويقول - صلى الله عليه وسلم - عن الطاعون

. إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وقوله - صلى الله عليه وسلم - :

لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . وتعوذ - صلى الله عليه وسلم - من فتنة الغنى والفقر والدنيا والنار ، وغير ذلك ، قال العلماء : أراد - صلى الله عليه وسلم - مشروعية ذلك لأمته

يقول ابن تيمية بعدما ساق هذه الأحاديث) : وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ، ويحرم عليه أشياء ، فيبخل بالوفاء ، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهودا على أمور ، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود ، ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت ، ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ، ولا بد في جميع ذلك من الصبر)

رد فعل المبتلى

فاتقوا الله ، واعلموا أن الله تبارك وتعالى يبتلي عباده امتحانًا واختبارًا ليرى الشاكر منهم ومن يكون منهم كفارًا.

وعليه فإن الله إذا ابتلى عبده بأنواع البلايا والمحن أو بشيء منها فإن ردّ ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه، وجمع عليه قلبه وطرحه على بابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير له.

والشدة بتراء لا دوام لها، وإن طالت فتقطع عنه حين تقلع، وقد عُوض منها أجل عوض وأنفعه، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعدأن كان نائياً معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا، وكانت البلية في حق هذا

عين النعمة وإن ساءته، وكرهها طبعه، ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب. وقول الله تعالى في ذلك في سورة البقرة هو الشفاء والعصمة حيث يقول الله تبارك وتعالى:
وَعَسَىأَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْشَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [البقرة:٢١٦].
وإن ردَّ ذلك البلاء إلى خلقه، وشرد قلبه عنه، وطغى ونسي ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه، فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به، فإذا أقلع عنه البلاء ردّه إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه في السراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء.

حكمة الحياة حكمة الوجود

تزكية النفوس مراد الإبتلاء

من الظواهر السلبية في حياتنا إنّ أغلب الناس منصرفون الى هموم الدنيا، وشؤون المعاش من مأكل وملبس ومتع ولهو ولعب، غير ملتفتين الى علة وجودهم وحياتهم على هذه الأرض، ولا آبهين بغاية هذا الوجود؛ فقلّما نجد أولئك الذين يسائلون أنفسهم عن تلك العلّة والغاية، وما ينطوي عليهما من حقائق تنظّم الحياة، وتعبّد طرقها على أساس ذلك الفهم والادراك.
فلابدّ أن يكون هناك هدف وغاية من وجودنا، وتركيبنا بهذه الهيئة التي نحن عليها؛ بل إنّ الغائيّة والهدفيّة تعمّان كلّ صغير وكبير في أبداننا وأحاسيسنا. فأعضاء جسد الإنسان لم تخلق، ولم ينعم بها الإنسان إعتباطاً وعبثاً، بل لها أهداف تجتمع في بؤرة هدف واحد، هو الهدف الرئيس من الوجود.
هدفيّة الوجود تشمل كل شيء
وهدفيّة الوجود لا تقتصر على الإنسان وحده، بل إنها امتدّت الى كل شيء صغير وكبير في الطبيعة. فليس هناك شيء مخلوق دون هدف، وحاشى لله أن يصدر منه ذلك، وحتى المخلوق الذي فيه الضرر والفتنة للانسان فانّه ضروري لإصلاحه.
ويبقى من حقّ كل إنسان أن يسأل عن هذا الهدف، وسرّ الظواهر التي تحيط به؛ فهذا السؤال هو السؤال المهم الذي له صلة وثيقة بأوضاعنا التي نعيشها اليوم، والتي هي أوضاع خطيرة وحسّاسة يعجب منها الناس لأنهم يجهلون أسبابها وأسرارها والحكمة من ورائها، فلو عرفوها بطل العجب وزالت الحيرة عندئذ.

الفتنة.. هدف أساس

والإنسان المؤمن الواعي لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة، فيدع الشيطان يداهم نفسه، ويوهمها بالكمال والصلاح، فيرضى عن نفسه، ويكتفي بما بلغه من السير على طريق الكمال والصلاح؛ بل يبقى لآخر لحظة من حياته يروّض نفسه، ويربّيها على التقوى من أجل أن يضمن لها حسن العاقبة، وهو الأمر الخطير والمهمّ لدى كلّ انسان.

الابتلاء يفضح المنافقين

فالبلاء - إذن- له مردودات إيجابية على صياغة روح المؤمنين، وجلي نفوسهم، وإظهار معدنهم الحقيقي، وبالاضافة الى ذلك فانه يعود عليهم بالنفع المتمثل في افتضاح النفاق والمنافقين في المواقف الصعبة. وهذه هي طبيعة المنافقين، والذين في قلوبهم مرض؛ أي الذين تكدّرت قلوبهم، واسودّت بالحسد، فغدت مريضة تعيش الحسد والحق والبغضاء.. فهم يحرصون على الدنيا وملآتها، ويلهثون وراء سرابها، تاركين الجهاد في سبيل الله، ويثبّطون المؤمنين، وينالون من عزائمهم ولذلك كان حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وباباً من أبواب النفاق.

كيف نتعامل مع الفتن

فلنخلص النيّة، ولنتحمّل المسؤولية الملقاة على عاتقنا، ولنبدأ باصلاح أنفسنا عسى الله أن يرحمنا، ويكتب أسماءنا في قائمة أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وطهّروا قلوبهم من النفاق، وكانوا في مستوى الابتلاء والتمحيص والفتنة، فخرجوا منها بوجوه بيضاء.

أبو عبد الله الحسين عليه السلام

عندما خرج سيدنا وإمامنا أبو عبد الله الحسين عليه السلام من مكة تلقاء العراق قاصداً الكوفة، توافدت عليه مجموعات من المعارضين للنظام الأموي، والقاعدين عن الجهاد.. يتساءلون عن السبب الذي دفع الإمام عليه السلام الى الخروج في هذا الوقت، في حين إن الظروف المناسبة لخروجه ضد طاغية عصره يزيد بن معاوية لم تنضج بعد حسب تصورهم.

وقد أجاب عليه السلام كل فريق باجابة مختلفة؛ كل حسب فهمه وظروفه وانتماءاته.

فقد قال لبعض: "إنَّ بني امية أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت".

قال لمجموعة أخرى: "كتب إليَّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، يسألوني القدوم إليهم ففعلت".

وعندما أتته أفواج مسلمي الجن، فقالوا: يا سيدنا؛ نحن شيعتك وانصارك، فمرنا بأمرك وما تشاء. فلو أمرتنا بقتل كل عدو لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك. فجزاهم الحسين خيراً،

وقال لهم: أو ما قرأتم كتاب الله المنزل على جدي رسول الله

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾

وقال سبحانه: **﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾**

وإذا أقمت بمكاني فبماذا يبتلى هذا الخلق المتعوس، وبماذا يختبرون؟"محدداً لذوي البصائر هؤلاء حكمة الاهية لخروجه تتصل بمهمة الأنبياء جميعاً، والأوصياء كلهم، لأنهم يسيرون على نهج الانبياء عليهم السلام.

فهناك أهداف وتطلعات يسعى المقربون والسابقون والصديقون الى تحقيقها، وهذه الأهداف هي أعلى وأسمى من الأهداف السابقة، رغم أن كليهما مشروعان.
إن الصديقين والاوصياء لا يأبهون بحسابات الربح والخسارة، ولا يجعلون هدفهم الرئيس إسقاط هذا الطاغية أو ذاك، بل يستهدفون الامتثال لأوامر الله تعالى؛ أي إنهم يريدون تحقيق إرادته عز وجل في الأرض.
وهناك أهداف سياسية وأخرى رسالية ينبغي على المؤمن أن يسعى لتحقيقها، ذلك لأنه يريد إقامة حكم الله في الأرض، وإزاحة حكم الطغاة، وتحرير الانسان من عبودية الظالمين، وبالتالي تحقيق الرفاه والسعادة للبشر.. وهذه هي الأهداف التي يتطلع المؤمنون المجاهدون لتحقيقها.
ومن حكم الله سبحانه في خلق الانسان، وسائر الأنظمة والسنن التي تحوم حول الانسان؛ ابتلاؤه وفتنته واختبار إرادته.والامتحانات هذه على أقسام؛ فقد يكون الامتحان فردياً كأن يبتلى الانسان بمال حرام يحتاج إليه، أو امرأة محرمة تشتهيها نفسه، أو سلطة تهويها نفسه.. والانسان الفرد هو الذي يمتحن في هذا المجال.

الامتحان الجماعي

ومعنى قوله تعالى: **{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} (النور/٥٥)**
إن هذا الدين من شأنه أن يتمكن ويسيطر في الأرض سيطرة كاملة، وإذا ما ثبت وتمكن واستقر وتعمقت جذوره، فان هذا الدين سوف يكون لمصلحة العاملين في سبيل الله. وبهذا التعبير،

أي قوله تعالى: **{وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً} (النور/٥٥)** يبين لنا الله أن مسيرتنا تكتنفها المشاكل والمخاوف، ولكن العاقبة ستنتهي الى أن يعيش المؤمن في زمن وفي أرض يعبد فيهما الله وحده، وهذه النعمة تأتي نتيجة للتضحيات.
بعد ذلك يقول عز وجل: **{ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور/٥٥)**. فبعد أن يسقط الله تعالى الطغاة، ويحطم الأصنام بيد المؤمنين، يظهر أناس يكفرون بالنعمة بدل أن يشكروها، وتجرفهم مذاهب الدنيا، فلا يفكرون إلاّ في مصالحهم، وقضاياهم الشخصية.

حكمة الوجود

والنتيجة النهائية التي نستوحيها من الآيات القرآنية السابقة؛ إن علينا أن ننظر دائماً الى حكمة الوجود، ولا نعيش في التمنيات والأحلام.
فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الدنيا لكي يفرض على أهلها عبادته كرها، بل يريد منهم الاختبار والامتحان. فعليهم أن يسعوا ويتحركوا ويبذلوا الجهود لكي يحققوا حياة آمنة، وعليهم أن يتقبلوا البلاء والفتنة ليعرف مدى إيمانهم، وصدق أقوالهم. ففي حالات الرفاه ترفع شعارات كثيرة، أما في حالة الشدة فان الأمور تختلط مع بعضها.فيجب علينا أن نجعل دائماً أفق تفكيرنا أفقاً ربانياً من خلال نظرة إلهية وبصيرة ربانية، وأن ننتبه الى حكمة الوجود.
إن على الواحد منا - كمثال - أن لا يسيء الظن بالله تعالى بسبب إنزلاق رجله وهو في طريق ذهابه الى المسجد، فبوقعته هذه سيحصل على ثواب مضاعف.

وقد روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: "إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه وتعهده بالبلاء، كما يتعهّد المريض أهله بالطرف، ووكل به ملكين فقال لهما: اسقما بدنه، وضيّقا معيشه، وعوِّقا عليه مطالبه، حتى يدعوني فانّي اُحبُّ صوته، فاذا دعا قال: اكتبا لعبدي ثواب ما سألني وضاعفا له حتّى يأتيني، وما عندي خير له، فإذا أبغض عبداً وكل به ملكين، فقال: أصحّا بدنه ووسّعا عليه في رزقه، وسهّلا له مطلبه، وأنسياه ذكري، فأنّي اُبغض صوته حتّى يأتيني، وما عندي شرٌّ له". فان دعوت الله من أعماق قلبك فسوف تحصل على بعض الثواب، في حين إنه عز وجل يريد لك أن تحصل على المزيد من هذا الثواب، ولذلك يؤخر إستجابة دعائك.

إن الثواب الذي حصلنا عليه قليل، وميزان صالحاتنا ما يزال خفيفاً، والله يريد أن يثقل هذا الميزان من خلال الابتلاء كالاضطهاد والهجرة، وما الى ذلك. والايمان يزداد ويتعمق في حالات كهذه، والثواب في الآخرة يزداد، وميزان الحسنات سيكون أرجح وأثقل من ميزان السيئات، وعلى الانسان المؤمن أن لا يرفض قدراً من أقدار الله جل وعلا عليه.

الإمام السجاد عليه السلام في دعائه: "وإن يكن ما ظللت فيه أو بت فيه من هذه العافية بين يدي بلاء لا ينقطع و وزر لا يرتفع فقدِّم لي ما أخّرتَ وأخِّر عليَّ ما قدّمتَ فغير كثير ما عاقبته الفناء وغير قليل ما عاقبته البقاء ".

من دعائه عليه السلام: "إذا دُفع عنه ما يحذر أو عجل له مطلبه".

فكل ما كان في الدنيا هو قليل، لأن الدنيا تنتهي. وكل ما كان في الآخرة كثير، وإن بدا ظاهره قليلاً لأنه لا ينتهي.

فلتتجه أنظارنا الى يوم القيامة، فهذه الدنيا ليست إلاّ معبراً، فلو دامت لغيرنا لدامت لنا أيضاً. فهي لم تَصفُ حتى للأنبياء والصديقين، فكيف تصفو لنا. فهي دار الابتلاءات والامتحانات، فلنحاول أن نجتازها بوجوه مبيضة لدى رب العالمين.

مصنع الرجال

الانسان لم يخلق عبثاً، ولذلك فانه لم يترك سدى. والهدف من الحياة، وخصوصاً حياة الانسان إمتحانه، وابتلاء سرائره، وليتم الله حجته عليه. وفي هذا المجال يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الانبياء/٣٥).

وهكذا فان على الانسان أن يتسلح بسلاح الحذر واليقظة. فلو غفل لحظة واحدة، فانه سيخسر عمره كله. وهذا هو الخسران المبين.

إن أولئك الذين اختاروا الحق هدفاً، وخططوا للوصول إليه بوعي، واستقاموا على طريقهم، كانت عاقبتهم خيراً. أما الذين خارت عزيمتهم، وضعفت إرادتهم، وأحاطت بأبصارهم الغشاوات، فانهم سوف لا يخسرون حياتهم الدنيا فحسب، وإنما سيخسرون أيضاً الآخرة، وسيعضّون على أيديهم من الندم، وهيهات أن ينفعهم الندم.

خمس طرق يستخدم فيها الله المصاعب

المصاعب التى تواجهها ، إما تهزمك أو تنميك ، وهذا يعتمد على كيفية تجاوبك معها .. ولسوء الحظ ، يفشل أغلب الناس في رؤية إرادة الله الجميلة في استخدام المصاعب

في حياتهم .. ويتفاعلون بغباء ممتعضين بدلا من التأني لرؤية الفائدة التي يمكنهم الحصول عليها .. وها هنا خمسة طرق يريدها الله باستخدام المصاعب في حياتنا

١.الله يستخدم المصاعب في توجيهك

أحيانا يضطر الله لوضعك فوق نيران المصاعب لتتحرك
فغالبا ماتوجهنا المشاكل إلى طريق جديد ، وتحفزنا كي نتغير ..

٢- الله يستخدم المصاعب لإختبارك

الناس مثل عبوات الشاي .. إن أردت أن تختبر ما بداخلها ، مجرد ضعهم فى ماء مغلي ! .. إن الله يمتحن إيمانك بمصاعب فى حياتك ..
إذاً عندما تقع في تجارب متنوعة فلتفرح لأنها تختبر إيمانك ، وهذا ينشئ فيك صبراً

٣- الله يستخدم المصاعب لتقويمك

هناك دروس لا يمكننا تعلمها إلا من خلال الألم والفشل .. مثلما يريد والدين تعليم
طفلهم الا يلمس الإبريق الساخن .. ربما لن يتعلم ذلك إلا من خلال دفعهم له ليلمسه وليلسعه متألما .. وأحيانا نحن لانعرف قيمة شئ ما في حياتنا مثل :
الصحة والمال وعلاقة ما .. إلا عندما نفقدها .

٤- الله يستخدم المصاعب لحمايتك

إن حصول مشكلة ما لك ، قد تكون هناك من خلفها بركة .. إذا ما منعت عنك أذى شئ أكبر منها .. في أحد الشركات فصل أحدهم من عمله ، لأنه رفض أن يقوم بعمل شئ غير أخلاقى فى عمله رغم طلب رئيسه منه القيام بذلك ..
كان تعطله عن العمل مشكلة حقيقية ..
لكنها أنقذته من أن يدان ويدخل السجن بعد مرور عام ، عندما أكتشف عمل رئيسه وكما يقال " رب ضارة نافعة "

٥ - الله يستخدم المصاعب ليكملك

المصاعب ، حينما نستجيب لها بطريقة صحيحة ، تبنى صفاتنا الشخصية ،
والله يهمه ما نحن عليه أكثر ما تهمه راحتنا .. لأن علاقتك بالله ،
وما أنت عليه من صفات هما الشيئين الوحيدين اللذان ستأخذهما
معك في الآخرة .. وهذه هي النقطة المهمة
فالله يعمل في حياتك من خلال المصائب لكمالك .. حتى حينما لا تدرك
أنت ذلك أو تفهمه .. ولكنه من الأسهل والأكثر فائدة عندما
تؤمن بذلك وتشكره على الضراء والسراء .. فالنجاح يمكن قياسه
، ليس فقط بالانجازات ،
ولكن أيضاً بما نتعلمه من دروس .

سبيل العودة الى الفطرة

رغم إن الانسان قد زوّد بعقل يساعده على رؤية الحقائق وملامستها، إلاّ أنه - في نفس الوقت - أبتلي بحجب من الشرك تعطّل أجهزة البصيرة عنده عن العمل، الأمر الذي يحول دون رؤيتها.

وهناك الكثير منا يزعم أنه يعيش الحقائق بوعي، وإحساس دقيق،إلاّ أن هذا الزعم كثيراً ما يشوبه الخطأ. فالغالبية العظمى من الناس لا يعيشون إلا ظلال الحقائق، ولعل البعض منهم يعيش أوهاماً يظن أنها هي الحقائق.

النموذج الأسمى

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله، وأهل بيته الطاهرين، والأولياء الصالحين، النموذج الأسمى لادراك الحقائق ورؤيتها. فعندما يخيم الليل بظلامه الدامس، تجد الناس يستوحشون منه، فيسارعون إلى فراشهم ليغطوا في نوم عميق حتى ينبلج الصباح. بينما النبي وأهل بيته ومن سار على نهجهم وهداهم يأنسون بظلام الليل، حيث يقضون الليالي في التبتل والتهجد والعبادة، ويتأملون السماء وما فيها من الآيات الربانية بقلوب منشرحة، وببصيرة نافذة.

ومن المعلوم إن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان في أحسن تقويم، وزوده بالقدرة على النطق لكي يستطيع التفاهم مع أبناء جنسه، وجعل بينه وبين الخلق حاجات مشتركة. ولو عشنا الحقائق لأدركنا أن هذه الظواهر تمثل كتلة من مظاهر الجمال التي أنعم بها الخالق تبارك وتعالى على الانسان.

ومع ذلك فان الحجب لاتدع الانسان يتحسس مظاهر الجمال تلك، بل تفرض عليه أن يعيش في السلبيات، فلا يرى من الحياة إلاّ جانبها المأساوي السلبي. وهذه الحالة تدفع بالانسان عادة الى أن يسجن نفسه في زوايا ضيقة من هذا العالم الواسع دون أن ينفتح على آفاقه الرحبة، حتى أنك تراه يفقد علاقاته مع الآخرين بصورة تدريجية.

إن هذا المنحى يخالف فطرة الانسان التي تحثه على التواصل مع الآخرين، والانسجام مع الكون بكل موجوداته. ومن هنا يتضح لنا أن مشكلة الانسان تتلخص في أنه يعيش وراء الحجب التي تتمثل بمجموعة من الأفكار الجاهلية التي متى ما استطاع الانسان أن يتحرر منها، ويعيش الطبيعة كما خلقها الله عز وجل،

فانه سيحقق الانجازين التاليتين:

١- العيش في أجواء الايجابية والتفاهم؛ فمن خلال هذه الأجواء سينظر الى جميع مآسي ومنغصّات الحياة بنظرة متفائلة دائماً.

٢- الوصول الى مستوى النشاط والحيوية تبعا لما تمليه عليه طبيعته المتفائلة التي تأبى الكسل والخمول.

إن الذين يركنون الى الكسل، والركود، إنما تدفعهم الى ذلك حجب داكنة، تمنعهم من رؤية جمال الحركة، وتفصلهم عن ضميرهم. فنحن نرى أن مجتمعاتنا مقيّدة بأغلال من مثل الخجل، والخوف، والتردد.. هذه الحجب التي كرّستها التربية الخاطئة، مما حالت دون إنطلاقة شعوبنا لتحقيق طموحاتها الحضارية. وكل ذلك يعود - بالدرجة الأساس - الى إبتعاد الانسان عن الحقائق، وعن الفطرة النقية.

ومجال الامتحان والابتلاء والفتنة لا يحدده العبد؛ وإنما الذي يحدده هو الله، وإذا استعجل العبد الفتنة وطلبها وكله الله إلى نفسه، وخلى بينه وبين نفسه، ولهذا لا تتمن الفتنة ولا البلاء ولكن سل الله العافية،

القتال

يقول عليه الصلاة والسلام: (لا تتمنوا لقاء العدو (لأن بعض الصحابة كانوا يقولون: متى نراهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم) :لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموهم فاثبتوا)

وآخرون استعجلوا القتال فقال لهم الله: لا يوجد قتال، لا يوجد إلا صلاة وصوم فقط، ففي فترة الاستضعاف التي كانت تعيشها الأمة في بداية عهد النبوة، لم يكن قد أذن بالقتال

لما كتب الله عليهم القتال، كان أول من انتكس هم هؤلاء الذين كانوا يقولون: متى القتال؟ فلا تستعجل، وعليك أن تعبد الله سبحانه وتعالى على بصيرة وعلى كتاب وسنّة، وإذا فرض الله عليك البلاء من غير طلب منك ولا سؤال له، فإن الله عز وجل يعينك ويثبتك

ومعناه: أنك قدمت العقل على أمر الله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله قد ذكر أن أهل الإيمان إيمانهم في قلوبهم، ليس في عقولهم، قال الله تعالى: الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] البقرة:١-٣] والغيب ما لا يدركه العقل! فنحن آمنّا بالله رغم أننا لم نره، ولكنه أخبرنا عن نفسه في كتابه، وأخبرتنا عنه رسله في جميع الرسالات،

ابتلاء النعم

المؤمنون: إن مما ينبغي أن يدركه كل مؤمن أنه مكلف ومطالب أن يقوم بواجب وأمان حمل هذا الدين وتبليغه ونشره، كل بوسعه وعلى قدر جهده وطاقته وعلمه ومكانته التي أعطاه الله إياها، فالأب مؤتمن على من يعول من الأبناء والزوجات والأقارب، والمعلم مؤتمن على طلابه، والمدير مؤتمن على أفراد إدارته، فانه لن يقوم بفكاك رقبتك أيها العبد يوم القيامة إلا ما قدمت تجاه من اؤتمنت عليهم.

فيا من احتمل هذه الأمانة قل لي بربك من تراه يقوم مقامك ويخلصك من ثقلك، وكل إنسان يسعى لفكاك نفسه وتخليص رقبته من الأثقال، ثم ليعلم أن من يأنس في نفسه قدرة على الحفظ أو التفقه أو الدعوة أو الإصلاح من خلال منبر أو موقع أو مسئولية أنه ينبغي أن لا يتخلى عنهاإيثاراً للسلامة أو طلباً للعاجل أو انكفاء على نفسه، بل عليه أن يبلغ دين رب العالمين وأن ينجو من لجام النار المتوعد به من كتم علماً.

واعلموا عباد الله أن كل نعمة منحها الله لعبده هي ابتلاء يسأل عنها يوم القيامة ،ولكن المشكلة أن الناس يدركون النعم المادية كالمال والولد والمنصب وغيرها، ولا يكادون يدركون النعم غير المادية كالذكاء والمواهب الجسمية والقدرات النفسية.

فالغني مثلا يعلم أنه مطالب بالإنفاق في سبل الخير بما لا يطالب به الفقير، ولكن القوي لا يدرك أن في قوة جسمه حقاً للضعيف والكل، وقل مثل ذلك في البصير مع الأعمى، والصحيح مع المريض. . وكم من الناس من يستخدمون عقولهم التي منحوها لنصرة الحق والدفاع عنه،

وكم من الناس من يوجه نعمة الفصاحة والبيان التي أوتيها إن كان باللسان وإن كان بالبنان للدعوة إلى الإسلام، وفضح أعدائه.

أَو يظن أحد أن حساب الغني يوم القيامة كحساب الفقير؟ أو أن حساب الذكي كحساب الغبي والبليد؟ أو حساب الفصيح كحساب العيي؟ أو حساب الحافظ كحساب من ينسى؟ أو حساب الشجاع كحساب الجبان؟

إنه لمختلف جداً، لا يستويان، وإن قال قائل: على قدر أهل العزم تأتي العزائم، فهذا بجهدي وبذلي، وكلٌ يستطيع أن يصل إلى ما وصلت إليه من منح الله ونعمه، فنقول: صحيح إن الاجتهاد مطلوب، وقد أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) فبهذا يطلب البذل وتقر النتيجة التي يهبها الله لعباده بتقديره وتدبيره ولا يعلم ذلك التدبير إلا مدبره عز وجل.

ويعلم ذلك عباد الله لمن **تدبر قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [الأعراف:١٦٥].**

فلنقف مع هذه الآية العظيمةنستخرج منها دروساً وحقائق:

<u>فأولها:</u> جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ، فجنس البشر خلفاء استخلفهم الله في الأرض لينظر كيف يعملون، وأصل وجودهم فيها هو لهذا، وهو قدر يشترك فيه جميع المكلفين.

<u>والحقيقة الثانية:</u> وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، هكذا درجات، لتشمل جميع أنواع التمايز والاختلاف والتفاوت بين الناس، في أموالهم أو أجسامهم أو عقولهم أو ملكاتهم أو مواقعهم ومناصبهم ومسئولياتهم .... وهذه سنة إلهية محكمة **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ [الزخرف:٣٢].**

<u>والحقيقة الثالثة:</u>لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَاءاتَاكُم، فهذه الدرجات على اختلافها منن ومنح هي لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءاتَاكُم [المائدة:٤٨]. فكل ما رزقكم الله من المنن الظاهرة أو الخفية فإنما ليبلوكم بها، هل تنجحون في تسخيرها للإسلام؟ أم تضيعونها هدراً؟ أمتجعلونها حرباً في صدور المؤمنين؟.

<u>والحقيقة الرابعة:</u>إِنَّ رَبَّكَلَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [الأعراف:١٦٧]. فإذا استثمر العبد ما منحه الله في معصيته وتكذيب رسله أسرعت إليه العقوبات في الدنيا والآخرة، وإذا بذل ما يملكه في سبيل الله تجاوز الله ما يحدث منه من خطأ وسهو وغفلة وتقصير، لأنه غفور رحيم.

<u>الابتلاء بالمعاصي</u>

عباد الله، إليكم هذه القصة التي وّقها لنا ربنا في كتابه العزيز؛ لنقف معها ونتدبّرها، فإن القصص في القرآن ما قصّها الله إلا للعبرة والتفكر، فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف:١٧٦]،

يقول الله تعالى في سورة الأعراف: **وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا**

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [الأعراف:١٦٣-١٦٦].
ذكر ابن كثير وغيره عن ابن عباس أن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت، فعظموه وتركوا ما أمِروا به، فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحلّ لهم في غيره، وكانوا في قرية حاضرة البحر يقال لها: أيلة بين مدين والطور، فحرم عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها، فكانوا إذا كان السبت أقبلت عليهم إلى ساحل البحر شُرَّعا ظاهرة، حتى إنها لتخرج خراطيمها من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمت مقل البحر كشأن الأسماك، فلم ير منها شيء.
فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد، فعمد رجل منهم فأخذ حوتا سرّا يوم السبت، فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتدا في الساحل، فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أي: إني لم آخذه يوم السبت، فانطلق به فأكله ولعله شواه، فوجد الناس رائحته، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، فوجد الناس ريح الحيتان، فتتبّعوا حتى عثروا على صنيع ذلك الرجل، ففعلوا كما فعل، وصنعوا ذلك سرا زمنا طويلا، فلم يعجّل الله عليهم العقوبة، حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق،
فقال لهم طائفة منهم من أهل البقيّة: وَيحَكم اتقوا الله، ونهوهم عما كانوا يصنعون، فأجابوهم: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، فصاحوا فيهم: إنما صيدكم يومَ وثقتموه،
فقالت طائفة ثالثة قد سكتوا عن النهي والإنكار قالوا للطائفة الناهية الواعظة: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أي: إنهم ارتكبوا جرما عظيما قد نهاهم الله عنه، وسنة الله فيمن خالف أمره معروفة،

فقالوا:مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أي: إعذارا إلى الله وقياما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي: لعلهم يذكرون ويتوبون ويقلعون عن معصيتهم.
فلما أبوا وبغوا قال البقية: والله لا نساكِنكم، فقسموا القرية بجدار، وجعلوا لهم بابا، وللمعتدين بابا آخر، فبينما هم على ذلك أصبحت ذات يوم البقية في أسواقها ومساجدها ولم يروا المعتدين، فذهبوا ينظرونهم في قريتهم وحصنهم فإذا هم يتعادون ويثِب بعضهم على بعض قردة لهم أذناب، ففتحوا عليهم الباب فانتشروا في الأرض، فصار الأنسيّ لا يعرف نَسبَه من القردة، والقِردة تعرف أنسابها من الأناسي، فتأتي القردة إلى قريبها من الأنس، فتشمّ ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم؟! فتقول برأسها: بلى، وكان عددهم سبعين ألفا، وأنجى الله الذين ينهون عن السوء والمنكر، فمكث المعتدون ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون، ثم أماتهم الله جميعا.
الوقفة الأولى: لقد ابتلى الله أهل تلك القرية بنوع من البلاء قد غفل عنه الكثير من الناس اليوم؛ حيث إن الناس يحسبون الابتلاء نوعين: إما بالخير ورغد العيش، وإما بالشر والمصائب، ويستشهدون بقول الله:وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء:٣٥]، ويجهلون معناها، والحق أن هناك نوعا ثالثا هو أشد الأنواع وأخطرها، وقد رتب الله على من أخفق وخسر فيه عقوبة شديدة، ألا إنه الابتلاء بالمعاصي والفتن، فأولئك القوم قد نهاهم الله عن صيد

السمك يوم السبت، فصار السمك في حقهم في ذلك اليوم معصية وإثما، ثم قربه الله إليهم ويسره لهم ليبتليهم ويختبرهم.
يقول ابن كثير: "ولقد خلق الله القردة والخنازير وسائر خلقه في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابة، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وهي معروفة قبل والله أعلم"، وبهذا يعلم خطأ قول القائل عن اليهود أحفاد القردة والخنازير، والصحيح أن يقال: إخوان القرَدة والخنازير تشبيها لأفعالهم، والله أعلم.

أهمية فقه سُنة الابتلاء

ومما لا شك فيه أن طريق الدعوة إلى الله طريق طويل وشاق ؛ إذ إنه يبدأ منذ أن يعقل الإنسان دوره ووظيفته في هذه الحياة، ولا ينتهي إلا إذا انتهت المسافة التي حددها الله له في هذا السفر - وهي عمره -والتي لا يدري عنها المسافر شيئاً، هذا إذا واصل في هذا الطريق ، ولم يستطل المسافة أو يستصعب السير فيبحث عن طرق أخرى يراها أقصر أو أسهل. وقد يكون فيها هلاكه المحقق!
السمة البارزة لهذا الطريق أنه طريق ابتلاء وامتحان ، طريق محفوف بالمكاره ، يشتد الابتلاء فيه - بشتى صوره - ويكبر كلما أوغل السائر فيه وهو مُصر على التقدم
وهذا التصور يفيدنا في أمور لعل من أهمها :

١- الاستعداد المناسب لطبيعة الطريق

إن من يريد اجتياز هذه الطريق يحتاج إلى استعداد وتهيئة وتربية، تهيئة نفسية تساعد على الاستمرار وعدم التوقف ، وتهيئة علمية تساعد على ضبط المسار وعدم الانحراف.

٢- عدم الوقوع في الفتور الذي يصيب بعض الدعاة

٣- عدم التسرع والاستعجال في تحصيل النتائج

<u>سنة الابتلاء</u>

سأل رجلٌ الإمام الشافعي رحمه الله : يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يبتلى؟
فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة.
فالابتلاء سنة الله التي لا تتخلف.

قال تعالى: تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

وقال تعالى: إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا .

قد يسأل البعض: لم لم يخلق الله الناس على منحًى واحدٍ في الشكل والهيئة والرزق والآجال؟
والجواب لأن الله خلق الدنيا للابتلاء، ولا بد لكي يبتلي أن تحدث الفوارق بين الناس، ليبلو بعضهم ببعض،

قال تعالى: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم {المائدة:٤٨}.

وقال تعالى: ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم {هود:١١٨،١١٩}.
وقال تعالى: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا {الزخرف:٣٢}.

<u>نافذة الابتلاء</u>

إن مشكلة الإنسان أنه ينظر إلى الناس والكون من حوله من نافذة ابتلائه فقط، فإن كان مريضًا لم ير من الناس إلا الصحة، وإن كان فقيرًا لم ير إلا الغنى، وإن كان دميمًا لم ير إلا الحسن، إن فقد ولده نظر إلى من لم يفقد ولده، إن تيتم نظر إلى آباء الاخرين، إن ترملت المرأة نظرت إلى غير الأرامل..

وهكذا، فيستشعر المبتلى أنه وحده الذي يواجه الابتلاء في هذا الكون، ولا يشعر بنعم الله عليه فيزدريها، وفي الحديث: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله" {مسلم ٢٩٦٣}.

فيؤدي به هذا إلى عدم اتهام نفسه الظالمة الجاهلة التي هي منشأ كل شر يصيبه قال تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك {النساء:٧٩}، ولقد ذكر الله تعالى عقوبات الأمم السابقة من آدم إلى آخر وقت، وفي كل ذلك يبين أنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون، وأول من اعترف بذلك أبواهم: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين {الأعراف:٢٣}.

فالعارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة من الله عليه، ومطالعة عيب النفس والعمل، وهذا هو معنى حديث سيد الاستغفار، موضع الشاهد: أبوء لك بنعمتك علي (مشاهدة المنة) وأبوء بذنبي (مطالعة عيب النفس)، فمشاهدة المنة تورث الحب الكامل لله تعالى، ومطالعة عيب النفس تورث الذل التام لله، ومدار العبادة على هاتين القاعدتين: حب كامل، وذل تام.

<u>ولأهل السنة عند المصائب ثلاثة فنون:</u>

١ الصبر .
٢ الدعاء .
٣ انتظار الفرج .

سقيناهمو كأسا سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبرا

وفي الحديث: "من يتصبر يصبره الله..." {مسند أحمد}.

بل قد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأينا مبتلى أن نقول:

الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلقه تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء {الترمذي}.

وأخيرًا: فلنعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت ابتلاء العباد في الدنيا، فإخفاء موعد الموت وساعته: ابتلاء، ليكون الإنسان دائم الحذر، فربما يستدعيه خالقه في أي لحظة لسؤاله عن الأمانة.

وعدم علم الغيب: ابتلاء، وعدم رؤية الجن: ابتلاء، وعدم رؤية الملائكة: ابتلاء، والله لا يُرى إلا في الآخرة تحقيقا للابتلاء.

فلو رأينا الجنة والنار، فلم إذن الرسل؟ ولم الشرائع، ولم الابتلاء، ولماذا إذن يكون المؤمنون بالغيب هم المفلحين.
والله أعلم.

من خلال نصوص الكتاب والسنة على أنه:

أولاً : امتحان وابتلاء:

نعم امتحان وابتلاء، فنحن في قاعة امتحان كبيرة تُمْتحن فيها كل يوم تدعى الحياة، فكل ما فيها امتحان وابتلاء: المال فيها امتحان، والزوجة والأولاد امتحان، والغنى والفقر امتحان، والصحة والمرض امتحان، وكلنا ممتحن في كل ما نملك وفي كل ما يعترينا في هذه الحياة حتى نلقى الله، قال تعالى: {كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ وَنَبلُوكُم بِالشر وَالخَير فِتنَةً وَإِلَينَا تُرجَعُونَ}. [الأنبياء: ٣٥].

فأنت أيها المعافى ممتحن، ولكن ما أحسست أنك في قاعة امتحان حتى ابتُليت، وأنت أيها المريض ممتحن، ولكن ما أحسست أنك في قاعة امتحان حتى شُفيت.

وليس فينا من هو أكبر من أن يمتحن. كما أنه ليس فينا من يملك رفض هذا الامتحان. ولكن فينا من يُمتحن بالبلاء فينجح بالصبر والإيمان والاحتساب، وفينا من يمتحن بالبلاء فيرسب بالجزع والاعتراض على الله -عياذاً بالله.

ورحم الله الفضيل بن عياض حين قال: " الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه ".

ثانياً: قسمة وقدر:

إنَّ الله تعالى قسم بين الناس معايشهم وآجالهم، قال تعالى: { نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم معِيشَتَهُم في الحَياةِ الدنيَا}. [الزخرف: ٣٢]. فالرزق مقسوم، والمرض مقسوم، والعافية مقسومة، وكل شيء في هذه الحياة مقسوم. فارضَ بما قسم الله لك يا عبد الله، ولا تجزع للمرض، ولا تكره القدر، ولا تسب الدهر، فإن الدقائق والثواني والأنفاس كلها بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، فيُمرض من يشاء، ويعافي من يشاء، ويبتلي من يشاء{أَلاَ لَهُ الخَلقُ وَالأمرُ}. [الأعراف: ٥٤]. - بلى سبحانه وتعالى.

لما فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين الحكمةَ الشرعية للبلاء، كانوا أفضل منَّا حالاً معه، وضربوا لنا أروع المثل في الصبر والعزاء والاحتساب، وإليك أمثلة على ذلك:

١- **يروى عن عمر الفاروق** رضي الله عنه أنَّه كان يكثر من حمد الله على البلاء، فلما سُئِل عن ذلك قال: "ما أُصبت ببلاءٍ إلاَّ كان لله عليَّ فيه أربع نعم: أنَّه لم يكن في ديني، وأنَّه لم يكن أكبر منه، وأنِّي لم أُحْرَم الرضا والصبر، وأنِّي أرجو ثواب الله تعالى عليه".

٢-**أصيب عروة بن الزبير** رحمه الله في قدمه؛ فقرر الأطباء قطعها، فقطعت. فما زاد على أن قال: "اللهم لك الحمد فإن أخذت فقد أبقيت، وإن ابتليت فقد عافيت". فلما كان من الغد ركلت بغلةٌ ابنه محمداً -وهو أحب أبنائه إليه، وكان شاباً يافعاً - فمات من حينه، فجاءه الخبر بموته، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى، فلما سُئِل عن ذلك قال: "كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة، وكان لي سبعةٌ من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة. وعافاني فيما مضى من حياتي ثم ابتلاني اليوم بما ترون، أفلا أحمده على ذلك ؟!".

هكذا كانوا رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم في فسيح جناته. فهلاَّ تشبَّهنا بهم.
فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبُّه بالكرام فلاح

وختاماً أخي الحبيب: لا تنس:

لا تنس أن تبحث في البلاء عن الأجر ولا سبيل إليه إلاَّ بالصبر، ولا سبيل إلى الصبر إلاَّ بعزيمةٍ إيمانيةٍ وإرادةٍ قوية.

ولا تنس ذكر الله تعالى شكراً على العطاء، وصبراً على البلاء وليكن ذلك إخلاصاً وخفية بينك وبين ربك.

ولا تنس أنَّ الله تعالى يراك، ويعلم ما بك، وأنَّه أرحم بك من نفسك ومن الناس أجمعين، فلا تشكونَّ إلاَّ إليه !. واعلم بأنَّك:

إذا شكوتَ إلى ابن آدم فكأنَّما تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحم

ولا تنس إذا أُصبت بأمرٍ عارضٍ، أن تحمد الله أنَّك لم تُصَب بعرضٍ أشدَّ منه، وأنَّه وإن ابتلاك فقد عافاك، وإن أخذ منك فقد أعطاك.

ولا تنس أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنَّ عِظم الجزاء من عظم البلاء، وأنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فاصبر واحتسب، ودع الجزع فإنَّه لن يفيدكَ شيئاً، وإنما سيضاعف مصيبتك، ويفوِّت عليك الأجر، ويعرضك للإثم.

ولا تنس أنَّه مهما بلغ مصابك، فلن يبلغ مصاب الأمة جمعاء بفقد حبيبها عليه الصلاة والسلام، فتعزَّ بذلك، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنَّها من أعظم المصائب" [رواه البيهقي وصححه الألباني].

ولا تنس إذا أصابتك أيُّ مصيبةٍ أن تقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهم أجرْني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها. فإنَّك إن قلت ذلك؛ أجارك الله في مصيبتك، وخلفها عليك بخير.

ولا تنس أن لا يأس من روح الله مهما بلغ بك البلاء، فإنَّ الله سبحانه يقول: {فَإِن مَعَ العُسر يُسراً (٥) إِن مَعَ العُسر يُسراً}. [الشرح: ٥-٦]. ولن يغلب عسرٌ يسرين، كما قال عمر الفاروق رضي الله عنه. ثم حذار أن تنسى فضل الله عليك إذا عادت إليك العافية، فتكون ممن قال الله عنه: {وَإِذَا مَس الإِنسانَ ضُر دَعَا رَبهُ مُنِيباً إِلَيهِ ثُم إِذَا خَولَهُ نِعمَةً منهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدعُو إِلَيهِ مِن قَبلُ...} الآية [الزمر: ٨].

ثم لا تنس أن البلاء يذكرك بساعةٍ آتيةٍ لا مفر منها، وأجلٍ قريبٍ لا ريب فيه، وأنَّ الحياة الدنيا ليست دار مقرٍ. فاعمل لآخرتك؛ لتجد الحياة التي لا منغِّص لها.

وقبل الوداع أذكِّرك وأُبشرك بما بدأت به، وهو قول الحق جلَّ وعلا: {وَلَنَبلُوَنكم بِشَيء منَ الخَوف وَالجُوعِ وَنَقصٍ منَ الأَموَالِ وَالأنفُس وَالثمَراتِ وَبَشر الصابِرِينَ (١٥٥) الذِينَ إِذَا أَصَابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إِنا لِلهِ وَإِنا إِلَيهِ راجِعونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيهِم صَلَوَاتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ}. [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وأخيراً، أسأل الله أن يجعلنا جميعاً من الصابرين على البلاء.. وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ابتلاء قلة المطر

لكن القلوب عن آيات الله غافلة، والنفوس عن شواهد قدرته لاهية، والعقول عن دلائل عظمته شاردة، إلا من رحم الله، فأين المتفكرون؟ وأين المتأملون؟ أين أولو الألباب؟ وأين أهل البصائر واللباب عن التفكير في عظمة رب الأرباب، وقدرة مسبب الأسباب، وخالق الناس من تراب؟ ليقودهم ذلك إلى توحيد ربهم جل وعلا، وإخلاص الدين له، وإفراده بالعبادة دون سواه.

إخوة الإسلام، هنالك نعمة من نعم الله، وآية من آياته، لا غنى للناس عنها، هي مادة حياتهم، وعنصر نمائهم، وسبب بقائهم، منها يشربون ويسقون، ويحرثون ويزرعون، ويرتوون ويأكلون، تلكم ـ يا رعاكم الله ـ هي نعمة الماء والمطر، وآية الغيث والقطر.

إخوة الإيمان، الماء أصل النماء، الفائق على الهواء والغذاء والكساء والدواء، هو عنصر الحياة وسبب البقاء، من الذي أنشأه من عناصره إلا الله؟! ومن الذي أنزله من سحائبه إلا الله؟! **أَفَرَءيْتُمُ ٱلْمَاء ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ أَءنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ [المعارج:٦٨ـ٧٠**

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاء كُلَّ شَىْء حَىّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ [الأنبياء:٣٠]،

وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرّيَاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاء مَاء طَهُوراً لّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً [الفرقان:٤٨ـ٥٠].

تلك كوكبة من آيات كتاب الله، تدل على عظمة هذه النعمة، وأهمية تلكم المنة.

أمة الإسلام، إنه لا يقدر هذه النعمة قدرها إلا من حُرمها، تأمَّلوا في أحوال أهل الفقر والفاقة، التي تغلب على حياة من ابتلوا بالجدْب والقحط والجفاف والمجاعة، سائلوا أهل المزارع والمواشي، في أي حالة من الضر يعيشون، لقلة الأمطار، وغور المياه، وهي سبب خصب مزارعهم وحياة بهائمهم، أرأيتم يا من تنعمون بوفرة المياه، ماذا لو حبس الماء عنكم ومنعتم إياه؟ هل تصلح لكم حال؟! وهل يقر لكم قرار؟! وهل تدوم لكم حياة؟!

قُلْ أَرَءيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ [الملك:٣٠]، إنه لا منجأ ولا ملجأ من الله إلا إليه.

الزلازل.. ظاهرة طبيعية ورسالة ربانية

يؤكد الدكتور محمد المهدي أن زلزال جنوب شرق آسيا الأخير والمروع الذي مات فيه آلاف من الناس، هذا الزلزال أصاب منطقة انتشر فيها ما يسمى بالسياحة الجنسية حيث هرع الأوروبيون بالآلاف بحثا عن المتعة الجنسية الخاصة التي ربما تمنع قوانين بلادهم ممارستها

مثل: مواقعة الأطفال الذكور أو الفتيات الصغار، وقد قام بعض الآسيويين بخطف الأطفال لاستخدامهم في هذا الغرض، كما قام بعض الناس ببيع أو تأجير أطفالهم وبناتهم للقوادين لاستخدامهم في هذه التجارة الآثمة والمخالفة للأعراف والقوانين والأخلاق كما هي مخالفة لكل الأديان السماوية. وهذا لا يعني أن كل من أصابهم الزلزال موصومون بهذا الأمر، ولكن حين يحل الانتقام أو ينزل البلاء تكون له أحيانا صفة العموم فيأخذ في طريقه أناسا لم يشاركوا في الإفساد بشكل مباشر إما لسكوتهم عن ذلك أو لابتلائهم وتعويضهم حسب حكمة الله ومشيئته التي لا يعلمها إلا هو، وهذا لا يعني أن من أصيبوا بالزلزال هم أسوأ البشر ولا يعني أخذ موقف سلبي شامت أو متشف منهم، فكل هذا ضد مبادئ الرحمة والشفقة، ومن يفعله يكون أشبه بالطبيب الذي ينظر إلى المريض متشفيا لأن المريض لم يتبع نصائحه العلاجية أو لم يكن عند توقعاته من ناحية الحمية الغذائية.

كما أن الرسالة المقصودة بالزلزال ليست قاصرة على من أصابهم فقط بل هي للناس عامة.

والقرآن الكريم حافل بالآيات الدالة على أن الله يعاقب عباده إذا تجبروا أو أفسدوا بشتى القوى والظواهر الطبيعية (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)، ونذكر من هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ* وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ* وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) [القمر ١ - ٥]،

وقوله تعالى(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) [الحاقة ٥ - ٨]،

وقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) [الفيل ١ - ٥].

والمصيبة تقع فتكون للمؤمنين ابتلاء (لتكفير ذنب أو رفع درجة) وتكون للكافر انتقام على ما جنت يداه ولكي تستريح الأرض ويستريح الناس من فساده.

ماذا يضير البشرية حين تعتقد بأن الزلزال - وهو ظاهرة طبيعية جيولوجية تنشأ عن حركة طبقات الأرض - له جانب آخر غيبي، خاصة أن هذا الجانب الآخر يستلزم صلاح الإنسان على وجه الأرض، وأن هذا الصلاح يعتبر جهدا وقائيا يمكن أن يقلل من حدوث الزلازل خاصة أنه لا توجد حتى الآن أي طريقة تنبيئية أو وقائية من الزلازل؟

<u>الدعاء أحد أسباب رفع البلاء</u>

إن الناظر في كتاب الله المسطور -القرآن الكريم- وكتاب الله المنظور -الكون الفسيح- لينتهي إلى حقيقة مهمة وهي أن ثمة علاقة طردية بين ارتكاب الذنوب والغرق في المعاصي، من جهة، وبين ما يحل بالناس -فرادى وجماعات- من فتن ومحن وبلايا. وهذا ما يصدقه قوله تعالى:"وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ"، وقوله سبحانه: "ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ".

إن هناك علاقة وثيقة -بل طردية- بين الزلازل والبراكين -بل غالب النوائب والابتلاءات- وبين الظلم والإفساد في الأرض وارتكاب الذنوب والموبقات، فإن البلاء إذا جاء فإنه يأخذ

الصالح والطالح، البر والفاجر، المؤمن والكافر، وإنه كما يكون إهلاكا للجبارين والمجرمين فإنه يأتي ابتلاء للمؤمنين

وما حدث رسالة للظالمين، مفادها أن الله ينبهكم أيها الظالمون، وأن ما يحدث من الهلاك هو بسبب ما ترتكبوه بأيديكم، قال تعالى: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ".

في الزلازل دعوة للتوبة

أن هذه الآيات تؤثر أكثر بكثير من العظات والخطب والكلمات؛ فهي تثبت القلب على الإيمان،

وتدفع الإنسان إلى التوبة والعودة إلى الله تعالى، وتذكر الناس بالأمم السابقة التي أهلكها الله تعالى بسبب ذنوبها، وبسبب عدم الإصلاح؛ حيث إن هذه الزلازل لا تفرق بين صالح وطالح، ولكنها تعم الجميع؛ فعقاب الله تعالى لا يرفع إلا بالإصلاح، أما الصلاح وحده فغير كاف لرفع بلاء الله تعالى عن عباده، وقد قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}. فلعل ما حدث يكون دعوة للإصلاح في الأرض جميعا، وأن نعود إلى الله تعالى.

الذنوب.. زلازل القلوب

كثير من الناس لا يكادون يعرفون من المعاصي والذنوب إلا ما يدركه الحس، وما يتعلق بالجوارح الظاهرة، من معاصي الأيدي والأرجل، والأعين والآذان، والألسنة والأنوف، ونحوها مما يتصل بشهوتي البطن والفرج، والغرائز الدنيا للإنسان.

ولا يكاد يخطر ببال هؤلاء: الذنوب والمعاصي الأخرى التي تتعلق بالقلوب والأفئدة، والتي لا تدخل -فيما تراه الأبصار- أو تسمعه الآذان، أو تلمسه الأيدي، أو تشمه الأنوف، أو تتذوقه الألسنة.

معاصي الجوارح

في القسم الأول

تقع معاصي العين من النظر إلى ما حرم الله من العورات، ومن النساء غير المحارم.

ومعاصي الأذن من الاستماع إلى ما حرم الله من آفات اللسان؛ فالمستمع شريك المتكلم.

ومعاصي اللسان من الكلام بما حرم الله من الآفات التي بلغ بها الإمام الغزالي عشرين آفة؛ من الكذب والغيبة والنميمة والسخرية واليمين الفاجرة والوعد الكاذب والخوض في الباطل والكلام فيما لا يعني وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وشهادة الزور والنياحة واللعن والسب... إلخ.

ومعاصي اليد من البطش والضرب بغير حق، والقتل، ومصافحة أعداء الله، وكتابة ما لا يجوز كتابته، مما يروج الباطل أو يشيع الفاحشة، وينشر الفساد.

ومعاصي الرجل من المشي إلى معصية الله، وإلى زيارة ظالم أو فاجر، ومن السفر في إثم وعدوان.

ومعاصي الفرج من الزنى وعمل قوم لوط، وإتيان امرأته في دبرها، أو في المحيض، وهو أذى كما قال الله.

ومعاصي البطن من الأكل والشرب مما حرم الله، مثل أكل الخنزير، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وتناول التبغ (التدخين) وأكل المال الحرام من الربا، أو الميسر، أو بيع المحرمات، أو الاحتكار، أو قبول الرشوة أو غيرها من وسائل أكل مال الناس بالباطل.

المعاصي المهلكة

وهذه الأعمال كلها محرمات ومعاص معلومة، وبعضها يعتبر من عظائم الآثام، وكبائر الذنوب، ولكنها جميعًا تدخل في المعاصي الظاهرة، أو معاصي الجوارح، أو ظاهر الإثم، والمسلم مأمور أن يجتنب ظاهر الإثم وباطنه جميعًا، كما قال تعالى: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ} (الأنعام: ١٢٠).

بل إن المعاصي الباطنة أشد خطرًا من المعاصي الظاهرة، وبعبارة أخرى: معاصي القلوب أشد خطرًا من معاصي الجوارح، كما أن طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح؛ حتى إن أعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا بعمل قلبي، وهو النيِّة والإخلاص.

ونقصد بمعاصي القلوب ما كانت آلته القلب؛ مثل: الكبر، والعجب، والغرور، والرياء، والشح، وحب الدنيا، وحب المال والجاه، والحسد، والبغضاء، والغضب... ونحوها مما سماه الإمام الغزالي في "إحيائه": المهلكات، أخذًا من الحديث الشريف: "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه".

وإنما اشتد خطر هذه المعاصي والذنوب لعدة أمور:

رابعًا: وهذه ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس لشدة خطرها، كما في قوله عليه الصلاة والسلام:"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"

وقوله: "دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين"

وقوله: "لا تغضب" وكررها ثلاثًا، لمن قال له: أوصني (رَواهُ البُخاريُّ عن أبي هريرة).

وقوله في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه"

، وقوله: "إياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم"

الذنوب.. زلازل القلوب

امن منطلق قوله صلى الله عليه وسلم "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"، وفي ضوء قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" تتجه العقول، وتهفو القلوب والنفوس؛ لمعرفة مسالك هذه التوبة ومتطلباتها، ولإدراك سبلها ووسائلها.

وكلما كانت مخاطر الانزلاق والانحراف كبيرة وكثيرة، وجب أن يكون اندفاع المؤمن قويًا في اتجاه البحث والتنقيب عن أسباب الوقاية والتحصن، وعوامل التطهر والتنظف؛ لضمان تزكية النفس وتصفيتها، ورجاء تخلصها من أوزارها وذنوبها.

الابتلاء بالأمراض

عباد الله، العاقل الحصيف يجب عليه حتما أن يوقن، أن الأشياء كلها قد فرغ منها، وأن الله سبحانه، قدر صغيرها وكبيرها، وعلم ما كان وما سيكون وأن لو كان كيف يكون، وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْء [الأنعام:٣٨]. قال رسول الله : ((أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) [رواه أبو داود]

فالمقادير عباد الله كائنة لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، وإذا ما قدر على المرء حال شدة، وتكنّظته الأمور، فيجب عليه حينئذ أن يتزر بإزار له طرفان: أحدهما الصبر، والآخر الرضا، ليستوفي كامل الأجر لفعله ذلك، فكم من شدة قد صعبت، وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثم فرج عنها بالسهل في أقل من لحظة.

حكم المرض وفوائده:

استخراج عبودية الضرّاء وهي الصبر:

إذا كان المرء مؤمناً حقاً فإن كل أمره خير، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له "

تكفير الذنوب والسيئات:

مرضك أيها المريض سبب في تكفير خطاياك التي اقترفتها بقلبك وسمعك وبصرك ولسانك، وسائر جوارحك.

فإن المرض قد يكون عقوبة على ذنب وقع من العبد، كما قال - تعالى - {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}.

أسباب الابتلاء وأنواعه

يُصيبُ اللهُ - جل وعلا - أمةَ الإسلام بما يصيبُها بسببِ ذنوبها تارةً، وابتلاءً واختبارًا تارةً أخرى.

يُصيب اللهُ - جل وعلا -الأُممَ غيرَ المسلمةِ بما يصيبُها إما عقوبةً لما هي عليه من مخالفةٍ لأمر الله - جل وعلا - وإما لتكون عبرةً لمن اعْتَبَرَ، وإما لتكونَ ابتلاءً للناس، هل يَنْجُوْنَ أو لا يَنْجُوْنَ؟ قال اللهُ - تعالى -: {فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

وهذا في العقوباتِ التي أُصِيبَتْ بها الأُممُ، العقوباتِ الاستئصاليةِ العامةِ، والعقوباتِ التي يكونُ فيها نكايةٌ، أو يكونُ فيها إصابةٌ لهم.

تُصاب الأمةُ بأن يبتليَها اللهُ بالتفرُّق فِرَقًا، بأن تكونَ أحزابًا وشِيَعًا؛ لأنها تركتْ أمرَ الله - جل وعلا -.

تُصاب الأمةُ بالابتلاء بسببِ بَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وعدمِ رجوعِهم إلى العلمِ العظيم الذي أنزله اللهُ - جل وعلا -. قال الله - تعالى - فيما قصَّه علينا من خبر الأُمَمِ الذين مَضَوْا قبلَنا: (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ). وقال - سبحانه -: (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ). عندَ أهلِ الكتابِ العلمُ النافعُ، ولكن تَفَرَّقُوا بسببِ بَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وعدمِ رجوعِهم إلى هذا العلمِ العظيم الذي أنزلَه اللهُ - جل وعلا -، تَفَرَّقُوا في العملِ، وتركُوا بعضَه.

يُصاب قومٌ بالابتلاءِ بسببِ وجودِ زيغٍ في قلبهم، فَيَتَّبِعُونَ المتشابِه. قال اللهُ - جل وعلا - في شأنهم: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ). فليس وجودُ المتشابه سببًا في الزيغ، ولكنَّ الزيغَ موجودٌ أولاً في النفوس. فاللهُ - سبحانَهُ - أثبتَ وجودَ الزيغِ في القلوبِ أوَّلاً، ثم اتباعَ المتشابه ثانيًا، وقد جاءت (الفاءُ) في قوله - جل وعلا - : (فَيَتَّبِعُونَ) لإفادةِ الترتيبِ والتعقيبِ. ففي النصوصِ ما يَشْتَبِهُ، لكن مَنْ في قلبه زيغٌ يذهبُ إلى النصِّ فيستدلُ به على زَيْغِهِ، وليس له فيه مُسْتَمْسَكٌ في الحقيقةِ، لكن وَجَدَ الزيغَ فذهبَ يتلمَّسُ له. وهذا هو الذي ابْتُلِيَ به الناسُ - أي: الخوارجُ - في زمن الصحابةِ، وحصلتْ في زمن التابعينَ فتنٌ كثيرةٌ تَسَبَّبَ عنها القتالُ والملاحمُ مما هو معلومٌ.

فوائد الابتلاء:

الأمةُ الإسلاميةُ والمسلمون يُبْتَلَوْنَ.

وفائدةُ هذا الابتلاءِ معرفةُ مَنْ يَرْجِعُ فيه من الأمةِ إلى أمرِ اللهِ - جل وعلا - معتصِمًا بالله، متجرِّدًا، متابعًا لهدي السلفِ ممّن لا يرجعُ، وقد أصابته الفتنةُ، قلّتْ أو كثُرَتْ.

قيل للحسن: يأبا سعيد، من أين أُتي هذا الخلق؟ قال:من قلّة الرضا عن الله، قيل: ومن أين أتي قلّة الرضا عن الله؟ قال: مِن قلة المعرفة بالله.

ولمّا جيء بسعيد بن جبير إلى الحجّاج ليقتلَه بكى رجلٌ فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: لِما أصابك، قال سعيد: فلا تبكِ إذًا؛ لقد كان في عِلم الله أن يكونَ هذا الأمر ثمّ تلا: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا] الحديد:٢٢]

وما يصيب الإنسانَ إن كان يسرّه فهو نعمةٌ بيّنة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة أيضًا؛ إمّا مِن جهة أنه يكفِّر خطاياه ويُثاب بالصّبر عليه، وإمّا من جهة أنّ فيه حكمةً ورحمة لا يعلمها إلا الله، وَعَسَى أَن تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوْا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ البقرة:٢١٦

أيّهاالنّاس، إنّ البشرَ قاطبةً مجمعون إجماعًا لا خِداع فيه على أنّ الصحّة تاجٌ فوق رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المَرضى، وأنّ الصحّة والعافية نعمةٌ مغبون فيها كثيرٌ من النّاس.

الأمراض والأسقامُ ـ عبادَ الله ـ أدواء منتشرةٌ انتشارَ النّار في يابِس الحطَب، لا ينفكّ منها عَصر، ولا يستقلّ عنها مِصر، ولا يسلم منها بشرٌ ولا يكاد إلاّ من رحم الله؛ إذ كلّها أعراض

متوقّعة، وهيهات هيهاتَ أن تخلوَ الحياة منها، وإذا لم يصَب أحدٌ بسيلِها الطامّ ضربَه رشاشها المتناثرُ هنا أو هناك، وثمانيةٌ لا بدّ منها أن تمرَّ على الفتى، ولا بدّ أن تجريَ عليه هذه الثمانية:
سرور وهمٌّ اجتماع وفرقة ويسر وعسرٌ ثمّ سقم وعافية.

الأمراضُ والأسقام هي وإن كانت ذاتَ مرارةٍ وثقل واشتدادٍ وعرك إلا أنّ الباريَ جلّ شأنه جعل لها حكمًا وفوائدَ كثيرة، علمها من علمها وجهلها من جهلها،

ولقد حدّث ابن القيم رحمه الله عن نفسه في كتابه شِفاء العليل أنّه أحصى ما للأمراض مِن فوائدَ وحكم، فزادت على مائة فائدة، وقال أيضًا: "انتفاعُ القلب والرّوح بالآلام والأمراضِ أمر لا يحسّ به إلا مَن فيه حياة، فصحّة القلوب والأرواح موقوفة على آلام الأبدان ومشاقها"

الابتلاءَ بالأمراض والأسقام

قد يكون هبةً من الله ورحمة، ليكفّر بها الخطايا ويرفعَ بها الدرجات، فلقد استأذنتِ الحمّى على النبيّ فقال: ((من هذه؟)) قالت :أمّ ملدم وهي كنية الحمى، فأمر بها إلى أهل قباء فلقوا مِنها ما يعلم الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: ((ما شئتم؟ إن شئتم أن أدعوَ الله لكم فيكشفها عنكم، وإن شئتم أن تكونَ لكم طهورًا))، قالوا: يا رسول الله، أوَتفعل؟ قال: ((نعم))، قالوا: فدَعهاوقال :
((ما مِن مسلمٍ يصيبه أذى من مرض فما سواه إلاّ حطّ الله به سيّئاته كما تحطّ الشجرة ورقَها))

وقال رجل لرسول الله : أرأيتَ هذه الأمراضَ التي تصيبنا، ما لنا بها؟ قال :كفارات ولقد عادَ رسول الله مريضًا من وَعكٍ كان به، فقال صلوات الله وسلامه عليه: ((أبشِر فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: هي ناري أسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكونَ حظَّه من النار في الآخرة))
ألا فاعلموا أنّ رسولَ الله دخل على أمّ السائب فقال: ((ما لك ـ يا أمّ السائب ـ تُزَفزفين؟))
قالت: الحمّى لا بارك الله فيها، فقال: ((لا تسبِّي الحمّى، فإنّها تذهِب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبثَ الحديد)) رواه مسلم(١١)[١١]. ولقد أصابَ أحدَ السلف مرضٌ في قدمه، فلم يتوجّع ولم يتأوّه، بل ابتسمَ واسترجع، فقيل له: يصيبك هذا ولا تتوجّع؟! فقال: إنّ حلاوةَ ثوابه أنستني مرارةَ وجعه.

فلا يُظنّ ممّا سبق أنّ المرضَ مطلَب منشود، لا لا أن يسألَ الله أن ينزلَ به المرض، فلقد قال رسول الله : ((سلوا اللهَ العفوَ والعافية، فإنّ أحدًا لم يعطَ بعد اليقين خيرًا من العافية)) وقال مطرّف: "لأن أُعافى فأشكر أحبُّ إليّ من أن أبتلى فأصبر".[
ومِن هنا نعلمُ جيّدًا أنّ المرض ليس مقصودًا لذاته، وإنّما لما يفضي إليه من الصّبر والاحتساب وحُسن المثوبة وحمدِ المنعم على كلّ حال

ومِن هذا المنطلَق ـ عباد الله ـ اجتمع الكافر والمسلم والبرُّ والفاجر في مصيبة المرض على حدّ سواء، وافترقا في الثمرةِ والعاقبة،

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنّكم ترونَ الكافرَ من أصحِّ الناس جسمًا وأمرضهم قلبًا، وتلقون المؤمن من أصحِّ النّاس قلبًا وأمرضِهم جسمًا، وايْمُ الله لو مرضَت قلوبُكم وصحَّت أجسامكم لكنتم أهونَ على الله مِن الجعلان). ودخل سلمان الفارسيّ رضي الله عنه على مريضٍ يعوده فقال له: (أبشِر فإنّ مرضَ المؤمن يجعله الله له كفّارة ومستعتبًا، وإنّ مرضَ الفاجر كالبعير عقله أهلُه ثمّ أرسلوه، فلا يدري لم عُقل ولم أرسِل).[

وكثيرًا ما تكون الآلام طهورًا يسوقه الله بحكمتِه إلى المؤمنين الصّادقين لينزعَ منهم ما يستهوي ألبابَهم مِن متاعِ الدنيا، فلا يطول انخداعُهم بها أو ركونهم إليها، ورُبَّ ضارّة نافعة، بل كم من مِحنة محويّة في طيِّها مِنَح ورحماتٌ مطويّة.
اللهمّ إنّا نسألك العفوَ والعافية والمعافاةَ الدائمةَ في الدين والدنيا والآخرة.

اعلموا أنّ ثمّةَ أمورًا يجب أن يعرفَها المرضى.
فمنها البشرَى لكلّ مريض أعاقه مرضُه عن القيام بالسّنن والنوافل التي كان يواظِب عليها إبّان صحّته بأنّها مكتوبة له لا يضيع أجرُها، فقد قال رسول الله : ((إذا مرض العبد أو سافر كتِب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا)) رواه البخاري(٢٥)
كما ينبغي التنبّه إلى ما يقع فيه بعضُ المصابين ببعض الأمراض لا سيّما النفسية منها من العلاج بالمعازف والغِناء الذي حرّمهالله ورسوله، فإنّ شفاء الأمّة لم يكن قطّ فيما حرّمه الله عليها، ومعلومٌ أنّ الأدوية ثلاثة: دواء مشروع كالرّقية والعسل وزمزم ونحو ذلك، ودواء مباح وهو ما لم يحرّمه الشارع ولم يأمر به، وأدوية محرّمة لا يجوز التداوي بها، وإنّ لكل داء دواءً، علمه من علمه وجهله من جهله.

ثمّ ليعلم المرضى أنّه لا ينبغي التهاونُ بالصلاة حالَ المرض، فيجب أن تصلَّى في وقتها إن استطاع، فإن لم يستطِع جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء رخصةً من الشارع الحكيم. كما يجب عليه أن يتطهّر للصلاة التطهّرَ الشرعي، فإن لم يستطع فإنّه يتيمّم، فإن لم يستطع فإنّه يصلّي على حاله، ولا يدع الصلاة تفوت عن وقتها؛ لأنّ الله يقول:فَاتَّقُوْا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:١٦]، ويقول سبحانه:لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:٢٣٣.[

ثمّ ليعلمِ المرضى أنّ الأنين والتوجّع له حالتان: الأولى أنين شكوى فيكرَه، والثانية أنينُ استراحة وتفريج فإنّه لايكره، بذلك قال ابن القيّم وغيره من المحقّقين.

فأين أنت؛ والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيعَ يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذُبِحَ السيد الحصور يحي، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم... وتزهى أنت باللهو واللعب؟!

الابتلاء بالأمراض

الابتلاء سنّة ربّانية ماضية، هي مِن مقتضيات حكمةِ الله - سبحانه - وعدله، متمِّثلاً وقعُه بجلاء في الفقر والغنى والصحّة والمرض والخوف والأمن والنقص والكثرة، بل وفي كلّ ما نحبّ ونكرَه، لا نخرج من دائرة الابتلاء، يقول الله - تعالى -:

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الأعراف: ١٦٨]، ويقول - سبحانه -: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) [الأنبياء: ٣٥]، يقول ابن عباس رضي الله - تعالى -عنهما: (نبتليكم بالشدّة والرخاء، والصحّة والسّقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطّاعة والمعصية والهدى والضلالة)

عبادَ الله، العاقل الحصيفُ يجب عليه حتمًا أن يوقنَ أنّ الأشياء كلَّها قد فُرِغ منها، وأنّ الله - سبحانه - قدّر صغيرها وكبيرَها، وعلم ما كان وما سيكون وأن لو كان كيف يكون، (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْء) [الأنعام: ٣٨]، يقول الرسول: ((أوّلَ ما خلق الله القلمَ قال له: اكتب، قال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقاديرَ كلّ شيء حتى تقوم الساعة)) رواه أبو داود

فالمقاديرُ ـ عبادَ الله ـ كائنة لا محالة، وما لا يكون فلا حيلةَ للخلق في تكوينِه، وإذا ما قدّر على المرء حالُ شدّة وتنكّظته الأمورُ فيجب عليه حينئذٍ أن يتّزرَ بإزار له طرفان: أحدهما الصبر والآخر الرّضا، ليستوفيَ كمالَ الأجر لفعله ذلك، فكم من شدّة قد صعُبت وتعذّر زوالها على العالَم بأسره ثمّ فُرِّج عنها بالسّهل في أقلَّ من لحظة، قيل للحسن:يا أبا سعيد، من أين أُتي هذا الخلق؟ قال:من قلّة الرضا عن الله، قيل:ومن أين أتي قلّة الرضا عن الله؟ قال: مِن قلة المعرفة بالله.

ولمّا جيء بسعيد بن جبير إلى الحجّاج ليقتلَه بكى رجلٌ فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: لِما أصابك، قال سعيد: فلا تبكِ إذًا؛ لقد كان في عِلم الله أن يكونَ هذا الأمر ثمّ تلا: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا) [الحديد: ٢٢]

وما يصيب الإنسانَ إن كان يسرّه فهو نعمةٌ بيّنة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة أيضًا؛ إمّا مِن جهة أنه يكفّر خطاياه ويُثاب بالصّبر عليه، وإمّا من جهة أنّ فيه حكمةً ورحمة لا يعلمها إلا الله، (وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢١٦]، وصدق رسول الله إذ يقول: ((عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن)) رواه مسلم

أيّها النّاس، إنّ البشرَ قاطبةً مجمعون إجماعًا لا خِداج فيه على أنّ الصحّة تاجٌ فوق رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المَرضى، وأنّ الصحّة والعافية نعمةٌ مغبون فيها كثيرٌ من النّاس. قال سبحانه وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وقال صلى الله عليه وسلم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه رواه مسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته وقال صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه

الابتلاء بالمرض سنة ماضية

حكم المرض وفوائده:

١. استخراج عبودية الضراّء وهي الصبر:

-إذا كان المرء مؤمناً حقاً فإن كل أمره خير، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراّء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراّء صبر فكان خيراً له "

٢. تكفير الذنوب والسيئات:

- مرضك أيها المريض سبب في تكفير خطاياك التي اقترفتها بقلبك وسمعك وبصرك ولسانك، وسائر جوارحك.

- فإن المرض قد يكون عقوبة على ذنب وقع من العبد، كما قال - تعالى - {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}.

ضرورة ووجوب التصفية

في هذه الحمأة من الفعل وردته، والذنب وتوبته، تتجلى لنا وتتكشف أبعاد اللطف الإلهي، والمدد الرباني للعبد المؤمن، حيث لا يدعه يتخبط وحيدًا، وقد استحب الخير واختار الهدى، وإنما يهيئ له معارج للتزكية والتصفية، تتحات من خلالها أوزاره وذنوبه كما تتحات أوراق الشجر، بل ويبدل الله سيئاته حسنات مصداقًا لقوله تعالى: {لا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا} [الفرقان: ٧٠].

أولاً : المصافي العبادية

١ - المصافي اليومية:

من خلال الصلوات الخمس، فرائض وسننًا ونوافل، بما من شأنه إزالة آثار ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من ذنوب وخطايا في اليوم والليلة، حيث جاءت اللفتة النبوية إليها واضحة جلية في قوله: "مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه؟" قالوا: لا شيء. قال: "فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن" [أخرجه مسلم].. وفي إشارة أخرى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر"، [أخرجه مسلم].

٢ - المصافي الأسبوعية:

فإن لم تكفِ المصافي اليوميةِ في محو الأوزار والذنوب، ردفتها المصافي الأسبوعية المتمثلة: بيوم الجمعة اغتسالاً وتطهرًا وخطبة وصلاة، وما يكتنزه هذا اليوم المبارك من خير عميم.. وحسبنا في هذا المقام قول الرسول: "إن لله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار" [رواه ابن عدي وابن حبان]، وكذلك قوله: "إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام" [رواه البيهقي وابن حبان وأبو نعيم..]، وكذلك في فضل صيام يومي الإثنين والخميس.

٣ - المصافي الموسمية:

وتأتي هذه المصافي لتكمل ما عجزت عنه غيرها وما تراكم من ذنوب وخطايا، كصيام شهر رمضان بدليل قوله: "من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه"، وستة أيام من شوال وبركات العشر الأوائل من ذي الحجة التي جاء فيها قوله: "ما من أيام العمل

الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام"، وصوم يوم عرفة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يكفر السنة الماضية والباقية".

٤ - <u>مصفاة العمر:</u>

المتمثلة بفريضة الحج وما تذخر به من مناسك وأعمال خير وبر، اختصرها رسول الله بقوله: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" [متفق عليه].. وقوله: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" [متفق عليه].

<u>ثانيًا: المصافي الدعوية</u>

ففي المصافي الدعوية قوله: "لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها" وفي رواية: "خير من حمر النعم".

<u>ثالثًا: المصافي الخيرية</u>

كقضاء حاجات الناس، ورفع الظلم عنهم، وتيسير عسرهم، وتفريج كربهم والتخفيف عنهم، والمطالبة بحقوقهم، وكفالة أيتامهم، ورعاية أراملهم، وإيواء مشرديهم، بدليل قوله: "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كرب يوم القيامة"، وقوله: "الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم الليل الصائم النهار".

<u>رابعًا: المصافي الابتلائية</u>

الصبر

حين يزداد طغيان الظالمين ويجاوز الأمر حدوده بالتهديد والوعيد يأمر الله عباده بالصبر في مواجهة كل ذلك

بقوله تعالى: ؟ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ(١٢٧)قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ؟ [الاعراف:١٢٧-١٢٨].

ويسلي الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - حين يكذبه قومه ويسخرون منه ويستهزئون ويكيدون ويتآمرون ، فيأمره بالصبر وأن يتأسى بأُولي العزم من الرسل في تحملهم وصبرهم فيقول له

؟ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ؟ [الاحقاف:٣٥].

استمع إلى هذا النموذج القوي الرائع في التحمل والصبر على تكاليف الدعوة وسخرية الساخرين وإعراض الجاهلية في مدة زمنية قياسية عند نبي الله نوح ألف سنة ؟

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِي؟ [يونس:٧١

عن أبي سعيد الخدري :"أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نفد ما عنده قال ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى الله أحدا من عطاء أوسع من الصبر".

قال الإمام أحمد إن الله ما عظّم شيئا في كتابه كما عظّم الصبر فقد ذكر في أكثر من تسعين موضعاً ، فمنها ما ذكر الله من مضاعفة الأجر للصابرين

من مظاهر الصبر

١.الصبر على أذى النفس : فهذه النفس الأمارة بالسوء تقول :يا عبد الله الناس مرتاحون، و لا يعادون خلق الله ,وفي وظائف مرفهة، و أجور عالية، وأنت في هذا العمل الدعوي.

ولهذا لابد أن تقمعها ،وأن تقول: أيتها النفس لا تتكلمي؛ فإنني أعمل عمل الأنبياء الذين لم يتقاضوا عليه أجرا حيث قالوا لقومهم ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ[١٦٤]﴾[الشعراء.

٢.الصبر على أذى الأهل : فالداعية قد يقاوم نفسه؛ ولكنه قد ينهزم أمام أهله من الزوجة أو الأبناء ؛ فيقولون له اترك هذا العمل، أو انتقل إلى آخر، وهذا من البلايا، فقد ابتلى الله تعالى نوح عليه السلام بامرأته وابنه، وابتلى لوطا بامرأته ، وابتلى إبراهيم بأبيه.

٣-الصبر على الابتلاء الحاصل في العمل: فهذه الأمة مكرمة ومفضلة ؛ولكنها لابد أن تأخذ عقوبتها إذا عصت الله، وإن كانت عقوبتها أخفمن غيرها تكريماً لمحمد(ص)

كان عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال الرعية في الليل ،فسمع امرأة تقول شعراً وهى لا تظن أن أحد سيسمعها:

كيف السبيل إلى خمر فأشربها و كيف السبيل إلى نصر بن حجاج

وفي اليوم الثاني سأل عمر : من نصر بن حجاج ؟ فقيل له : رجل فيه جمال وتعجَب به من ضَعُف إيمانها من النساء ، فنفاه من المدينة إلى الكوفة ، فإذا كان هذا في نصر صاحب الجمال الطبيعي فكيف فيما يعرض في وسائل الأعلام من مثيرات الشهوات.

وإن حصل مع الصبر على المصائب رضى وشكر فإنه أعظم للأجر ،

_فالرضى بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ، مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره ، مستحب وهو من مقامات أهل الإيمان ،

بخلاف الرضى بالقدر الجاري عليه باختياره ، مما يكرهه الله ويسخطه وينهي عنه ، كالظلم والفسوق والعصيان ، فإن هذا حرام يعاقب عليه ، وهو مخالفة لله تعالى

. . وكذلك الشكر ؛ حيث إن الله أمر به وأثنى على أهله ونهى عن ضده :سورة سبأ الآية ١٣ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

إلا أن الغالب في الشكر أن يكون على السراء وهي من الفتن العامة التي ينبغي للمسلم أن يشكر الله عليها ، وليست من المصائب النازلة المقصودة في هذا الموضوع.

فتبين أنه لا أجر بدون الصبر فما فوقه ،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (المصائب التي تجري بلا اختيار العبد ، كالمرض وموت العزيز عليه ، وأخذ ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها ، لا على نفس ما يحدث من المصيبة وما يتولد عنها).

وأما إن حصل ضد الصبر وهو الجزع والتسخط والتشكي ، فإن هذا لا يؤجر ، بل قد يحصل له الإثم لقوله - صلى الله عليه وسلم - : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط .

،وقد يكون الابتلاء بالرخاء وقد يكون بالشدة . وما يعنينا هنا هو وقوع الابتلاء بالشدائد والمحن وموقف المؤمن منها.

الصبر مظهر الرضا:

ولما كان الابتلاء بالمحن من سنة الله تعالى ، فقد لزم أن يعرف المؤمن ذلك وأن يفهم حقيقته ، وحين يفقه المؤمنون سنن الله تعالى فإنهم يحسنون التعامل معها ، ويتمثل فقه المؤمنين لسنة الابتلاء بالمحن في الرضا بقضاء الله تعالى والخضوع لأمره ، ومظهر هذا الرضا والخضوع هو الصبر ؛ هذا الخلق العظيم الذي يمثل موقف المؤمنين تجاه المحن والابتلاءات ، ويجسد فلسفة المؤمن في التعامل مع أكدار الحياة وجراحها ومنغصاتها التي لا تنتهي . وعلى أساس هذا الفهم السليم فإن المؤمن يكون راضيا بقضاء ربه عز وجل متسلحا بالصبر في كل أحواله ولا سيما في الشدائد والمحن وفقا لما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له

الرضا حظ المؤمن:

وحين يؤمن العبد أن له على كل مصيبة أو محنة مهما صغرت أجرا إذا صبر ، ويستيقن أن صبره لا يذهب هباء منثورا وإنما يكون مذخورا له عند ربه محفوظا له في ميزانه يوم القيامة ، وأن (عظم الجزاء مع عظم البلاء وأن من رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط) ٢ ، وأنه) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) ، فإن ذلك الإيمان يغمره بالرضا ويفيض عليه من السكينة ما يخفف من آلامه ويسكن من جراحه . ولذلك ترى المؤمن في المحن والشدائد متذرعا بالصبر ، ميالا إلى التحمل والثبات محتفظا بتوازنه ورباطة جأشه ، يترجم ذلك كله بما يناسب الحال من الكلمات والعبارات التي تعكس استسلامه لأمر الله تعالى ورضاه بقضائه ، فتراه يكثر من قول (الحمد لله) و (لا حول ولا قوة إلا بالله) وما شابه ذلك من الأقوال التي تثقل بها الموازين وتذهب قلق الأهل والمحبين.

مواقف متنوعة:

وفي زماننا كثيرة هي المحن التي تتطلب فهم درس الصبر فهما سليما ؛ يعين على الثبات ، ويساعد على تجاوز العثرات ، والوقوف في وجه التحديات والصعوبات التي تعترض المسلمين في حياتهم الخاصة والعامة ، وتقف في طريق الدعوة ، وتعمل على إجهاض الصحوة.

وثمة مواقف وأحوال يلزم فيها الصبر ، سلاحا للمؤمن ، وزادا على طريقه لتحصيل مرضاة ربه عز وجل ، فإذا افتقده فيها أدركه الجزع وخالط قلبه الفزع ؛ فلا تراه إلا ضعيفا مهزوزا مهزوما . ومن تلك المواقف والأحوال ما يلي:

الصبر على الفقر والحاجة:

إذ يكون الفقير المحتاج بين موقفين ؛ أولهما أن يلجأ إلى سؤال الناس، وطلب المعونة من الخلق

، والثاني أن يتصبر على حاله ممتنعا عن سؤال الخلق ، ومحتالا بما أمكن من الجهد وطرق أبواب العمل ، حتى يأتي الفرج ويبدل العسر يسرا . ولا شك أن موقف التصبر في هذه المحنة خير من موقف السؤال وعرض الحال ، ولذلك جاء توجيه النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الموقف مؤكدا على قيمة الصبر وحسن عاقبته ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : (ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر) ٤ . وقوله يتصبر يفيد أن تحصيله الصبر لم يكن بسهولة ، وإنما بشيء من المعاناة والتحمل ، لأنه لم يكن صابرا إلا بتكلف مؤونة الصبر وتحمل مشقته.

<u>الصبر في السراء والضراء:</u>

ومن الطبيعي أن يصبغ الإيمان حياة المؤمن بصبغة الصبر ، وأن يكون المؤمن صابرا ، ولكن المؤمنين يتفاوتون في ذلك بقدر حظهم من الإيمان ، فكلما ارتفع مستوى الإيمان وازداد رسوخ اليقين كان العبد أكثر صبرا ، فارتفاع مستوى الإيمان يعني ارتفاع مستوى الصبر.

وفي معرض بيان الحق جل وعلا لوجوه البر امتدح الصابرين في البأساء والضراء بالصدق والتقوى فقال ..)) والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)) [البقرة : ١٧٧] ، وقد امتدح النبي صلى الله عليه وسلم شكر المؤمن على السراء وصبره على الضراء بقوله : (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)

<u>الصبر</u>

<u>لتكفير حاصل بمجرد المصيبة أم لا بد من الصبر ؟</u>

الناس بالنسبة لأقدار الله أربعة أقسام:

<u>الأول</u> : من يرضى عن ربه فيها لمزيد من حبه والشوق إليه ، وهذا نشأ من مشاهدتهم للطف الله فيهم ، وبره وإحسانه العاجل والآجل.

<u>الثاني</u> : من يشكر الله عز وجل على المصائب كما يشكر على النعم . وهذا فوق الرضا ، إلا أنه غالبا ما يكون على النعم ، فهو في فتنة السراء أظهر.

<u>الثالث</u> : من يصبر على أقدار الله ، وهم المقصودون ، ولا يتحقق الرضا والشكر إلا بالصبر.

<u>الرابع</u> : الجزع والتسخط والتشكي ، واستبطاء الفرج ، واليأس من الروح ، والجزع الذي يفوت الأجر.

وعلى هذا التقسيم فلا بد للمصاب أن يكون من الصابرين فما فوق ، أم من الساخطين ، وقد ذكر ابن حجر أن الأجر حاصل بمجرد المصيبة. حيث قال : ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور إنما هو على الكسب ، وهو خطأ صريح ؛ فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب ، والمصائب ليست منها ، بل الأجر على الصبر والرضا.

ووجه التعقب أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة ، وأما

الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة ، قال القرافي : المصائب كفارات جزما ، سواء اقترن بها الرضا أم لا ، لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير وإلا قل ، كذا قال : والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها ، وبالرضا يؤجر على ذلك ، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه

والذي يظهر لي بعد هذا النقل أن الأجر لا يحصل إلا مع الصبر ، لا بد للإنسان أن يصبر أو يسخط ، ولا أعرف مرتبة بينهما ، إلا أن الصبر إما أن يكون لله ومع الله فإنه يؤجر على ذلك ؛ للآيات والأحاديث التي تحث على الصبر وتأمر به ، وإما أن يكون لغير ذلك من غاياته في الدنيا ، أو يجبر على الصبر كصبر البهائم ، ويسلي نفسه كصبر الكفار ، فإن هذا لا أجر له.

قال ابن القيم بعد أن تكلم على الصبر فقال : المراتب أربعة:

أحدها : مرتبة الكمال ، وهي مرتبة أولي العزائم ، وهي الصبر لله وبالله ، فيكون في صبره مبتغيا وجه الله ، صابرا به ، متبرئا من حوله وقوته ، فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها

الثانية: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا ، فهو أخس المراتب ، وأردأ الخلق ، وهو جدير بكل خذلان وبكل حرمان.

الثالثة : مرتبة من فيه صبر بالله ، وهو مستعين متوكل على حوله وقوته ، متبرئ من حوله هو وقوته ، ولكن صبره ليس لله ؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه ، فهذا ينال مطلوبه ويظفر به ، ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

الرابعة : من فيه صبر لله لكنه ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه ، والثقة به والاعتماد عليه ، فهذا له عاقبة حميدة.

عشر نصائح لابن القيم للصبر عن المعصية

١- علم العبد بقبح المعصية ورذالتها و دناءتها وأن الله حرمها ونهى عنها صيانة وحماية للعبد عن الرذائل..، كما يحمى الوالد الشفيق ولده عن ما يضره..

٢- الحياء من الله... فإن العبد متى علم بنظر الله إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى من الله و مسمع كان حييا يستحي أن يتعرض لمساخط ربه.

.. والحياء أن تنفتح في قلبك عين ترى بها أنك قائم بين يدي الله...

٣- مراعاة نعم الله عليك و إحسانه إليك:

فإذا كنت في نعمة فارعها *** فإن المعاصي تزيل النعم..

- من أنعم الله عليه بنعمة فلم يشكرها عذبه الله بذات النعمة..

٤- الخوف من الله و خشية عقابه.

٥- حب الله.. فإن المحب لمن يحب مطيع...

.. إنما تصدر المعصية من ضعف المحبة..

٦- شرف النفس وزكاؤها وفضلها وحميتها.. فكل هذا يجعلها تترفع عن المعاصي..

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناشئ منها من سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه.

.. فإن الذنوب تميت القلوب..

٨- قصر الأمل ويعلم الإنسان أنه لن يعمر في الدنيا ويعلم أنه كالضيف فيها وسينتقل منها بسرعة فلا داعي أن يثقل حمله من الذنوب فهي تضره ولا تنفعه.
٩- مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه المفاضلات؛ ومن أعظم الأشياء ضررا على العبد..
.. بطالته وفراغه...، فإن النفس لا تقعد فارغة
.. إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره..
١٠- السبب الأخير هو السبب الجامع لهذه الأسباب كلها
.. وهو ثبات شجرة الإيمان في القلب..
فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أقوى..
وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر..
ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط...

الشعراوى
والمصائب أو الكوارث نوعان؛ نوع للإنسان فيه غريم، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له.
فإن مرض إنسان فليس له غريم في المرض، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه، ومصيبة الإنسان التي فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه، أما حين تكون المصيبة من غير غريم هي التي تحتاج لشدة إيمان،
والحق يقول:{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور}[الشورى: ٤٣]
هنا يؤكدها؛ لأن غريمه يلح عليه، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به، فتكون هناك إهاجة على الشر.
أما قوله سبحانه: {واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور} [لقمان: ١٧]
فلم يؤكدها، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها؟
ومثال ذلك: المرأة التي زنت، والرجل الذي زنا، واعترفا لرسول الله ليرجمهما، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله، بل ذهب
كل منهما بنفسه. ولذلك حين جاء سيدنا عمر، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول: «دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لو سعتهم» .

حكمة الابتلاء

حكمة الابتلاء وفوائده:
للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١- تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل؛ وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

٢- تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة، التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»

٣- الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه».

٤- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»

٥- معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق ومسارب الضلال».

٦- معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غث وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغالٍ، فلا يفرطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»

٧- **الدعاية لها:**

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى قومه يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٨- **جذب بعض العناصر القوية إليها:**

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق

٩- **رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة» فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد.

و من تأمل فيما عاناه ، أو ما وَقَعَت عليه - من معاناة غيره - عيناه من صور الابتلاء ، سيدرك و لا شك بعض الحكم الربانية في ذلك كله ، و من أَجَلّ تلك الحِكَم تمحيص المعبود لعباده { حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } [آل عمران : ١٧٣.]

فقد يكون الابتلاء لتمحيص الصف المسلم و تنقيته من الدَغَل و الدَخَل و الدُخلاء ، و من صور الابتلاء للتمحيص ما قد تتعرّض إليه الصفوة من أبناء الأمة من الكرب أو الأسر أو النفي أو القتل أو غير ذلك مما هو معروف مشاهد في كل زمان و مكان.

قال تعالى : وَ{لَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَ الأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ } [البقرة : ١٥٥.]

و قد يكون الابتلاء قصاصاً في الدنيا مما تقترفه أيدي العباد ، و جزاءً لهم بالسيئة على السيئة .

قال تعالى : {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ } [سبأ : ١٧] و قال سبحانه : {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً } [النساء : ١٦٠] . و قال أيضاً : {وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } [الشورى : ٤٠.]

كما قد ينزل البلاء على العباد رفعاً للدرجات ، أو وضعاً للآصار و تكفيراً للخطايا و السيئات.

فمما يكون لرفع درجات العباد ، و يراد لهم الخير به ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : (من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه) . أي : يبتليه بالمصائب و المحن ليرفع درجاته و يزيد في حسناتة على ما يكون من صبره و احتسابه.
و مما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله : (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها.)
قال الإمام المناوي رحمه الله شارحاً هذا الحديث في فيض القدير : (ما من مصيبة) أي : نازلة ، و أصلها الرمي بالسهم ثم استعيرت لما ذكر (إلا كفر الله بها عنه) ذنوبه أي محي خطيئاته بمقابلتها (حتى الشوكة) قال القاضي : حتى إما ابتدائية فالجملة بعدها خبرها أو عاطفة (يشاكها) أي : حتى الشوكة يشاك المسلم بتلك الشوكة أي يجرح بشوكة ، و الشوكة هنا المرة من شاكه ، و لو أراد واحدة النبات قال يشاك بها ، و الدليل على أنها المرة من المصدر جعلها غاية للمصائب .اهـ.
و مما اتفق عليه الشيخان أيضاً حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله قال : ما يصيب المسلم من هم و لا غم و لا نصب و لا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.
قال الإمام الغزالي رحمه الله : قال عيسى عليه السلام :لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب و الأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياه.

الابتلاء سنة عامة تتفاوت مراتب الناس فيه:

ليس الابتلاء قاصراً على أحد ، و لا ينجو منه بر و لا فاجر ، و إن تباينت صوره ، و تفاوتت مراتبه و مراتب الناس فيه تبعاً لذلك.
وما ادعى أحدٌ إيماناً بالله و رسوله إلا كان نصيب من الابتلاء كما أخبر بذلك رب الأرض و السماء ، فقال تعالى : { أ لم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ -وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } العنكبوت : ١-٣.
و لو نجى من هذا الابتلاء أحد لنجى منه الأنبياء و المرسلون ، و من تابعهم من الأولياء و الصالحين.
و لكن ؛ ما من نبي أوتي الكتاب و الحكمة إلا و هو معرض لأصناف البلاء حتى يبلغ رسالة الله إلى الناس ، فالأنبياء أكمل الناس إيماناً و أكثرهم بلاءً ، و ذلك لأن الابتلاء على قدر العطاء ، فقد قال ربنا تعالى } :لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ { المائدة : ٤٨.
و لو تأملنا ما قصه الله تعالى علينا من معاناة الأنبياء لوجدنا ما يذيب الحديد ، و يشيب الوليد.
ألم تَرَ كيف ابتلى الله أبا البشر آدم عليه السلام بالسراء فكرمه و أسجد له الملائكة ، ثم ابتلاه بالضراء فأهبطه من جنة عدن إلى دار الهم و الغم و الحزن.
و ابتلى نوحاً عليه السلام في أهله و ولده بكفرهم و صدهم عن سبيل الله و إعراضهم عن دعوته إلى دين الله ، و أي ابتلاء أعظم من أن يرى الأب ابنه يغرق أمامه في موج كالجبال مع من كفر من قومه ، و هو لا يملكصرف الضر عنه و لا تحويلاً .

الحكمة من الابتلاءات

١- تحقيق العبودية لله رب العالمين
فإن كثيراً من لناس عبدٌ لهواه وليس عبداً لله ، يعلن أنه عبد لله ، ولكن إذا ابتلي نكص على عقبيه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) الحج/١١ .
٢- الابتلاء إعداد للمؤمنين للتمكين في الأرض
قيل للإمام الشافعي رحمه الله: أَيّهما أَفضل : الصَّبر أو المِحنة أو التَّمكين ؟ فقال : التَّمكين درجة الأنبياء ، ولا يكون التَّمكين إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبر ، وإذا صبر مكن .
٣- كفارة للذنوب
روى الترمذي (٢٣٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه ، وولده ، وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)
٤- الابتلاء يذكرك بذنوبك لتتوب منها والله عز وجل يقول : (وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نفسِكَ) النساء/٧٩ ، ويقول سبحانه : (وَمَا أَصَابَكُم من مصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أَيدِيكُم وَيَعفُوا عَن كَثِيرٍ) الشورى/٣٠ .
فالبلاء فرصة للتوبة قبل أن يحل العذاب الأكبر يوم القيامة ؛ فإنَّ الله تعالى يقول : (وَلَنُذِيقَنَهُم منَ العَذَابِ الأدنَى دُونَ العَذَابِ الأكبَرِ لَعَلهُم يَرجِعُونَ) السجدة/٢١ ، والعذاب الأدنى هو نكد الدنيا ونغصها وما يصيب الإنسان من سوء وشر .

وإذا استمرت الحياة هانئة ، فسوف يصل الإنسان إلى مرحلة الغرور والكبر ويظن نفسه مستغنياً عن الله ، فمن رحمته سبحانه أن يبتلي الإنسان حتى يعود إليه .
٥- الابتلاء يكشف لك حقيقة الدنيا وزيفها وأنها متاع الغرور وأن الحياة الصحيحة الكاملة وراء هذه الدنيا ، في حياة لا مرض فيها ولا تعب (وَإِن الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ) العنكبوت/٦٤ ، أما هذه الدنيا فنكد وتعب وهمٌّ : (لَقَد خَلَقنَا الإِنسانَ في كَبَدٍ) البلد/٤
٦- الابتلاء يذكرك بفضل نعمة الله عليك بالصحة والعافية
فإنَّ هذه المصيبة تشرح لك بأبلغ بيان معنى الصحة والعافية التي كنت تمتعت بهما سنين طويلة ، ولم تتذوق حلاوتهما ، ولم تقدِّرهما حق قدرهما .
المصائب تذكرك بالمنعِم والنعم ، فتكون سبباً في شكر الله سبحانه على نعمته وحمده .
٧- الشوق إلى الجنة
لن تشتاق إلى الجنة إلا إذا ذقت مرارة الدنيا ، فكيف تشتاق للجنة وأنت هانئ في الدنيا ؟
فهذه بعض الحكم والمصالح المترتبة على حصول الابتلاء وحكمة الله تعالى أعظم وأجل .
والله تعالى أعلم .
ما الحكمة من الابتلاء..!؟
<u>يسأل البعض.. لماذا يبتلينا الله؟ وما الحكمة من الابتلاء؟</u>
<u>**أولا: رفع الدرجات.**</u>
ان الله يبتلينا ليرفع درجاتنا.." فإن كان دينه صلبا زيد في ابتلائه".

وتخيّلوا معي إذا لقينا الله يوم القيامة بلا مصائب وابتلاءات سنكون مفلسين.. إياكم أن تظنوا أن حسناتنا تكفي لدخولنا الجنة..!!!

إنما تأتي المصيبة تنغص عليك أسبوعا.. تنغص عليك شهرا.

وأحيانا تصل الى سنة واثنين.. فاعلم أن لك منزلة كبيرة في الجنة. ولتصل الى هذه الدرجة فلا بد من هذه المصيبة وهذا الابتلاء.

ثانيا: التميز في الدرجات.

ومن حكمة الله في الابتلاء أيضا.. التمييز في الدرجات.

يقول تعالى:

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين} آل عمران ١٤٢

يقول أيضا:{ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب} آل عمران ١٧٩.

ويا لها من حكمة.. ليتميز الناس ويتميز أصحاب الفضل عن المنكسة رؤوسهم.

ثالثا: حتى لا تصاب بالكبر والغرور

وهي من الحكم العظيمة، فتخيّل لو استمرت الأمور مستقرة وحياتنا هادئة، فماذا يحدث للانسان هنا..؟ إنك تعرف نفسك أكثر من أيّ إنسان!!

ستصاب بالكبر والغرور.. أليس كذلك؟ فالحياة مستقرة ليس بها ما يعكرها.. نعيم وسعادة ومنافع (وهذا ما يحدث لأهل الباطل).

وهنا يصاب الانسان بالكبر والغرور والتعالى على الله وعدم الاحتياج له.. ولذلك يبتلينا الله، فنرجع اليه ونتذلل له ونحتاج اليه.. فرحمة بنا بتلينا.

يا لها من معاني.. تستشعرها القلوب المرهفة..!!

رابعا: حتى تشتاق الى الجنة

ومن الحكم أيضا.. أنك لن تشتاق ال الجنة الا إذا ذقت مرارة الدنيا!!

فكيف تشتاق الى الجنة وأنت ترى الدنيا مريحة.. جميلة..

وهذا ليس معناه أن تكره الدنيا.." لا بل ابذل الجهد وعمّر وشيّد.."

ولكنك تشتاق الى الجنة... فيذيقك الله مرارة الدنيا لتتمنى حلاوة الجنة.

خامسا: حتى لا تنسى الله

ومن الحكم أيضا.. أن المصائب والابتلاءات تذكرك بالله صاحب النعم.. فتكون المصيبة سبب في أن تشكر الله على نعمته عليك وأن ترضى بقضائه.

وهكذا لا تنساه أبدا...

سادسا: لتعلم ان الله هو القوي

ومن حكم الله في الابتلاء.. أنه يبتليك لتظهر قوة الله عز وجل.. وتتجلي صفة القوة وصفة الرحيم.. أن نجاك من الابتلاء.

إن الله يبتليك فتلجأ اليه فيأخذ بيدك فتعلم أن الله قادر.. أن الله قوي.. أن الله رحيم..

سابعا: لأن الله يحبك

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم" الترمذي وابن ماجه.

فمن حكم الله في الابتلاء.. أنه يحبك أيها العبد المؤمن.. الطاهر.. النقي.. التقي.. الخفي.
للأمانة الموضوع منقول : من محاضرات عمرو خالد
الحكمة من الابتلاء
سبق في علم الله انه إذا أصاب المؤمن مصيبة فإنها تكون وفق قدر معلوم وقضاء مرسوم وحكمة ازلية وكتابة إلهية ولابد أن يعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبية حيث قال تعاليما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب
من قبل أن نبرأها أن ذلك علي الله يسير) وهكذا فان من صفته تعالي أن يقدر ويلطف ويبتلي ويخفف.
إن في الشدائد دروسا قيمة للمؤمنين وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم تنضح نفوسهم وتصقل إيمانهم وتذهب صدا قلوبهم وتكفر من خطاياهم وتزيد صلتهم بربهم.
<u>أولا: في الابتلاء تمحيص للمؤمن وزيادة في الأجر والثواب</u> فعن أنس ري الله عنه قال:قال رسول الله لي الله عليه وسلم (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا الله بعبده الشر امسك عنه بذنبه حتي يوافي به يوم القيامة).
<u>ثانيا: التعرف علي سنة الله عز وجل في التغيير</u>: قال تعاليإن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم).
<u>ثالثا:التمييز بين الخبيث من الطيب</u>:يقول الله تعالي(ما كان الله ليذر المؤمنين علي ما انتم عليه حتي يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم علي الغيب)
<u>رابعا:البلاء درس من دروس التوحيد والإيمان والتوكل</u> ويطلعك عمليا علي حقيقة نفسك لتعلم انك عبد ضعيف لا حول لك ولا قوة إلا بربك. فتوكل عليه حق التوكل.
<u>خامسا:إن البلاء يكشف لك حقيقة الدنيا وزيفها</u> وإنها متاع لغرور وان الحياة الصحيحة الكاملة وراء هذه الدنيا حياة لا مرض فيها ولا تعب.
<u>سادسا:إن البلاء يذكرك بفضل نعمة الله عليك بالعافية</u>
<u>سابعا:إن البلاء يذكرك بعيوب نفسك لتتوب منها .</u>
<u>ثامنا:إن البلاء درس تربوى يربينا علي الصبر</u> وما أحوجنا إلي الصبر في كل شي ولن نستطيع الثبات علي الحق إلا بالصبر علي طاعة الله .

<u>الله عز وجل يقول : سورة الفرقان الآية ٢٠ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .</u>

وهذا عام في جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض ، كما تقدم امتحان الرسل بأقوامهم وبالعكس ، كما امتحن العلماء بالجهال ، هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على ذلك ، وبالعكس هل يطيع الجهال العلماء ويهتدون بهم ؟ وامتحن الملوك بالرعية وبالعكس ، كما امتحن الفقراء بالأغنياء وبالعكس ، وكما امتحن الأقوياء بالضعفاء ، والسادة بالأتباع ، والمالك بمملوكه ، والرجل بامرأته ، والرجال بالنساء ، والمؤمنين بالكفار ، والآمرون بالمعروف بمن يأمرونهم وعلى العكس من هؤلاء جميعا فإنهم فتنوا بأضدادهم. فمن صبر على الفتنة كانت رحمة في حقه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، وإن لم يصبر وقع في فتنة أشد منها

الحكمة من الفتنة والابتلاء

وما دام أن الله سبحانه جعل الابتلاء سنة في هذا الكون على جميع الخلق برهم وفاجرهم ، فأفعاله كلها حكمة ، فلا تكون إلا عن علم وحكمة ، منها ما نعرفه ومنها ما تقصر عقولنا وأفعالنا وأفهامنا عنه ،

وحسبنا أن نقول : سورة البقرة الآية ٢٨٥ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . والابتلاء والفتن من أفعال الله عز وجل وتقديراته التي كلها حكمة ورحمة بخلاف ما إذا كانت من العبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وليست البلايا والمصائب تأتي من طاعة الله ورسوله ، كما يظن بعض الجهال ، فإن هذه جزاء أصحابها خير الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وكذلك ما ابتلوا به من السراء والضراء والزلزال ، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز خبيثه من طيبه ، والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه. ؛

لذلك كان من حكمة الابتلاء التمحيص ، وهو كما قال الراغب : أصل المحص تخليص الشيء مما فيه عيب ،

قال تعالى : سورة آل عمران الآية ١٤١ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ،

وقال سبحانه : سورة آل عمران الآية ١٥٤ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

فالتمحيص هنا كالتزكية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ ، ويقال في الدعاء : اللهم محص عنا ذنوبنا ، أي : أنزل ما علق بنا من الذنوب

فالمؤمن يمحص حتى يصدق ويبتلى ويختبر حتى يخلص بالبلاء الذي نزل به وكيف صبره ويقينه. . والله يمحص المؤمنين بما يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. . فهو تنقية لهم من الذنوب وآفات النفوس ، كما أنه تخليص لهم من المنافقين ، وتمييزهم عنهم ، فيحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم وتمحيص ممن كان يظهر أنه من المسلمين. . وهذا ما سأوضحه في حكمة (التمييز بين المؤمنين والكفار)

فالتمحيص للمؤمنين يكون:

بتكفير السيئات.

أو برفعة الدرجات.

أو بالتعويض من الله.

أولا : تكفير السيئات : قد أخبر الله سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو. . وقد بين الله سبحانه وتعالى تكفيره لسيئات المؤمنين في كتابه وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم
فقال تعالى : سورة العنكبوت الآية ٧وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقد بين الله سبحانه أن لا بد للمؤمن من الابتلاء كما تقدم .

قال ابن القيم : إن ابتلاء المؤمن كالدواء له ، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته ، أو أنقصت ثوابه وأنزلت درجته ، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة ، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه. .
كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . فهذا الخير العظيم ليس إلا للمؤمن ؛ لأنه هو الذي يشكر ويصبر فبذلك تكفر سيئاته:
ما روته عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم
ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه .
وعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - عن أبيه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : قلت يا رسول الله : أي الناس أشد بلاء ؟ قال
الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة.
فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن المصائب والفتن التي تصيب المؤمن أنها من الله ، حيث لا يقع في الكون كائن بغير مشيئته الحكمية ،ومن ذلك أن الله أعد للمؤمن فيها خيرا عظيما ، سواء بتكفير السيئات أو برفعة الدرجات إن صبر واحتسب ، وإلا فيكون فتنة لغيره لذلك أورد بعض العلماء مسائل على هذه الأحاديث وأمثالها:
أولا : هل التكفير للصغائر أم للصغائر والكبائر ؟
ثانيا : هل المصائب تكفر الخطايا فقط أم أنها تكفر الخطايا وترفع الدرجات ؟
ثالثا : هل تكفير الخطايا أو رفع الدرجات يحصل بمجرد المصيبة أم لا بد من الصبر عليها ؟
المسألة الأولى : هل التكفير خاص بالصغائر أم للصغائر والكبائر ؟ قال ابن حجر عند إيراده لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وما قبله من الأحاديث السابقة : وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن ؛ لأن الآدمي لا ينفك غالبا من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر ، وأن الأمراض والأوجاع والآلام بدنية كانت أو قلبية تكفر ذنوب من تقع له ، وسيأتي في الباب الذي بعده من حديث ابن مسعود
ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه ، وظاهره تعميم جميع الذنوب لكن الجمهور خصوا ذلك بالصغائر ، للحديث . الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر . فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا المقيد ،

ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة البلاء وخفته والذي يظهر أن المصائب مكفرات للصغائر والكبائر لعموم الأحاديث المتقدمة ، وأما هذا الحديث فهو خاص بالأعمال المذكورة ولا وجه لدخول عموم التكفير بالنسبة للمصائب بهذا إلا بدليل ؛ لذلك قال بعض العلماء إن المصائب مع تكفيرها السيئات ترفع الدرجات.

المسألة الثانية : هل المصائب مكفرات أو مثيبات ؟

قال النووي رحمه الله تعالى بعد سياقه للأحاديث المتقدمة : وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء وحكى القاضي عياض عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط ولا ترفع درجة وتكتب حسنة قال : وروي نحوه عن ابن مسعود ، وقال أيضا : والوجع لا يكتب به أجر لكن تكفر به الخطايا فقط . واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصرحة برفع الدرجات وكتب الحسنات.

وقال المنبجي رحمه الله . احتجت طائفة من العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى : سورة التوبة الآية ١٢٠ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

ثم ساق حديث أبي سعيد المتقدم وقال : وروى الحاكم في المستدرك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : المصاب من حرم الثواب . وفي صحيح البخاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ثم ساق كلام النووي المتقدم وقال : ويؤيد ذلك قول عائشة - رضي الله عنها -. ما رأيت رجلا أشد عليه الوجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - : إني لأوعك مثل رجلين منكم . وإنك لتوعك وعكا شديدا . وقوله - صلى الله عليه وسلم - :

أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل . قال جماعة من العلماء : والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل ، أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب ، والأنبياء معصومون من الخطايا ، ولهم الثواب والله أعلم.

وفي حديث المرأة التي كانت تصرع . دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب وفي صحيح مسلم قالت امرأة يا رسول الله دفنت ثلاثة قال : دفنت ثلاثة ؟ قالت : نعم ، قال : لقد احتظرت بحظار شديد من النار.

قال بعض السلف : فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة فإنه قد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : المصاب من حرم الثواب . واحتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها وإنما يثاب على الصبر عليها بقوله تعالى : سورة

الزمر الآية ١٠ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

قال ابن عبد السلام . في (قواعده) : الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه قال تعالى : سورة البقرة الآية ١٥٦ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ سورة البقرة الآية ١٥٧ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ، فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم : سورة البقرة الآية ١٥٦ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذكر
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله عز وجل لملك الموت يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينيه وثمرة فؤاده ، قال : نعم قال : فما قال : قال حمدك واسترجع قال : ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد . فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في الجنة وتسمية البيت كافية تسلية أهل المصائب
لذا من:
أصيب وأوذي باختياره طاعة الله ، يثاب على نفس المصائب ، ويكتب له بها عمل صالح قال تعالى : سورة التوبة الآية ١٢٠ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد ، كالمرض وموت العزيز عليه ، وأخذ اللصوص ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها ، لا على نفس ما يحدث من المصيبة ، وما يتولد عنها ، والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال ، وهم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم المهاجرين الأولين ، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح ، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظة الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملا فعله ويقوم به ، لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها متولدة أمراض القلوب وشفاؤها
فتبين من كلام شيخ الإسلام أن المصائب مكفرات ومثيبات وإن كانت بسبب طاعة الله فإنه يثاب عليها وعلى ما يتولد منها ، وهذا ما دلت عليه النصوص ، فقد تقدم جملة من الأدلة على تكفير السيئات.

أما الأدلة العامة على رفع الدرجات فمنها : عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة . وفي لفظ : ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له حسنة أو حطت عنه بها خطيئة . وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله

عليه وسلم - قال .من يرد الله به خيرا يصب منه . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال

يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة . ومع هذا الأجر العظيم الذي دلت عليه الأحاديث فإنها تدل كذلك على التعويض من الله ، سواء في الدنيا أو الآخرة ، لدلالة الأحاديث المتقدمة والآيات الواردة في ذلك منها قوله سبحانه :سورة العنكبوت الآية مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وقوله سبحانه وتعالى : سورة العنكبوت الآية وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ . فهذه الآية كما تقدم في تكفير السيئات أن المؤمن لا بد له من ابتلاء حتى عمله ابتلاء من الله هل يصبر ويعمله باحتساب أم لا ، فإن كان عمله أشغله عن لذة من لذات الدنيا فإن العوض من الله خير ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه . والمتتبع لسير المرسلين وأتباعهم ، وما أصيبوا به من أذى ، يرى أن العاقبة كانت لهم ، سواء في العاجل أو الآجل.

فهذا إبراهيم - عليه السلام -لما صبر على بلاء قومه عوضه الله بذرية ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم حيث أمرهم الله قال : سورة العنكبوت الآية 56 يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ . أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا ، وملكهم شرق الأرض وغربها ، فمن اتقى الله عز وجل وترك الشيء له لأجله سبحانه ، عوضه الله خيرا عظيما ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه

. ويقول سبحانه وتعالى : سورة الطلاق الآية فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا سورة الطلاق الآية ٣ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . وكما ترك يوسف الصديق امرأة العزيز لله ، واختار السجن على الفاحشة ، عوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المجاهد في الله يهديه الله سبله ومعلوم أن المجاهد لله لا بد أن يترك كثيرا من الملذات والشهوات ويقبل على الله فعوضه الله أن هداه سبيله وكان معه خاصة ، قال تعالى : سورة العنكبوت الآية ٦٩ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ . وقد عزى الله المؤمنين حين اختاروا الألم المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله : سورة العنكبوت الآية مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فضرب لمدة هذا الألم لا بد أن يأتي وهو يوم لقائه ، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته ، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله ، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ؛ ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل ،

كما عزاهم تعالى بعزاء آخر وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم ، وثمرته عائدة عليهم ، وأنه غني عن العالمين . . ، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين زاد المعاد :
. 16 / 3كما قال سبحانه : سورة العنكبوت الآية ٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ.

خلق الإنسان للابتلاء

فهذه الحياة هي دار ابتلاء حيث يبتلي الله عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فمن صدق بالرسل وعمل بما في الكتب كان من أهل الجنة ومن أهل السعادة ومن كذب كان من أهل الشقاء وأهل النار. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عما يعمله الناس أهو أمر قد قضي وفرغ منه أم أمر مستأنف ، فقال بل أمر قد قضي وفرغ منه ، فقالوا : ففيم العمل يا رسول الله ؟ فقال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له ". وقد قال الله تعالى: (إنَّ سعيكم لشتّى، فأمّا من أعطى واتقى وصدَّق بالحُسنى فسنيسّره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكّذب بالحسنى فسنيسّره للعُسرى) [الليل: ٤-١٠]. فعلى كل أحد أن يعمل ويبحث عن مواطن الهداية ويدعو الله أن يرزقه الثبات على الدين، وأن يعلم أن الله تعالى قد خلق الخلق وهو يعلم أرزاقهم وآجالهم وماهم عاملون، ونحن نرى أكثر الناس يستشكلون أمر السعادة والشقاوة، ولايستشكلون أمر الرزق ونحوه، وهي من باب واحد من جهة خفائها عن الخلق وأن علم الله قد سبق فيها.
وأما الاحتجاج بكونه سبحانه يعلم مصير كل فرد من مخلوقاته فهذا أمر طبيعي للإله القادر العليم.
وكيف يكون رباً للأشياء وهو لا يعلم مصيرها ولا ما تؤول إليه: فالإله الذي يجهل مستقبل مخلوقاته ولا يدري هل سيعصونه أم سيطيعونه،
ولا يدري من الذي سيعذب منهم ولا من سيرحم، لا يستحق أن يكون إلها، لعدم إحاطة علمه بما خلق، والله سبحانه وتعالى علمه محيط بكل شيء من مخلوقاته ولذا قال: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [الملك: ١٤].
وهو الذي يفعل ما يشاء كيف يشاء لا دخل لأحد من خلقه في فعله جل وعلا، قال تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) [الأنبياء: ٢٣].
وقد أخبرنا سبحانه أنه خلق الجن والإنس لعبادته وطاعته ، فقال " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[الذاريات:٥٦].
وفي إيجاد الإنس والجن ، وابتلائهم بالتكاليف ، ثم مجازاتهم على أعمالهم ظهور لآثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، فهو الخالق الرازق المحيي المميت ، وهو الرحمن الرحيم ، والحكيم العليم ، وهو ناصر المؤمنين ومخزي الكافرين ، وهو الديان الذي يحاسب عباده ويجازيهم على أعمالهم ، وهو المنتقم الجبار ، الذي ينتقم لأوليائه من أعدائه ، وهو الموصوف بكمال العدل والإحسان جل وعلا .
ثم إن هذا اللون من الأسئلة لا ينبغي للمؤمن التشاغل به، فالمتشاغل بذلك لا يأمن أن يتساقط إيمانه شيئاً فشيئاً، والواجب أن نثق بحكمة الله وعدله، وأنه لايعذب أحدا بغير ذنب استحقه وأنه يعفو عن كثير. وقاعدة ذلك التسليم لأمر الله ، مابلغته عقولنا وما قصرت عن فهمه، وأن

العجز والقصوروالخلل فينا لافي حكمة الله تعالى، بل هو سبحانه : (لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسئلون) ٧١

كيف نتعامل مع الفتن

والسؤال الأخير الذي نطرحه هنا هو: كيف نتعامل مع الفتن والبلايا، ومع ما نعيشه من مشاكل لا تقلّ معاناة عن البلاء؟

إنّ التعامل هذا يكون بأن نستغلّ مشاكلنا لتربية نفوسنا، وتقوية ذواتنا، وشخصياتنا الإيمانية. وهذه المشاكل والصعاب التي تحلّ على المؤمنين لا تزيدهم إلاّ إيماناً وثباتاً واستقامة على الطريق؛

الثبات ثمرة الإبتلاء

من أبرز حكم الله عز وجل في الحياة، حكمة الفتنة والامتحان؛ ولو عرف الانسان هذه الحكمة بوعي كامل، لانكشفت أمامه حقائق كثيرة، وزالت من قائمة إستفساراته تساؤلات كثيرة تتوارد على ذهن الانسان لتتركه حيران يبحث عن فلسفة خلقه، والسبب الكامن وراء مجيئه الى الحياة، والهدف من الصراع الدائر بين البشر والذي يفرز حالات قد تكون متباينة مثل الغنى والفقر، والظلم والأمن..

إن النفس الأمارة بالسوء لا تبقى بعيدة عن مسرح هذه الشكوك، بل تبادر الى طرح عشرات الأمثلة لزرع الوساوس في الانسان، ولتتحول هذه الوساوس بدورها الى حجب وعقد تتركز في ذهن الانسان، متحولة الى موجة عارمة لا تهديه السبيل، بل تفقده الوعي والبصيرة.

سبيل العودة الى الفطرة

رغم إن الانسان قد زوّد بعقل يساعده على رؤية الحقائق وملامستها، إلاّ أنه - في نفس الوقت - أبتلي بحجب من الشرك تعطّل أجهزة البصيرة عنده عن العمل، الأمر الذي يحول دون رؤيتها.

وهناك الكثير منا يزعم أنه يعيش الحقائق بوعي، وإحسس دقيق، إلاّ أن هذا الزعم كثيراً ما يشوبه الخطأ. فالغالبية العظمى من الناس لا يعيشون إلا ظلال الحقائق، ولعل البعض منهم يعيش أوهاماً يظن أنها هي الحقائق.

الهجرة النبوية الدروس المستفادة.

الدرس الأول من دروس الهجرة:

نعلم أن الهجرة لها شأن عظيم، وأن أساس نجاحها وفلاحها كان في انتقال قلوب المهاجرين من اتباع الشيطان والنفس والهوى إلى الإخلاص لله تعالى، ولذا قال : ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)). فمن انتقل قلبُهُ من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد ومن الغواية إلى الهداية ومن الشر إلى الخير ومن الجهل إلى العلم كان مهاجرًا هجرةً قلبيَّة، وكان عملُهُ صالحًا ومعاملتُهُ حسنةً وخلُقُهُ كريمًا. فالهجرة القلبية ـ وهي التي يجب أن يقوم بها كلُّ مسلم ـ هي الهجرةُ

الباقية إلى أن تقوم الساعة، فليهاجر كل مسلم بقلبه ونفسه من الشهوات إلى الطاعات ومن عبادة هواه إلى عبادةِ ربهِ ومولاه.

الدرس الثاني من دروس الهجرة: أن الهجرة تمثل قصة الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال، وتلك قضية تتكرر في كل زمان ومكان، وهي تمثل قصة الصراع بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فإن الصراع بين الحق والباطل قائم منذ القِدَم وإلى قيام الساعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وتلك سنة الله تعالى، ولكن النصر في النهاية للحق وأهله والهزيمة للباطل وأهله، فعلى الدعاة إلى الله تعالى الساعين للإصلاح أن يتحلوا بالصبر والصدق والجد والإخلاص والحكمة والرفق وعدم استعجال الثمرات، فإن العاقبة الحميدة لكل مستضعف في الأرض ومضطهد في دينه متى ما صدق مع الله تعالى؛ لأن دروس الهجرة تقول: أليس الذي نصر عبده وهو على هذه الحال من الضعف قادرًا على أن يصنع مثله وأمثاله؟! أليس قادرًا على أن ينصر المسلمين وإن كانوا قلة في عددهم وعدتهم ولكنهم أقوياء في إيمانهم؟!

الدرس الثالث من دروس الهجرة: علينا أن نعلم أن الهجرة سنة من سنن الله تعالى الكونية التي لازمت الرسل والدعاة إلى الله تعالى، فما من رسول إلا أُخرجَ من داره أو عرَّضه قومه للإخراج، فهذه سنة من سنن الله تعالى، فإن الأقوام الذين عارضوا دعوة الرسل نجدهم يعرضون على رسل الله إما أن يعودوا إلى العقائد الفاسدة وإما أن يطردوا من ديارهم،

قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [إبراهيم:١٣، ١٤].

فلقد هاجرَ أبو الأنبياء إبراهيمُ عليه السلام قال عنه الله تعالى: وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] العنكبوت:٢٦]،

وكذلك هاجر معه نبي الله لوطٌ عليه السلام،

وهاجر شعيب وموسى وعيسى عليهم السلام.

فموسى عليه السلام أقام الحجج والبراهين الواضحة وجاء بالآيات الصادقة الدالة على نبوته ورسالته، ومع ذلك لم يستجب له قومه وأراد الطاغيةُ فرعون أن يقاوم هذه الحجج والبراهين بالأكاذيب والأباطيل والافتراءات، فعذب بني إسرائيل وقتل أبناءهم واستحيى نساءهم، فأمر الله تعالى نبيه موسى أن يهاجر بقومه، فخرج موسى عليه السلام مهاجرًا مع أخيه وقومه من مصر، فعلم فرعون بخروج موسى فجمع جنوده ليلحق بموسى،

وسجل الله تعالى هذا الحدث فقال: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ] الشعراء:٥٢-٦٨.[
وبذلك ـ يا عباد الله ـ نجى الله تعالى موسى وقومه وجعل ذلك آية وعبرة للمعتبر، فصام موسى ذلك اليوم شكرًا لله تعالى،
<u>فلما هاجر رسول الله إلى المدينة</u> مَرَّ بأناس من اليهود قد صاموا يوم عاشوراء، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله : ((ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)) فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه، فقال رسول الله : ((فنحن أحق وأولى بموسى منكم))، فصامه رسول الله وأمر بصيامه. وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حين صام رسول الله يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى! فقال رسول الله : ((فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع))، قال :فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله . وروى مسلم عن أبي قتادة أن رجلا سأل رسول الله عن صيام يوم عاشوراء، فقال: وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله

الباب السادس
ابتلاء الأنبياء والصحابة

الحكمة من ابتلاء الأنبياء
نعرف أن المصائب تكون بسبب الذنوب ، وأنها تكفر الذنوب ، لكن ما الحكمة من المصائب التي كانت تصيب الأنبياء ؟ .

أولاً
من أسباب المصائب : الذنوب ، ولكنها ليست السبب الوحيد ، فقد يبتلي الله تعالى بعض عباده الذين لم يذنبوا ، لينالوا أجر الصابرين ، وترتفع بذلك درجاتهم ، كما قد يبتلي الله بعض الأطفال ، وهم لا ذنب لهم . وانظر لمعرفة الحكمة من حصول الابتلاءات جواب السؤال رقم .

ثانياً
أشد الناس بلاء الأنبياء
روى الترمذي عَنْ سَعْد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ
وقد ذكر الله تعالى في كتابه صوراً من الابتلاء الذي تعرض له الأنبياء

قال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) البقرة/٨٧ .
وقال تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) البقرة/٩١ .
وقال تعالى : (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) آل عمران/١٨٤ .
وقال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) الصف/٥ .
وقال تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) التوبة/٦١ .
وابتلي إبراهيم عليه السلام بمعاداة أبيه وقومه له ، وبالإلقاء في النار .
قال الله تعالى : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ) الأنبياء/٦٨-٧٠ وابتلي بالأمر بذبح ابنه إسماعيل
(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) الصافات/١٠٢-١٠٧ .

قال ابن القيم في الفوائد

"الطريق طريقٌ تعِب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورُمي في النار الخليل ، وأُضْجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين ، ونُشر بالمنشار زكريا ، وذُبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضرَّ أيوب ... وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم " انتهى .

وأُخبر نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالابتلاء في أول يوم من النبوة :
قال ورقة بن نوفل : (يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا) رواه البخاري

ثالثاً

وأما الحكمة في ابتلاء الأنبياء ؛ فقد قال ابن القيم في "بدائع الفوائد"
"فإنه سبحانه كما يحمي الأنبياء ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم
١.ليستوجبوا كمال كرامته .
٢.وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم .

٣.ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم .
فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه " انتهى .
وقال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة"
"وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلِّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان . . . وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين الكرامة في حقهم ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والنعمة ، فكم لله مِن نعمة جسيمةومنَّة عظيمة تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان .
فتأمل حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة . . .
وتأمل حال أبينا الثاني نوح صلى الله عليه وسلم وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه ، وأغرق أهل الأرض بدعوته ، وجعل العالم بعده من ذريته ، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل ،وأمَر رسولَه ونبيه محمَّداً أن يصبر كصبره ، وأثنى عليه بالشكر فقال) إنه كان عبداً شكوراً) فوصفه بكمال الصبر والشكر .
ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم صلى الله عليه وسلم إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم ، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله ، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه . . . وضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتىملؤوا الدنيا ، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة ، وأخرج منهم محمَّداً صلى الله عليه وسلم وأمَره أن يتبع ملة أبيه إبراهيم . . .
ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلَّمه الله تكليما ، وقرَّبه منه ، وكتب له التوراة بيده ، ورفعه إلى أعلى السموات ، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره ، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت ، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجرَّه إليه ، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه ، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ، وربه يحبه على ذلك كله ، ولا سقط شيء منه من عينه ، ولا سقطت منزلته عنده ، بل هو الوجيه عند الله القريب ، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله : لم يكن ذلك .
ثم تأمل حال المسيح صلى الله عليه وسلم وصبره على قومه واحتماله في الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقممن أعدائه ، وقطَّعهم في الأرض ومزَّقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر . .
فإذا جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتأملت سيرتَه مع قومه وصبره في الله ، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله ، وتلون الأحوال عليه مِن سِلْم وخوف ، وغنى وفقر ، وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى

من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان ، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي ، ولم يحتمل في الله ما احتمله ، ولم يعط نبي ما أعطيه ، فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم عنده شفاعة ، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته ، وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا ، وساقه بها إلى أعلى المقامات

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كلٌّ له نصيب من المحنة ، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له .

إن واحدة من أكثر السنن ثباتاً واطراداً في تاريخ الدعوات والرسالات ، هي سنة الابتلاء والفتنة

ابتلاء الأنبياء

فلا يوجد نبي من الأنبياء إلا وتعرض في حياته لنوع من الابتلاء أو أكثر ، وذلك ابتداءً من سيدنا آدم ، وحتى سيدنا محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فمنهم من تعرض لفتنة التحريق ، كسيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى : ((قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)).الأنبياء(٧٠)

ومنهم من تعرض لفتنة التغريق ، كسيدنا يونس عليه السلام.

قال تعالى : ((وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أن كان من المسبِّحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)) الصافات (١٣٩)

ومنهم من تعرض لفتنة السجن ، كسيدنا يوسف عليه السلام.

قال تعالى : ((ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنُنَّه حتى حين)) يوسف (٣٥)

ومنهم من تعرض لفتنة المرض ، كسيدنا أيوب عليه السلام.

قال تعالى : ((وأيوب إذ نادى ربه أني مسنيَ الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين)) الأنبياء (٨٣)

ومنهم من تعرض لفتنة الفقر والجوع والحصار ومحاولة القتل ، كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى:

((وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين)) الأنفال(٣٠)

ومنهم من تعرض لفتنة اليسر والغنى ، كسيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام.

قال تعالى : ((وورث سليمانُ داودَ ، وقال يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأُوتينا من كل شيء ، إنَّ هذا لهو الفضل المبين)) النمل (١٦)

ومنهم من تعرض لفتنة القتل ، كسيدنا يحيى ، وسيدنا زكريا عليهما السلام ، وغيرهما.

قال تعالى متحدثاً عن بني إسرائيل:

((وضُربتْ عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)) . البقرة (٦١)

ومنهم من أوذي في نفسه ، كسيدنا يعقوب الذي عمي ، وسيدنا عيسى الذي حاول المجرمون صلبه ، عليهما السلام .

قال تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام : ((وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم)) يوسف (٨٤)

وقال عن سيدنا عيسى عليه السلام : ((...وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم .. بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً)) النساء (١٥٥)

ومنهم من أوذي في عِرضه ، كسيدنا إبراهيم عليه السلام ، يوم راود ملكُ مصر زوجتَه سارّة ، عن نفسها لولا أن حفظها الله منه.

ومنهم من فُتن في ولده وفلذة كبده ، كسيدنا إبراهيم ، إذ أمره الله بذبح ولده إسماعيل بيده ، عليهما السلام.

قال تعالى : ((فلما بلغ معه السعيَ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ما ذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين)) الصافات (١١٠)

وسيدنا نوح عليه السلام ، الذي رأى غرق ولده بعينه.

قال تعالى : ((ونادى نوحٌ ابنه وكان في معزل ، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمُني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)) هود (٤٥).

ولا يوجد نبي أو مرسل صلوات الله عليهم ، إلا وتعرض لنوع من السخرية والتكذيب من قومه . كما لا يوجد واحد منهم إلا وكانت له نوع من الهجرة عن وطنه.

وهناك من تعرض منهم لأكثر من نوع من الابتلاء ، وجمعت له أكثر من فتنة . كسيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذي جمعت له فتنة الحرق بالنار ، وفتنة الهجرة ، وفتنة ذبح الولد ، وفتنة تهديد العرض والشرف . إلخ!!.

وسيدنا يوسف عليه السلام ، الذي جمعت له فتنة الجب ، وفتنة الرق ، وفتنة الجنس ، وفتنة الحبس ، وفتنة الهجرة ، وفتنة الغربة ، وفتنة الملك والحكم.

وسيدنا أيوب عليه السلام ، الذي جمع الله له فتنة المرض ، وفتنة الفقر ، وفتنة فراق الأهل والأحباب.

فلقد أورد ابن كثير قال : روى ليث عن مجاهد قال : (إن الله يحتجُّ يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء ، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء) قصص الأنبياء

١- محمد(ص)

ولقد شاءت إرادة الله أن تسلط على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم _ قبل البعثة وبعدها _أنواعاً عجيبة من الابتلاءات والمحن ، ليكون في صبره عليها وتحملها ، قدوة للدعاة والقادة من بعده .

ولعل من أبرزها :

<u>* ابتلاء اليتم ، وموت الأحباب :</u>

فلقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم _و هو حبيب الله ومصطفاه، والمرشح لقيادة خير أمة أخرجت للناس _يتيماً ..

فقد مات أبوه عبد الله ، وأمُّه حامل به لشهرين .

ثم لم تلبث أ ُمه آمنة أن ماتت هي الأخرى ، وعمره لا يتجاوز السنوات الست .

ثم لم يلبث جده وكافله عبد المطلب ، أن مات هو أيضاً ، وعمره لا يتجاوز ثماني سنوات .

فعاش طفولته كلها بعيداً عن حنان الأم ، وعطف الأب ، وحدب الجد. واستقبل التكليف الرباني بصفاء اليتم وشفافية الوحدة .

كما ابتلاه الله بموت أولاده الذكور دون الإناث ، حتى سماه المشركون الأبتر ، وذلك إمعاناً في السخرية منه .!

وما ان حل العام العاشر من بعثته الشريفة ، حتى توفى الله زوجته خديجة رضي الله عنها ، وألحق بها عمَّه أبا طالب بعد أقل من شهرين من نفس العام ...

ولقد كانت خديجة رضي الله عنها كما قال ابن هشام : وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجد عندها أنسه وسلواه .أما أبو طالب ، فقد كان عضداً وحرزاً في أمره ، وكان ناصراً له على قومه ..

يقول ابن هشام : فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته ..

كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم صابر، محتسب ، راض بقضاء الله ، لا يزيد على أن يقول:(حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا اليه راجعون ، ولا نقول إلا ما يرضي الله) .

<u>محمد اليتيم:</u>

إن حاجة المولود إلى أبيه لا تخفى على أحد، لاسيما في البيئة العربية ونظام المراضع، اللواتي يحظين بالعطاء الجزيل، في مقابل إرضاع المولود شكل من أشكال العز، الذي يحيط بالمولود، ثم يبقى مع سيرة الولد، فيقال: المسترضع في بني فلان أو بني فلان، يبقى حديث الرضاعة جزء من سيرة الرجل، فإذا ما صار للرجل شأن، كان ذلك من مفاخر المرضع وقبيلتها!

لم يشعر المولود بهذا الحرمان، ولكن مثله حينما يتذكر أيامه في المهد على هذه الحال، غالباً ما يتأثر، خاصة إذا توالت عليه النوائب.. كموت الأم، ثم موت الجد، ثم التواجد التكافلي في

بيت العم، رغم حنو هذا العم، ورغم تتابع السنين في بيت عطوف، إلا أننا لا ندري ماذا عانى محمد مما يعانيه الأطفال في مثل سنه، وفي غير بيته؟!

إن الضعف النفسي والانكسار الوجداني لليتيم، ثم اللطيم، كان من إرادة الله بهذا الطفل، الذي يعده الله لأمر عظيم، على خلاف أحوال الأطفال، الذين قد يعدون في نعمة الآباء، ونعيم الأمهات لشؤون دنيوية، بل على خلاف أحوال أنبياء سابقين، أُعدوا بين آبائهم وأمهاتهم.

روى عدد من كتاب السيرة والمحدثين الثقات أن عبد المطلب أرسل محمداً ذات مرة في طلب إبل له، ضلت، فغاب وقتاً، فحزن عليه جده حزناً شديداً، وعندما عاد محمد بالإبل، أقسم عبد المطلب ألا يبعثه في حاجة له أبداً، ولا يفارقه بعد هذا أبداً!

ولما مات جده، اعتنى به عمه أبو طالب، فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد، وظل يحوطه بعنايته إلى ما بعد البعثة، حين حاربه جميع قومه...

أسأل القارئ: هل يعوض ذلك كله عن عطف الأب وحنان الأم؟

لقد صنع الله للطفل محمد اليتيم شيئاً من عطاء الأبوة والأمومة في قلوب الجد والعم وتوابعهما (ألم يجدك يتيماً فآوى)، ولكن من أعطف من الأب؟ ومن أحن من الأم؟؟ اللهم إلا أنت، يا خالق العطف، والرب العطوف، ويا خالق الحنان، وأنت الذي أسميت نفسك الحنّان.

لقد طلب - صلى الله عليه وسلم - من ربه أن يزور قبر أمه، فأذن له.. فعلام يدل طلب هذه الزيارة؟

روى مسلم في صحيحه: "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي، فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها، فأذن لي". وعند النسائي، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: زار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبر أمه، فبكى، وأبكى من حوله، وقال: "استأذنت..." الحديث. إنه حتى بعد أن غمرته - صلى الله عليه وسلم - أنوار النبوة، هاهو ذا يعيش لوعة الشوق إلى الأم والتعلق بها، إنها الفطرة السوية وما يتعلق بها من حنين، وما أصابه وبقي في نفسه بسبب فقد حنان الأمحيناً من الدهر في طفولته.

ابتلاء الفقر وشظف العيش :

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حياته فقيراً كادحاً متقشفاً.

بعيداً عن حياة البذخ والترف والإسراف .فهو لم يشبع من خبز البر حتى قُبض . وكان ينام على الحصير فيؤثر في جنبه .!

وكان يباشر أسباب رزقه بنفسه . فكان يرعى الغنم ، كما روى البخاري عنه قال : ((كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة)) . ويشتغل بالتجارة ، فلقد سافر إلى الشام مرتين في الأقل لأغراض التجارة ، مرةً مع عمه أبي طالب وكان له من العمر اثنتا عشرة سنة. ومرة لوحده مضارباً بأموال خديجة ، وهو في الخامسة والعشرين من العمر.

(لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهيئ للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش الكريم ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام والأسفار الشاقة سعياً وراء لقمة العيش . ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم، أن خير مال الإنسان ، ما اكتسبه بكدّ يمينه ، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه. وأن صاحب أية دعوة لن

تقوم لدعوته أية قيمة بين الناس ، اذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساس عطايا الناس وصدقاتهم .
ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بان يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه .حتى لا تكون لأحد من الناس عليه منّة أو فضل في دنياه ، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم). البوطي ٦٧
الأذى والابتلاء من المشركين :
لقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع إخوانه المؤمنين في مرحلة الاستضعاف المكية ، الى أصناف من الأذى والابتلاء من قبل المشركين ، لا يصبر عليها إلا الصفوة من البشر .
وسأقسم البحث الى قسمين: أ. الأذى المعنوي ب. الأذى المادي
أ- **الأذى المعنوي** : ويشمل مايلي :
١. السخرية من العقيدة ، ومنع أداء الشعائر التعبدية :
فقد منع المشركون الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أن يجاهر بعبادته ، وضيّقوا عليه وعلى أصحابه في ذلك حتى ألجؤوهم الى شعاب الجبال . وهنا أود أن اؤكد أن مشكلة المسجد وإقامة شعائر الصلاة والعبادة فيه بصورة علنية وجماعية ، لم تكن مطروحة في هذه المرحلة بل هي من سمات مرحلة التمكين . واقرأ معي إن شئت قوله تعالى: ((الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة)) . الحج
وهذا لا يتعارض مع ما للصلاة من أهمية عظيمة في تربية القاعدة الصلبة من المؤمنين ، وإعدادهم وتهيئتهم للدور العظيم الذي ينتظرهم في تحمل أعباء الرسالة الجديدة ، يعكسها فرض الله لها في أوقات مبكرة جداً من الدعوة المباركة ، إنما نتكلم عن إقامتها بشكل جماعي وبصورة منظمة . ولذلك ما إن وطئت أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرض مهجره ، حتى بنى المسجد الشريف ، وأقام الشعائر العبادية فيه، وذلك حتى قبل أن ينزل متاعه عن رحله .!
٢. فتنة التهديد :
لقد مارس المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وسيلة لثنيه عن تبليغ دعوة ربه. ومن جملة هذه الأساليب ، التهديد له ولأصحابه ، ولعمه أبي طالب الذي كان يحميه ، على الرغم من أنه كان على دين قومه .
فقد ذكر ابن هشام : أن المشركين مشوا إلى أبي طالب ، لما فشا أمر الإسلام في مكة ، يهددونه ، ويتوعدونه ، إما أن يكف عنهم ابن أخيه، أو ينازلوه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين. وكانت هذه التهديدات بمثابة حرب نفسية ذات أثر معنوي مرعب .
لم يصمد لها أبو طالب في البداية ، فجاء يناشد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفف عنه عبء قريش ، وأن لا يحمله منهم ما لا يطيق . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف كالأسد الهصور ، يعلن كلماته الخالدة ، التي لا يزال صداها يجلجل في أرجاء الكون ، والتي ستبقىنبراساً لكل القادة والدعاة من بعده : ((يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته))
٣. فتنة الإغراء :

ومن الوسائل التي جربوها أيضاً ، فتنة الإغراء .
فقد عرض عليه عتبة بن ربيعة ،وكان سيّداً ذا بصيرة ورأي في قومه فقال : (يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .
وإن كنت تريد به شرفاً، سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك .وإن كنت تريد به ملكاً ، ملّكناك علينا).
وروى الطبري وابن كثير وغيرهما أن نفراً من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، جاؤوا فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم ، وأن يزوجوه أجمل أبكارهم ، على أن يترك شتم آلهتهم ، وتسفيه أحلامهم. فلما رفض إلا الدعوة الى الحق الذي بُعث به .
قالوا :فتعبد آلهتنا يوماً ونعبد إلهك يوماً.!فرفض ذلك أيضاً وقال: ((يا قوم .. والله ما بي ما تقولون ، وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أنأكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)) .
إصرار عجيب على الدعوة ، وتمسك كامل بالخطة ، وصبر عنيد على الفتنة . ثم ما لبث أن جاء الوحي يؤيد هذا النهج ويدعمه : (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين))

٤. الحرب النفسية والإعلامية :

لقد سلطت الجاهلية على رسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً نفسية وإعلامية هائلة . فقد اتهموه بأنه كاهن ، واتهموه بأنه مجنون ، واتهموه بأنه شاعر ، وساحر ، الخ .!
كل ذلك و رسول الله صلى الله عليه وسلم، مظهر لأمر الله لايستخفي به .مبادئُهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم.
وكان كلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول حتى يُرى ذلك في وجهه . قال ابن هشام حدثني بعض أهل العلم :إن أشد ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لاحرٌّ ولاعبد ، فرجع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى منزله ، فتدثّر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله عليه :(يا أيها المدثر، قم فانذر)المدّثر(١).
وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وهو يعد بحق زعيم الامبراطورية الإعلامية المعادية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة والجزيرة كلها ، كان قد قدم الحيرة ، وتعلم منها أحاديث ملوك فارس ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام . ثم قال : أنا والله يا معشر قريش ، أحسن حديثاً منه ، فهلمّ إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، وما حديثه إلا أساطير الأولين .! ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم يقول :بماذا محمد أحسن حديثاً مني .؟ قال ابن هشام : وهو الذى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله .!وقال ابن اسحق : وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : نزل فيه ثمان آيات من القرآن . قول الله عز وجل :
((إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين)) . وكل ما ذكر فيه من الأساطير في القرآن .

وكان بعضهم إذا مر وسمعه يتلو آيات الله يقول : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون أي اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً ، لأنكم إن ناظرتموه وجادلتموه غلبكم ...
وكان مجموعة من المشركين وعلى رأسهم أبو جهل ، يسخرون من القرآن ، ويتهكمون على العقيدة ..
فلقد قال أبو جهل يوماً ساخراً : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم .!؟ فأنزل الله : ((وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا)).المدثر(٣١)،
ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمه أبي لهب ، وزوجته أم جميل أشد أنواع الأذى ، حتى ان أم جميل كانت تطرح في طريقه الشوك حيث يمر.. فانزل الله فيهما : ((تبت يدا أبي لهب وتبّ ، ما أغنى عنه مالُهوما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأتُه حمالةَ الحطب ، في جيدها حبلٌ من مسد)).
ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي يدها (فِهْر) من حجارة .
فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم تعد ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر، أين صاحبك فقد بلغني أنه يهجوني !؟ والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهْر فاه .! ثم انشدت : مذمما عصينا .. وأمرَه أبينا .. ودينه قلينا ..
ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يارسول الله أما تراها رأتك .!؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((لقد أخذ الله ببصرها عني)).!!
ثم بلغت القِحّةُوالنذالة ببعض المشركين ، أن يتجرؤوا فيبصقوا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى ابن هشام فقال :كان أ ُبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، صديقين متصافيين ، حسناً ما بينهما ، وحدث أن جلس عقبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فاستمع منه ، فبلغ ذلك أ ُبيّاً ، فأتى عقبة فقال : ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه.!؟
قال بلى .
قال : وجهي من وجهك حرام أن أكلمك ، إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأته فتتفل في وجهه .
ففعل ذلك عدوُّ الله عقبة بن أبي مُعيط لعنه الله .!
فأنزل الله فيهما : ((ويوم يعضُّ الظالم على يديه ، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لـم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقـد أضلني عـن الذكر بعـد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً)) الفرقان(٢٧).
ولم تقتصر المعركة الاعلامية على مكة بل تعدتها الى الجزيرة العربية كلها . فكان من جملة ما يؤذون به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يسخروا منه أمام الضيوف والوافدين الى مكة ، ويشوهوا سمعته بين القبائل العربية .!

فكثيراً ما كان يمشي خلفَه عدوُّ الله أبو لهب ، وهو يطوف على القبائل في موسم الحج ، ويعرض نفسَه عليها ليمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ، وعمُّه أبو لهب وراءه يقول : لا تسمعوا منه فأنه كذاب.

ولقد روى ابن هشام عن ابن اسحق قال : قدم رجل من إراشة (بطن من خثعم) بإبل له مكة فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد جالس، فقال : يا معشر قريش ، من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ، قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس – وأشاروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يهزؤون به ، لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة – اذهب إليه فانه يؤديك عليه .!

وفعلاً ذهب الإراشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام معه الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أنصفه من أبي جهل بتأييد الله وعونه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا جلس في المسجد ، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه ، من أمثال خباب ، وعمار ، وصهيب، وأشباههم من المسلمين ، رضوان الله عليهم ، سخرت منهم قريش .

وقال بعضهم لبعض: أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ..!؟

لعمرو الله ، لو كان ما جاء به محمّدٌ خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء .!

وكان من جملة ما يؤذونه به صلى الله عليه وسلم ،أن يعيروه بنسله.!

فقد روى ابن هشام عن ابن اسحق قال : كان العاص بن وائل ،اذا ذُكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره ، واسترحتم منه.

فأنزل الله : ((إنا أعطيناك الكوثر)) . ما هو خير له من الدنيا وما فيها ...

ولقد بلغت ذروة التكذيب والتضليل ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما أكرمه الله بمعجزة الإسراء والمعراج .

فلما أصبح وحدث الناس بها ، طفِقَ المشركون يجمع بعضهم بعضاً ، ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويسخروا منه.

<u>٥.الاتهام بالعمالة للأجنبي:</u>

لا يعدم الأعداء في كل زمان و مكان ، أن يجدوا تهمة يلصقونها بالإسلاميين ، ومن أقدم هذه التهم (العمالة للأجنبي).

فلقد اتهموا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : (ولقد علمنا أن الذي يعلمك هذا رجل باليمامة اسمه الرحمن ، ووالله لا نؤمن بالرحمن أبداً) .

وهم يعلمون تماماً ، مدى كذبهم في هذا الاتهام ، ومدى تجنيهم عليه في هذا الادعاء

<u>٦. إيذاؤه في عِرْضه :</u>

لقد كانت واحدة من أخس وسائل الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هي إيذاؤه في بناته.

فقد أمر عدوّ الله ، أبو لهب ، ولديه ، بتطليق بنتي الرسول صلى الله عليه وسلم ، اللتين كانتا تحتهما ، وذلك إيغالاً منه في الأذى لنفس رسول الله الحساسة ، وروحه الشفافة ، صلى الله عليه وسلم .
كما قام أبو سفيان مع مجموعة من رجاله بالتعرض لإحدى بناته ، وهي زينب رضي الله عنها ، ومنعوها من الهجرة واللحوق بأبيها .
ولقد أورد ابن هشام عن ابن اسحق ، أن هبَّار بن الأسود بن المطلب، روّعها وهي في هودجها حتى سقطت على صخرة وهي حامل فطرحت ما في بطنها .
وذكر عن غير ابن اسحق ، أن هبَّاراً نخس بها الراحلة فسقطت على صخرة وهي حامل ، فهلك جنينها ، ولم تزل تهريق الدماء حتى ماتت بالمدينة وانظر الاستيعاب والروض الأُنف
حادث الافك
كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺمعه، قالت عائشة" فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أحُمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺمن غزوته تلك وقفل ودنونا (أي اقتربنا) من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم إنما تأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي."
إنما يدخل علي رسول الله ﷺفيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت فخرجت معي (أم مسطح) قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت "تعس مسطح"، فقلت لها "بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدراً "قالت "أي هنتاه أو لم تسمعي ما

قال" قالت قلت "وما قال؟" فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ تعني سلم ثم قال "كيف تيكم" فقلت "أتأذن لي أن آتي أبوي" قالت "وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما" قالت "فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي" فقلت لأمي "يا أمتاه ما يتحدث الناس" قالت "يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها" قالت "فقلت سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا" قالت "فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي."

فدعا رسول الله ﷺعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال "يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا" وأما علي بن أبي طالب فقال "يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك" قالت "فدعا رسول الله ﷺ بريرة" فقال "أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك" قالت "بريرة لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله" فقام رسول الله ﷺفاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي" فقام سعد بن معاذ فقال "يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك" قالت "فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت" قالت "فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم" قالت "فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي" قالت "فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت "فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس" قالت "ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني" قالت "فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" قالت "فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺفيما قال" قال "والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ " فقلت لأمي "أجيبي رسول الله ﷺ" قالت "ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ" قالت "فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك

ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون".
قالت "ثم تحولت فاضطجعت على فراشي" قالت "وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها" قالت "فوالله ما رام رسول الله ﷺولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه" قالت "فلما سري عن رسول الله ﷺسري عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك" فقالت أمي "قومي إليه" قالت "فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل."
فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال.فأنزل الله ((وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) النور ٢٢
قال أبو بكر "بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي" فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال "والله لا أنزعها منه أبداً"

قالت عائشة "وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرا قالت وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

ب الأذى المادي :

ومن أشكال الأذى المادي الذي تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أولا : الأذى البدني :
لقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حياته الدعوية إلى أصناف من الأذى البدني لا يصبر عليها إلا أصحاب المبادىء، مثل:

١.القاء التراب على رأسه الشريف .

قال ابن اسحق : ثم إن خديجة بنت خويلد ، وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام ، يشكو إليها .
وبهلك عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره الى المدينة المنورة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم، مالم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهائهم فنثر على رأسه تراباً ، ولما دخل إلى بيته والتراب على رأسه الشريف ، قامت إليه إحدى بناته ، فجعلت

تغسل التراب عن رأسه وهي تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: ((لاتبكي يا بنية فان الله مانع أباك)).. ويقول بين ذلك : ((ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب)).

٢.إلقاء رحم الشاة على ظهره وهو يصلي ، أو رميها في برمته .

قال ابن اسحق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، أبو لهب ، والحكم بن العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ، وكانوا جيرانه لم يُسلم منهم أحد إلا ابن أبي العاص .

فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يرميها في برمته(قدر من حجر) اذا نُصبت له .حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجراً (حائطاً) يستتر به منهم إذا صلى .وكان إذا طرحوا عليه الأذى ، يخرج به على العود ، فيقف على بابه ثم يقول (يابني عبد مناف ! أي جوار هذا .!؟)). ثم يلقيه في القمامة .

ولقد تكرر هذا الموقف المشين أكثر من مرة ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم ، ساجد في الحرم وحوله ناس من قريش ، جاء عدو الله ، عقبة بن أبي معيط ، بسَلا جزور ، فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع رأسه ! فجاءت فاطمة رضي الله عنها ، فأخذته فطرحته عنه وهي تدعو على من صنع ذلك بأبيها

٣.ومن الأذى محاولة الخنق .

فقد روى البخاري أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة، اذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله .!؟

٤.ولعل من أقبح أنواع الأذى البدني ، ما تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم ، أثناء رحلته الشهيرة الى الطائف.

وقصة ذلك باختصار : أنه لما نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم ، ما وصفناه من الأذى ، خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .

ولما انتهى صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ ساداته ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وكلمهم بما جاءهم من أجله فردوا عليه رداً منكراً ، وفاجؤوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش .

فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً ، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبّونه ويصيحون به ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماه ، وزيد بن حارثة رضي الله عنه ، يقيه بنفسه ، حتى لقد شُج في رأسه عدة شجاج

ولا يمكن أن نتصور هذا المشهد الدامي على حقيقته حتى نقرأ هذه الرواية التي أوردها أهل السير ، والتي جاء فيها :

أن المجرمين من ثقيف رجموا عراقيبه بالحجارة ، حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض ، فيأخذون بعضديه ويقيمونه ، فإذا مشى رجموه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه شجاجاً .!

ثانياً : الحصار الاقتصادي :

كـان الحصار الاقتصادي الذي فرضه المشركون في مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، بمثابة اعتقال جماعي ، أو فرض الإقامة الجبرية.!

وقصة ذلك باختصار كما وردت بأسانيد مختلفة : ان كفار قريش لما أبى بنو هاشم وبنو المطلب ، تسليم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ليقتلوه ، أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ، ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب أيضاً .فكتبوا بذلك كتاباً ، تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدَعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ولا يقبلوا منهـم صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يُسلم بنو المطلب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم اليهم ليقتلوه . وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة ، والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات ، بدءاً من المحرم للسنة السابعة من بعثته الشريفة ، إلى السنة العاشرة منها .

فجهد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة ، واشتد عليهم البلاء ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط وأوراق الشجر .

وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة ، يأتي أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته لاهله ، فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالواعلى أصحاب محمد حتى لايدركوا شيئاً مما معكم.

فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الواحد منهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به

ثالثاً : محاولات القتل والاغتيال :

قد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال هذه الفترة لعدة محاولات لاغتياله كان أهمها:

طلب قريش من أبي طالب أكثر من مرة تسليمهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكان في كل مرة يأبى عليهم ذلك .

محاولة أبي جهل ، رضخ رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد في الحرم ، لولا لطف الله وحفظه ..

محاولة عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في الحجر ، لولا تدخل أبي بكر رضي الله عنه ومنعه من ذلك

محاولة عمر بن الخطاب المشهورة والتي انتهت بإسلامه في دار الأرقم .

وأخيراً المؤامرة الكبرى التي عقدها المشركون بحضور إبليس اللعين، للتخلص من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبيل هجرته الشريفة إلى المدينة المنورة والتي نجّاه الله منها بفضله وكرمه ، وأنزل فيها قوله تعالى (وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكرُ الله ، والله خير الماكرين)). الأنفال (٣٠). ،

وبهذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد تعرَّض في حياته الشريفة ، لكل أشكال الأذى والفتنة والابتلاء .

وكان قدوة لأمته في الصبر على البلاء ، وتحمل ألوان الأذى ، وأشكال الفتنة ، من أجل دينه ، وعقيدته ، ومبادئه .

فحري بكل من ابتلي بمهام قيادية ، ودعوية ، في هذا العصر ، أن يقتدي به ، ويتأسى بأخلاقه ، وينسج على منواله ، ويسير على نهجه ..

فمن سنية الابتلاء أن الله ابتلى أفضل خلقه وهم رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهم أفضل الدعاة إلى توحيده سبحانه ، فابتلاهم بالمرسل إليهم حين يدعونهم إلى الحق والصبر على أذاهم ، وتحمل المشاق في تبليغ رسالات ربهم

فهذا محمد - صلى الله عليه وسلم - بين الله عز وجل في هذه السورة أنه ابتلي بقوم جحدوا آيات الله مع علمهم بها ، قال تعالى عنهم : سورة العنكبوت الآية ٥٠ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ كما اتهم بالسحر والتعلم من الكهنة ، حتى أخرج هذا الكتاب ، فالله عز وجل نفى عنه هذه التهمة بقوله سبحانه : سورة العنكبوت الآية ٤٨ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

والواقف على سيرته - صلى الله عليه وسلم - يرى ما حصل له من فتنة وبلاء أشد من هذا ، كالحصار في الشعب ، ووفاة عمه أبي طالب ، وزوجه خديجة وغير ذلك ، ولكنه كان صابرا محتسبا ، كما ابتلي نبي الله نوح بكفر قومه واستهزائهم به مع طول لبثه فيهم ، قال تعالى : سورة العنكبوت الآية ١٤ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فهذا تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، أي : ابتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا . ،

صبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

لا يزالُ الحديثُ عن جانبٍ من جوانبِ عظمتِه (صلى اللهُ عليه وسلم)، وعظمتُه تبهرُ العقول، وتخلبُ الألباب، وتحيرُ الأفكار، إنهُ عظيمُ لأنَه عظيم، وإنه صادقُ لأنَه صادق، بنى رسالةً أرسى من الجبال، وأسسَ مبادئ أعمقُ من التاريخ، وبنى جدارا لا يخترقُه الصوت، إنه (صلى اللهُ عليه وسلم) حيثما توجهتَ في عظمتِه وجدتَ عظمتَه، فهيا بنا إلى جانبِ الصبرِ في حياتِه (صلى اللهُ عليه وسلم).

ذكرَ الصبرُ في القرآنِ في أكثرِ من تسعينَ موضعا، مرةً يمدحُ اللهُ الصابرين، ومرةً يخبرُ اللهُ بثوابِ الصابرين، ومرةً يذكرُ اللهُ عز وجل نتائجَ الصابرين، يقولُ لرسولِه (صلى اللهُ عليه وسلم) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا رأيتَ الباطلَ يتحدى، وإذا رأيت الطغيانَ يتعدى فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا قل مالُكَ وكثرَ فقرُكَ وعوزُك وتجمعتَ همومُك وغمومُك فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا قتلَ أصحابُك وقل أصحابُك وتفرقَ أنصارُك فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا كَثُرَ عليك الأعداء، وتكالبَ عليك البُغضاء وتجمعت عليكَ الجاهليةُ الشنعاء فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا وضعوا في طريقِك العقبات، وصنفوا لك المشكلات، وتهددوكَ بالسيئاتِ وأقبحَ الفعلات: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

إذا مات أبناؤكَ وبناتُك وتفرق أقرباءُك وأحباؤكَ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا.

فكانَ مثالا للصبرِ عليه السلام، سكنَ في مكةَ فعاداهُ الأقرباءُ والأحباء، ونبذَه الأعمامُ والعمومةَ، وقاتلَه القريبُ قبل البعيد فكانَ من أصبر الناس، أفتقرَ وأشتكى، ووضع الحجرَ على بطنِه من الجوع وظمأَ فكان من أصبر الناس.

مات أبنَه بين يديه وعمرُه سنتان، فكان ينظرُ إلى أبنِه الحبيبِ القريبِ من القلبِ، ودموعُ المصطفى (صلى الله عليه وسلام) الحارةُ تتساقطُ كالجُمان أو كالدر على خدِ أبنِه وهو من أصبرُ الناس يقول: تدمع العين، ويحزنُ القلب، ولا نقولُ إلا ما يرضي ربَنا، وإنا بفراقِك يا إبراهيمُ لمحزونون.

مات خديجةُ زوجُته وامرأته العاقلةُ الرشيدة، العاقلةُ الحازمةُ المرباةُ في بيتِ النبوة، التي كانت تؤيدُه وتنصُره، ماتت وقت الأزمات، ماتت في العصر المكي يوم تألبت عليه الجاهليةُ، وقد كانت رضي اللهُ عنها ساعدَه الأيمن.

يشتكي إليه من كثرةِ الأعداء، ومن الخوفِ على نفسِه فتقول: كلا واللهِ لا يخزيكَ اللهُ أبدا، إنك لتصلُ الرحم، وتحملُ الكلَ، وتعينُ الملهوفَ، وتطعمُ الضيفَ، كلا واللهِ لا يخزيكَ اللهُ أبدا.

فتموتُ في عام الحزن فيكونُ من أصبر الناس لأن اللهَ يقولُ له: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً.

تجمع عليه كفارُ مكةَ، أقاربُه وأعمامُه، نصبوا له كمينا ليقتلوه ويغتالوه، فدخلَ دارَه، وأتى خمسونَ من شبابِ قريش، كلُ شابٍ معَه سيفُ يقطرُ دما وحقدا وحسدا وموتا، فلما طوقوا دارَه كان من أصبرِ الناس، خرج من الدار وهم في نعاسٍ وسباتٍ فحثا على رؤوسِهم الترابَ لأن اللهَ يقولُ له: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً.

ولما حثا الترابَ على رؤوسِهم كانوا نياما قد تساقطت سيوفُهم من أياديهم، والرسول عليه الصلاة والسلامُ يتلو عليهم: وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ.

(شكوى قريش لأبي طالب الأولى)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله سرًّا في بداية بعثته إلى أن اجتمع حوله عدد من أصحابه، فأمره الله تعالى بأن يجهر بالدعوة **(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)** (الحجر : ٩٤)

وأمره بأن يبدأ بإنذار أقاربه **(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** (الشعراء : ٢١٤) فأنذر وبشر وجمع بين الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ، الدعوة إلى عبادة الله وحده والتخلق بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام التي هي أعظم المنكر وكذلك التخلي عن مساويء الأخلاق .

فلما عاب أصنام المشركين وسفه أحلامهم بعبادتها عرفوا أنه لن يَبْقَى على ماهو عليه من دينه ويتركهم على ماهم عليه من المنكر فناصبوه العداء وحاولوا تفريق المؤمنين بدعوته بكل ماأوتوا من قوة وحيلة

ولما رأوا صلابة إيمان أتباعه وأن أمره صار ينتشر بين جميع طبقات المجتمع بسرعة وقوة حاولوا التأثير عليه ليترك دعوته أو يغير من أسلوبها في النكير عليهم وتسفيه أحلامهم ..

حاولوا ذلك بالترغيب أحيانًا وبالترهيب أحيانًا أخرى ولكن حال دون وصولهم إلى أغراضهم

صلابته في إيمانه وعطف عمه أبي طالب عليه ودفاعه عنه وتهديده لقريش إن وصلوا إليه بالأذى .

وإن هذا لموقف عظيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب ، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف ، ومهما وُضع في طريقه من عقبات ، وأنه على استعداد كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين ، فضرب بذلك المثل العالي لأمته والقدوةَ الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته ولو أدى ذلك إلى هلاكها.

فليسر على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة وتحمل كل مايواجههم من صعوبات ونكبات فإن لهم فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه ، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاق على نفسه ، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيرًا من التنازل عن دعوته ، بل لامقارنة بين الأمرين لأن أحدهما صعب والآخر مستحيل .

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق وإصدار القرار السامي الذي لاخيار له فيه فإنه لابد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه واسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير وأدخله في معركة حامية مع قومه، في الوقت الذي كان يتوسل إليه أن لايوقعه في ذلك ، فكانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف .

إن دموع فحول الرجال الأشداء غالية ، وتكون أشد غلاء حينما تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة ، وإن غلاء تلك الدموع ليصور لنا جسامة المسؤولية التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والأعمال التي تتعارض معها .

يتساءل بعض الناس ويقول: لماذا هذا العذاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللصحابة أليسوا على الحق؟ لماذا لم ينصرهم الله ابتداء؟ ولماذا لم يعصمهم الله من إيذاء الكفار والمشركين؟

والجواب على هذا التساؤل هو :أن للإنسان في الدنيا أول صفة أنه مبتلى، وأنه مكلف بإعلاء الدين وإظهار كلمة الإسلام، العبودية لله سبحانه وتعالى،

فالله يقول:وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون [الذاريات:٥٦]

وقال:الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ [الملك:٢] أي: يختبركم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [الملك:٢]

وقال:إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [الكهف:٧].

فمستلزمات العبودية والابتلاء والتكليف تحمل المشاق، ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الابتلاءات والفتن، والفتنة والابتلاء هي المحك وهي الميزان الذي يميز به بين الصادق والكاذب،

قال الله تعالى فيهموَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [البقرة:٨-١٠].

وجد أناس قالوا: آمنا؛ لكن لما جاء المحك، لما جاء الابتلاء لم يثبتوا تأتي صلاة الفجر فلا يصلون، وأثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر، جاء الجهاد فتخلفوا، جاء الإنفاق فكانوا يلمزون في الصدقات، لما طلبوا للجهاد قال أحدهم: لا تفتني أنا إذا جئت ورأيت النساء لا أستطيع أن أقاتل،

قال الله:أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا [التوبة:٤٩]

طلب منهم الإنفاق قالوا: هذه أخت الجزية.

البلاء سنة إلهية، وسنة كونية ربانية، فإنه لا بد من البلاء للإنسان، حتى يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، لكن كما ذكرت لكم- أيها الإخوة- وهو أن

المسلم عليه أن يسأل الله العافية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس حين سأله وقال: (أدع الله لي يا رسول الله، قال: سل الله العافية، قال: زدني، قال: سل الله العافية، ثم قال: يا عباس ! يا عم رسول الله ما أوتي عبد في الدنيا ولا في الآخرة أحسن من العافية)

فنحن نسأل الله السلامة والعافية، ولكن إذا نزل البلاء فلنصبر ولنحتسب ذلك عند الله سبحانه وتعالى. وفيما نحن فيه من الابتلاء ما يكفينا ويغنينا عن ابتلاء آخر في جسدك أو في مالك أو في نفسك، عليك أن تثبت وأن تستعين بالله سبحانه وتعالى وأن تقوم بالتكاليف فإن فيها غنية.

النبى صلى الله عليه وسلم وصبره على الابتلاء

فعبد الله ورسوله ونبيه ومصطفاه وحبيبه وخليله فضله على أنبيائه ورسله وجعله سيد ولد آدم واتخذه الله خليلا واجتباه وفضله علي الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ومع ذلك كله لما قام صلى الله عليه وسلم بأمر ربه يدعو إلى عبادة الله وحده ابتلاه فكاد الناس يكونون عليه لبدا وتحمل صلى الله عليه وسلم كل ما أصابه من ابتلاء شديد ومحنة أثناء دعوته إلى الله عز وجل.

فلماذا كان ذلك الابتلاء الشديد لخليل الرحمن وحبيب رب العالمين؟ إنها سنن ربانية لا تتغير ولا تتبدل، أن المؤمن يبتلى بالشدائد والمحن تمحيصا له وزيادة لدرجاته عند ربه وأشد المؤمنين بلاء الذين قاموا بواجب الدعوة لله عز وجل وأشد هؤلاء بلاء الأنبياء والمرسلون، فما بعث نبي وما أرسل رسول إلا أوذي في ذات الله عز وجل فليست هناك دعوة بغير ابتلاء، **قال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم** لما سمع منه خبر الوحي الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم : ليتني كنت حيا إذ يخرجوك قومك. فقال صلى الله عليه وسلم: ((أومخرجي هم؟)). قال ورقة: نعم لم يأت رجل بمثل ما أتيت به قط إلا عودي(١)[١]، إلا أوذي. نعم لقد أوذي صلى الله عليه وسلم وابتلي ابتلاء شديدا، آذاه قومه وابتلوه وتحمل صلى الله عليه وسلم كل ذلك في ذات الله.

وهنا في هذه اللمحة من سيرة المصطفي صلى الله عليه وسلم نتعلم درسين جليلين علينا أن نتأملهما ونستفيد منهما ونتعظ بما فيهما من العظة والدروس:

أن الأصل في البلاغ ، أنه إنذار وتبشير قال تعالى: رسلا مبشرين ومنذرين [النساء:١٦٥]. فأمر هذه الدعوة مبني علي الإنذار والتبشير أخذا من قوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين، تأمل أيها المسلم كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بدأ في دعوته تنفيذا للأوامر الإلهية في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين [الشعراء:٢١]. وقوله في صدر سورة المدثر: قم فأنذر وأول ما قام به صلى الله عليه وسلم هو إنذار قومه، فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت: وأنذر عشيرتك الأقربين ((أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فقعد عليه ونادى: يا صباحاه وا صباحاه)) فاجتمع إليه الناس بين رجل يأتي بنفسه وبين رجل يبعث رسوله فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أرأيتم لو أخبرتكم بأن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني. قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا. فأنزل الله تعالى: تبت يدا أبي لهب وتب)) أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم.

٢- ابراهيم عليه السلام

الحوار مع ابيه

ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها
فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال : { أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك }

{ واهجرني مليا } أي واقطعني وأطل هجراني فعندها قال له إبراهيم : { سلام عليك } أي لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى أذى بل أنت سالم من ناحيتي وزاده خيرا فقال : { سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا }
لهذا قال: وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا }
وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم }

عبادة الكواكب

ثم قال تعالى : { وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون هذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز و جل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه

قيل هو الزهرة ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء
والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كانوا يعبدونها

عبادة الاصنام

أما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم وأهانها يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال : { ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون } ؟ أي معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا : { وجدنا آباءنا لها عابدين } أي ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه
وقوله : { وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين } أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم
قيل : إنه قال : هذا خفية في نفسه وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم
وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم كما قال تعالى : { فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم } عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق
فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم { راغ إلى آلهتهم } أي ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء : { ألاتأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين } لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى : { فجعلهم جذاذا } أي حطاما كسرها كلها { إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون } قيل إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار !
{ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم } أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والإزدراء به
{ قالوا فأتو به على أعين الناس لعلهم يشهدون } أي في الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الإقتصاص منه
وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون : { موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى }
فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا : { قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا } قيل معناه : هو الحامل لي على تكسيرهم
إنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات
{ فرجعا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون } أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا : إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لها ولا حارس عندها
{ ثم نكسوا على رءوسهم } قال السدي : أي ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله : { إنكم أنتم الظالمون } أي في عبادتها

الحرق

{ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين }

كما قال تعالى : { قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين }

وذلك أنهم شرعوا يجمعوه خطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم ثم عمدوا إلى حوية عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا !

ويروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول : متى أومر فأرسل المطر ؟ فكان أمر الله أسرع

{ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم } قال علي بن أبي طالب : أي لا تضر به

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : { وسلاما على إبراهيم } لآذى إبراهيم بردها

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم تحرق منه سوى وثاقه

وقال الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره

وقال السدي : كان معه أيضا ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الحوية حوله نار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لايقدرون على الوصول ولا هو يخرج إليهم

وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته : يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك فقال نعم فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت

أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما وأنه قال : ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها وودت أن عيشي وحياتي كلها مثلها إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه

النمرود

كان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان والكافران : النمرود وبختنصر

دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية فلما قال الخليل : { ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت }
يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا وأمات الآخر
الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده
{ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب }
انقطع وسكت ولهذا قال : { فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين }
هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار
أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس بل خرج وليس معه شئ من الطعام
فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأمنه عدليه وقال : أشغل أهلي إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال : أني لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز و جل
بعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبي عليه ثم دعاه الثانية فأبى عليه ثم دعاه الثالثة فأبي عليه وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعي

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعمائة سنة ! عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز و جل بها

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم
انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقى إبراهيم سارة - وهي ابنة ملك حران - وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على ألا يغيرها
ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرا من بلاده
لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتان منهم في ذات الله قوله : { إني سقيم } وقوله : { بل فعله كبيرهم هذا } وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال : أختي فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني

فقامت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إني كنت تعلم آني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر قال : فغط حتى ركض برجله
قال: ما أرسلتم إلى إلا شيطانا أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر
وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن

رجوع ابراهيم

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية

القتال مع لوط

ثم إن لوطا عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا
قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشرة رجلا فاستنقذ لوطا عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قالت سارة لإبراهيم عليه السلام : إن الرب قد أحرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل اله يرزقك منها ولدا

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها : افعلي بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيرا وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل
ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام
قالوا : وولدته وإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجدا

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق

ليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء
فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون }

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية إن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم ترى أحدا فعلت ذلك سبع مرات

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف

مرت بهم رفقة من جرهم فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم و فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم_شب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم

ماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته

قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك به ربك قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا

وهما يقولان : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم }

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة

وهما يقولان : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم }

<u>قصة الذبيح</u>

إسماعيل عليه السلام_{ فلما بلغ معه السعي } أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل

فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا

وهذا اختبار من الله عز و جل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد فقر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته

ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا : { قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى }

فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال : { يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين } وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد

قال الله تعالى : { فلما أسلما وتله للجبين } قيل : " أسلما " أي استسلما لأمر الله وعزم على ذلك وقيل : وهذا من المقدم والمؤخر والمعنى : " تله للجبين " أي ألقاه على وجهه قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه
أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا
فعند ذلك نودي من الله عز و جل : { أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا } أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر بك وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ! ولهذا قال تعالى : { إن هذا لهو البلاء المبين } أي الإختبار الظاهر البين
وقوله : { وفديناه بذبح عظيم } أي جعلناه فداء ذبح ولده
كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه
روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس
وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أن قدمها في حال صغره والله أعلم
وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : { وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين }
أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله : { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟
هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة
ورجح أنه إسحاق واحتج بقوله : { فلما بلغ معه السعي } قال : وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره وهو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي ؟
وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله تعالى أعلم
عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود
جاء عنه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه و سلم : يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : { وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين }
يذكر تعالى : أن الملائكة - قالوا : وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل - لما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف وشوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة

ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم : { وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط } أي لندمر عليهم
فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشارا بذلك قال الله تعالى : { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } أي بشرتها الملائكة بذلك :
{ فأقبلت امرأته في صرة } أي في صرحة : { فصكت وجهها } أي كما يفعل النساء عند التعجب وقالت : { يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا } أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضا وهذا بعلي أي زوجي شيخا ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه
ولهذا قالت : { إني هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد }
وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارا بهذه البشارة وتثبيتا لها وفرحا بها : { قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين } أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه فبشروهما { بغلام عليم } وهو إسحاق
عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : [المسجد الحرام] قلت : ثم أي ؟ قال : [المسجد الأقصى] قلت : كم بينهما ؟ قال : [أربعون سنة]
وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا ببيت المقدس شرفه الله

<u>ذكر بناية البيت العتيق</u>

أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث إنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال بعض السلف : إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض
فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين : [أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلي يوم القيامة]
وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى : { وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا } وقوله : { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه } الآية
قيل : يا رسول الله من أكرم الناس قال : [أكرمهم أتقاهم] فقالوا : ليس عن هذا نسألك قال : [فأكرم الناس يوسف بني الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله] قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : [فعن معادن العرب تسألونني ؟ قالوا : نعم قال : فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا]

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الله] تفرد به أحمد
قال : [لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأوجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور] ؟
عن ابن عباس في قوله تعالى : { وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن } قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس وخمس في الجسد :
في الرأس : قص الشارب والمضمضة والسواك والإستنشاق وفرق الرأس
وفي الجسد : تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء
في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [الفطرة خمس : الختان والإستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط]
عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [عشر من الفطرة : قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء - يعني الإستنجاء]
فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم : { وإبراهيم الذي وفى }
كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال : يارب ما هذا ؟ فقال الله : " وقار " فقال : يا رب زدني وقارا
وزاد غيرهما : وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل
فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن المعصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم إحترام مثلها وأن تبجل وأن تجل وأن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها
ذكر أولاد إبراهيم الخليل
أول من ولد له : إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل ثم تزوج بعدها " قنطورا " بنت يقطن الكنعاية فولدت له ستة : مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس ثم تزوج بعدها " حجون " بنت أمين فولدت له خمسة : كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس

٣- نوح عليه السلام

اصل الاصنام

أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون رواه البخاري وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف

عن ابن عباس عند تفسير قولهم تعالى : { وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا } قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت

كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إلى ذكرناهم فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم

وروى ابن أبي حاتم عن عروة ابن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان " ود " أكبرهم وأبرهم به

وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله " ود " الصنع الذي سموه ودا

[أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز و جل]

صبر نوح على قومه

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : { فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون } أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولد وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان وإتباع الحق ولهذا قال :{ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا }

{ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن } تسلية له عما كان منهم إليه { فلا تبتئس بما كانوا يفعلون } وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب

الفلك

{ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون }

وذلك أن نوحا عليه السلام يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأي أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى : { ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم } وقال تعالى : { ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم } وقال تعالى : { قال رب إني قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين } وقال تعالى : { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر } وقال تعالى : { قال رب انصرني بما كذبون } وقال تعالى : { مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون

الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا }

فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز و جل : هل بلغت ؟ فيقول أي رب فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ ! فيقول : محمد وأمته فنشهد أنه قال بلغ] وهو قوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا }

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة

قال محمد بن إسحاق عن الثوري : وكان من خشب الساج وقيل من الصنوبر

قال الثوري : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء، وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع

قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بلبها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها

أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وإن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرا

وقوله تعالى : { حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل }

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار وعن ابن عباس التنور عين في الهند وعن الشعبي بالكوفة وعن قتادة : بالجزيرة

ويروى عن ابن عباس : أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار

أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : [لما حمل نوح السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن ؟ - أي كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد ؟ - فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفارة منها]

واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى : { وما آمن معه إلا قليل } هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا بضروب المقال وفنون المتطلفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة

فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل كانوا عشرة

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم : وهم حام وسام ويافث ويام ويسميه أهل الكتاب " كنعان " وهو الذي قد غرق وعابر فقد ماتت قبل الطوفان وقيل إنها غرقت مع من غرق

قال الله تعالى : **{ وهي تجري بهم في موج كالجبال }** وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها

كما قال تعالى : { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر } والدسر المسامير { تجري بأعيننا } أي بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها { جزاء لمن كان كفر }

وقال تعالى : { إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية } أي السفينة { لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية }

قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل : ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير

{ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين }

وهذا الابن هو " يام " أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه " كنعان " وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه فهلك مع من هلك هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب

{ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين }

أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز و جل أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر { وغيض الماء } أي نقص عما كان { وقضي الأمر } أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم

{ وقيل بعدا للقوم الظالمين } أي نودي عليهم بلسان القدرة : بعدا لهم من الرحمة والمغفرة

كما قال تعالى : { فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين }

وقال تعالى : { فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقناهم أجمعين }

وقال تعالى : { فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم }

وقال تعالى : { فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين }

وقال : { ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر }
وقال تعالى : { مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا }
ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الإستعلام والإستكشاف
ووجه السؤال : أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق ؟
فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين وعدت بنجاتهم أي إنا قلنا لك : { وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم } فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان
ثم قال تعالى : { قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم }
هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والإستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل " الجودي " وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور : { بسلام منا وبركات } أي أهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم من سيولد بعد أي من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه السلام قال تعالى : { وجعلنا ذريته هم الباقين } فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح وهم : سام وحام ويافث أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : [سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم] والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث ابن نوح عليه السلام
عن سعيد بن المسيب أنه قال : ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة : فولد سام : العرب وفارس والروم وولد يافث : الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام : القبط والسودان والبربر
وقال قتادة وغيره : ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودي شهرا وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم وقد روى ابن جرير خبرا مرفوعا يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك
فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه ولم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى : { إنه كان عبدا شكورا } قيل : إنه كان يشكر الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله

عن أنس بن مالك قال : قال رسول صلى الله عليه و سلم : [إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها]

سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : [صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر]

٤- موسى عليه السلام

خوف ام موسى بعد ولادته

أن فرعون احترز كل الإحتراز ألا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالي ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعا واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتا فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فإذا ذهبوا استرجعته إليها به

موسى فى التابوت فى قصر فرعون

فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فالتقطه آل فرعون

{ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا } أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا مكن موسى { وإن كادت لتبدي به } أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة { لولا أن ربطنا على قلبها } أي صبرناها وثبتناها { لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته } وهي ابنته الكبيرة : { قصيه } أي اتبعي أثره واطلبي لي خبره { فبصرت به عن جنب }

تحريم المراضع

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى " آسية " يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها وقالت إن لي بعلا وأولادا ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها

وقد امتن على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال : { ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني } وذلك أنه كان يراه أحد إلا أحبه { ولتصنع على عيني } أي تطعم وترفه وتغذي بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني وذلك كله

قتل موسى للقبطى

استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى { فوكزه } قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة : بعصا كانت معه { فقضى عليه } أي فمات منها يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفا - أي من فرعون وملئه - أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم

فصار يسيرفي المدينة في صبيحة ذلك اليوم { خائفا يترقب } أي يتلفت فبينما هو كذلك إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أي يتلفت وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها

<u>{ ولما توجه تلقاء مدين }</u> أي اتجه له طريق يذهب فيه { قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل } أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود وكذا وقع فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود

ولما ورد الماء المذكور { وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تدودان } أي تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس

قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ

وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان

قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة

ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : { يا أبت استأجره } أي لرعي غنمك ثم مدحته بأنه قوي أمين * قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين * قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك

وقوله : **<u>{ وسار بأهله }</u>** أي من عند صهره زاعما - فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يورى زناده فلا يورى شيئا واشتد الظلام والبرد

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تأجج في جانب الطور

<u>لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها</u> فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام وكل ما لخضرة تلك الضجرة في ازدياد فوقف متعجبا

وكان موسى في واد اسمه " طوى " فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوي فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة

ثم قال مخاطبا ومؤانسا ومبينا له أنه القادر على كل شيء والذي يقول للشيء كن فيكون : **{ وما تلك بيمينك يا ـ موسى }** أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها ؟ أي بلى هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها

{ قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى }

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء أي من غير برص ولا بهق

وقال في سورة طه : { اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي } قيل إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه والتي كان فرعون أراد اختبار عقله

فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه

<u>**السحرة**</u>

قال الله تعالى **: { فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم }** وقال الله تعالى : **{ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى }** أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما في يده فإنه لا يصنع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة : **{ لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**

لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده

{ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد }

{ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب * يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد }

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا مميزة فيها بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض

{ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون }

{ ربنا اطمس على أموالهم }قيل: أي أهلكها وقيل: اجعلها حجارة منقوشة

خروج موسى ومعه بنى اسرائيل

وأمرهم الله تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حليا منهم فأعاروهم شيئا كثيرا فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم

قال الله تعالى : { فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كالطود العظيم }

ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقا لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى قيل إنه صار فيه أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا ! وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه

وقال تعالى : { وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون }

وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأردية وألقوها على عواتقهم وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيرا فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم

قتال القوم الجبارين

والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين والفزازيين والكنعانيين وغيرهم

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم

{ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون }

فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير

{ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين }

موسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز و جل موسى أن ينزل فيأمر بين إسرائيل أن يتقربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله وأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب

وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة

فقال موسى : يارب إنهم لايستطيعون أن يصعدوا وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون ولكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد ففعل موسى

{ رب أرني أنظر إليك قال لن تراني }

ولهذا قال تعالى : { فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين }

العجل

فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي فصاغ منه عجلا وألقي فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها في فيه خار كما يخوار العجل الحقيقي
{ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي } أي فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وهباته
ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليهم من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها فيقال إنه كسرها
ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذوا إليه بما ليس بصحيح قالوا : إنا { حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقي السامري }
لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : **{ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم }** فيقال إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفا
ثم قال تعالى : **{ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**
{ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشي الجبل كله ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم : ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ولا تفعل فلما فرغ الله من أمره وانكشف **عن موسى الغمام أقبل إليه فقالوا : { يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة }** فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا
جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : **{ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا }** أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا

البقرة

كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيرا وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق
فسأل ربه عز و جل في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : **{ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا }** يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول لنا هذا ؟ **{ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**

الخضر

ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره

٥- قصة عزير عليه السلام

صبي من نسل نبي الله هارون عليه السلام، وفي وقت معجزته هذه كان يقيم مع قومه من بني اسرائيل في بابل، الذين كثروا بها وتناسلوا بعد أن أخرجهم بختنصر، وأخذ معظم الأسرى الى بابل وكان بختنصر هو أول من جاس في ديارهم، بعد أن أفسدوا في الأرض، ولذلك فقد حقت عليهم كلمة الله عز وجل:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) الاسراء

ولم يكن في بني اسرائيل آنذاك من يحفظ التوراة عن ظهر قلب سوى عزير، وكان أبوه وجدّه يحفظانها من قبل.

وكان عزير مستجاب الدعاء، فما يدعو لأحد بخير الا استجاب الله لدعائه المبارك.

وقد تزوّج عزير عليه السلام وأنجب ابنين، ولما بلغ الأربعين من عمره أوحى الله اليه أنه سيخرج من هذه الأرض، أرض بابل، التي أسره فيها بختنصر وأن بني اسرائيل سيخرجون أيضا، ويعيدون عمارة بلادهم.

جمع زوجته وبنيه، وخادمته الأمينة في ليلة من الليالي، وفي مكان أمين، وقد سكن الليل، وأوى الناس الى مضاجعهم، وقال لهم:

لقد قررت الرحيل.

فقالت الزوجة: الى أين؟

فقال عزبر: الى الأرض المقدسة.
قالت الزوجة: ان هذا الأمر غاية في الصعوبة، ونحن نحاط بهذا الكم من حراس بختنصر.
عندما أباح عزير بالسر وهو أن خروجه بوحي من الله عز وجل فرحت الزوجة والأبناء والخادمة، وعرفوا أن عزيرا أصبح نبيّا من أنبياء بني اسرائيل.
فقال لهم عزير عليه السلام: لقد أوحي الي منذ ثلاثة أشهر، وها هي التوراة في قلبي أحفظها، فهي كلام الله، تنير لي الطريق ان شاء الله.
وقالت الزوجة والأبناء: ان خروجك وحيدا لن يعمّر الأرض فانك لن تجد هناك من يعينك على ذلك، ولن تجد أيضا هناك من تعلمه التوراة، وبقاؤك معنا سيفيدنا لأننا سنتعلمها منك.
قال عزير: هذا أمر الله، وأنا جبلت على طاعته ولن أعصي له أمرا ،ثم أكد عزير على سريّة خروجه، فقال لهم: اذا أصبحتم فاكتموا أمري، فاذا سأل عني سائل فقولوا له: خرج ولا ندري متى يعود..!
والآن أستودعكم الله.
سألت الزوجة: وماذا أعددت لركوبك؟
قال: لقد اشتريت حمارا جلدا قويا منذ أيام لهذا الغرض.
فقالت: وأين هو؟
قال: تركته عند صديقي، وواعدته أن يلقاني به الليلة، خارج أسوار المدينة.

<u>٢. بدء المعجزة</u>

مضى عزير عليه السلام في رحلة طويلة شاقة، بعد لحظات خوف وترقب أثناء خروجه من بابل وقد أحاطها الحراس والجنود في كل مكان.
وبعد طول مسير وكثير عناء، وجد العزير نفسه في الأرض المقدسة التي طالما تاقت نفسه لرؤيتها، فلما دخل وجد شيئا عجيبا، لم يجد آثارا للعمران، بل وجد الخراب جاثما عليها منذ ثلاثين سنة مضت، **<u>أتصبح هذه الأرض القفراء عامرة؟</u>**
أتصير هذه يوما من الأيام، معمورة الأسواق والندوات والمجالس، آهلة بالسكان والأطفال والنساء والبيوت؟
وقد أوحى الله اليه أنه سبحانه عز وجل سيعيدها سيرتها الأولى فتدب فيها الحياة، صمت عزير عليه السلام قليلا **<u>وتساءل في عجب{ أنّى يحي هذه الله بعد موتها}</u>** البقرة ٢٥٩.
من كل هذا الجو الموحش آثر عزير أن يتخذ لنفسه مغارة في أحد الجبال المحيطة بالقدس ليقيم فيها، وحث حماره فمشى، وعند أحد البساتين توقف عزير عليه السلام وصنع لنفسه سلة ملأها عنبا وتينا، وعصر بعض العنب، وجعله معه في اناء من الجلد ليشربه.
وفي ضحى هذا اليوم دخل عزير عليه السلام مغارته الواسعة العتيدة فربط بها حماره، ووضع سلته وشرابه الى جانبه واستلقى على ظهره ليريح نفسه من العناء والتعب، وقد شغل فكره بواحدة من الأفكار تقول: كيف تعود الى الحياة ثانية الى هذه القرية؟!
ظل عزير عليه السلام على هذه الحال، حتى أسلمه التعب والتساؤل والرغبة في المعرفة الى نوم عميق عمق الزمن الذي طال، ثقيل ثقل السنين التي مضت ولم يشعر بها عزير أبدا.
وفي نومه العميق أو في نومته الصغرى، نام نومة كبرى، لقد قبض الله روحه، ولم يعد

عزير يشعر بشيء مما حوله فهو في يد العناية الالهية، تنصرف الى ما تشاء ولا رادّ لمشيئة الله لا في الأرض ولا في السماء.

<u>٣. العودة</u>

مضت السنون سريعة خاطفة عاما وراء عام، ومضى على عزير عليه السلام من بابل عشرة أعوام، انتظرت فيها زوجته وبنوه مشيئة الله عز وجل التي تتيح لهم الخروج من بابل حتى يلحقوا به في الأرض المقدسة، ولكن طال انتظارهم، ولم يحدث شيء، وتلاحقت الأعوام حتى بلغت أربعين عاما، ولم يخرج بنو اسرائيل ولم تأت أخبار عن عزيرا، ويئسوا من العودة الى الأرض المقدسة.

أربعون عاما كانت كافية لتغيير أشياء كثيرة، فتغيّرت أجيال واندثرت أجيال. وفي خضم هذا الأمن والطمأنينة، نشأت في بني اسرائيل فتاة جميلة بارعة الجمال، تتسم بالذكاء حتى تفوقت على بنات جيلها جمالا وذكاء، فكان أن رآها ملك بابل فطلب الزواج منها، فتزوجها وهام بها حبا، وأصبحت ذات مكانة رفيعة لدى زوجها، ومنزلة عظيمة ومنّ الله عليها بمولود جميل، مما زاد حبها رسوخا في نفس زوجها الملك، ملك بابل، وأصبحت الزوجة ذات مكانة عظيمة في أوساط زوجها والقصر وكل من حولها، وكان لها عظيم الأثر في نفس زوجها الملك مما جعله يحسن معاملة بني اسرائيل، فصار الأحبار يدخلون القصر ويعلمون ابنها التوراة، فأصبح محبا لأهل أمه

ومرّت السنون والأحوال تزداد تحسنا بالنسبة لبني اسرائيل، وجاء اليوم الذي مات فيه الملك، فخلفه ابنه الذي رضع حبا لأخواله بني اسرائيل، وحفظ منهم التوراة وعلومها، وأحبهم حبا شديدا، وجاء اليوم أيضا الذي جلست فيه الأم لابنها الملك لتحدثه عن أرض بني اسرائيل التي ما زالت خاوية خربة وتحتاج لأبنائها كي يعمروها، ويزرعوا ارضها.

وفي هذا اليوم المشهود لبني اسرائيل والذي جاء بعد مضي سبعين سنة على خروج عزير عليه السلام من بابل في هذا اليوم خرج المنادي ينادي في شوارع بابل: من أحبّ أن يخرج من بني اسرائيل الى بلاده فليخرج ولا حرج عليه في ذلك.

فخرج بنو اسرائيل مهاجرين الى بلادهم، وهناك هالهم ما رأوه من خراب ودمار، ولكنهم شمّروا عن ساعد الجد، فغرسوا وزرعوا،

ومضت ثلاثون عاما أصبحت فيها البلاد عامرة، وقد أثمرت صناعاتهم وعمّرت قراهم، وانحسرت آثار الكارثة التي مرت بهم تماما ولم يعد لها أثر يذكر.

<u>٤. ظهور المعجزة</u>

كانت زوجة عزير عليه السلام قد كبرت وأخذ منها الزمان ما أخذ، وكذلك خادمته الصغيرة، وقد بحثوا جميعا في أول مجيئهم مع بني اسرائيل عن عزير في كل مكان بالمدينة، فلم يجدوا له أثرا، وأرسلوا الى المدن والقرى للبحث عن عزير ولكن دون جدوى.

وأثناء سؤالهم هذا صرفهم الله عز وجل عن المغارة التي سكنها عزير ومات فيها، وانصرفت مشيئة الله أن لا يقترب بشر من هذه المغارة، لأمر عنده كان مفعولا، واكتملت مائة عام على وفاة عزير، فتحرّك الجسد الذي أصبح ترابا، وأحياه ربه بعد مائة عام، ردّ فيه الحياة، فاجتمعت عظام جسمه ونبض قلبه من جديد فاعتدل جالسا، ونظر حوله هنا وهناك فوجد الى

جواره اناء العصير، وطعامه لم يحدث له شيء وسمع مناديا ينادي { كم لبثت} كم من الوقت قضيت في النوم.؟
نظر عزير عليه السلام حوله فوجد الشمس قد بدأت تعلو من المشرق، فأجاب على الفور { لبثت يوما أو بعض يوم} أي نمت يوما أو أقل من يوم، فوجد الصوت الذي ناداه يقول{ بل لبثت مائة عام..}.
دهش عزير عليه السلام وفزع مما سمع، وردّد في ذهول: مائة عام؟! وأعاد النظر الى سلة الفاكهة، فوجد العنب طازجا كأنه مقطوف لتوه وكذلك التين، والعصير في الانء الجلدي كما هو لم يتغيّر ولم تصدر عنه رائحة غير مقبولة، ولم يتبخر ولم يتجمّد، ولم يدركه أي تحول في الطعم أو اللون.
تذكر عزير شيئا ونظر هنا وهناك بسرعة، ، لقد تذكر حماره، أين هو؟.. لا بد أنه هرب، ووقعت عيناه على عظام بالية في المكان الذي ربطه فيه، وربما تساءل في نفسه، ولم الحمار، لقد أصبح عظاما نخرة بعد أن أفناه الدهر؟
وقف عزير عليه السلام بين فاكهته وطعامه الذي لم يتغيّر وبين حماره الذي فني وأصبح **عظاما** لطول ما مرّ به من السنين، وبدأ يردد حقا انها مائة عام، كانت كافية بافناء جلد الحمار وعظامه، ولحمه، رأى عزير عليه السلام آيات ربه: فطعامه لم يتغير وحماره أصابه الفناء.. سبحان الله، انها بلا شك آية من آيات الله العلي القدير
وانصرف عزير عليه السلام للتسبيح والصلوات حتى سمع قول الله عز وجلّ:{ ولنجعلك آية للناس} البقرة ٢٥٩.

ولكن ما هي الآية؟ وعمّ ستكون المعجزة؟!
فجأة سمع عزير عليه السلام نداء خفيّا، يقطع عليه تفكيره، ويصرفه عن هذا التفكر والتأمّل، **جاء النداء يقول آمرا عزير:{ وانظر الى العظام} البقرة ٢٥٩.**
نظر عزير عليه السلام الى العظام، ثم أكمل الصوت أو النداء:**{ كيف ننشزها ثم نكسوها لحما}** البقرة ٢٥٩.
أعاد النظر عزير عليه السلام فاذا به يجد عظام الحمار تتحرك قائمة بقدرة الله ومشيئته، كل عضو يتحرك الى مكانه المعروف من الجسم، حتى اكتمل هيكل الحمار العظمي ثم يكسو الله بقدرته ومشيئته هيكل العظام هذا باللحم، حتى يعود حمار العزير خلقا كاملا سويا كما كان.
أخذت الدهشة عزيرا عليه السلام لكنه تمالك نفسه،ولما رأى ذلك بعينه سلّم وآمن بقدرة الله عز وجل، واطمأن يقينه، **فقل في خشوع:{ أعلم أن الله على كل شيء قدير} البقرة ٢٥٩**
لقد كان عزير عليه السلام في زمن سبق موته يعجب لقدرة الله كيف تعيد الحياة الى هذه البلاد بعد أن رآها مقفرة موحشة، وها هو اليوم يرى أعجب وأعظم مما كان يتصوّر، انها قدرة الله سبحانه عز وجل.
وخرج عزير عليه السلام ينظر الى الطريق العام فوجد الناس تأتيه من بعيد وهم يتكلمون رائحين وغادين، **ورأى المدينة قد عمّرت**
مضى العزير الى المدينة يتطلع الى أخبارها وكيف أصبحت بعد مائة عام، وماذا يفعل الناس: أهم سعداء أم بهم همّ وما هي أخبار أسرته؟ هل هناك أحد منهم على قيد الحياة؟

هداه فكره الى أن يسأل الناس المارّة في الشوارع.
تحدّث عزير عليه السلام وقال لأحدهم: أين دار العزير؟ فأجابه الرجل:لا نعرف دارا للعزير، ولكن يوجد هنا ديار أبناء العزير! انظر الى هذه الدور المترصّة، انها دور أبناء العزير.
مضى العزير الى المكان حتى جاء الى دور أبنائه، وعند أوّل باب من أبوابها **طرق الباب طرقا خفيفا، فسمع صوتا من الداخل يقول: من الطارق؟ من بالباب؟ فأجاب على الفور: انا العزير!!**
فقال الفتى الذي ردّ عليه: ماذا تقول؟ العزير! اتسخر منا يا رجل؟
فقال العزير: افتح الباب يا بني وستعرف أنني لا أكذب عليك ولا أسخر منك.
ففتح الفتى الباب، ونظر الى الرجل في دهشة واستغراب، **ثم قال: لقد فقدنا العزير منذ مائة عام على ما سمعت من أبي، وكان سنه يومئذ أربعين سنة، فلو كان حيا لوجب أن تكون سنه الآن مائة وأربعين سنة، وأنا أراك الآن في سن الأربعين، انّك أصغر من أحفاده، فكيف يمكنني التصديق بأنك أنت العزير؟!**
سمع الناس الحوار بين العزير وأحد أحفاده فتجمّعوا حوله وأمطروه بالأسئلة، وكان يجيب بثقة ولسان صدق ويقول لهم: لقد أماتني الله مائة عام ثم بعثني
في هذه الأثناء ظهرت عجوز لا ترى أمامها تتوكأ بصعوبة على الحائط مقعدة، ونادت قائلة: أدخلوه الى داخل الدار، فانني أعرف علامة في العزير فان كان هو عرفته بها، فدخل العزير عليه السلام عليها فاذا هي عجوز عمياء قد أهلكها الدهر، فقالت له: أتقول أنك أنت العزير يا هذا؟ قال: نعم.

قالت لقد كان لدى العزير خادمة، وقد تركها وسنها عشرون عاما، أتعرف اسمها؟
قال: نعم اسمها "أشتر" قصص الأنبياء لابن كثير، وقد تركتها وسنها عشرون عاما، فاذا كانت على قيد الحياة فسنّها الآن مائة وعشرون عاما.
فقالت العجوز: أتعرف أنني أنا "اشتر" خادمة العزير؟ وكان في العزير علامة، فقد كان مستجاب الدعوة فينا، فكان لا يسأل الله شيئا الا استجاب له، فان كنت العزير حقا، فادع الله لي أن يردّ عليّ بصري، وأن يشفي قدمي، فقد صرت مقعدة لا أستطيع المشي والنهوض من شدة الآلام فيهما.
وفي لحظات دعا العزير ربه، ومسح بيده على عينيها، وأخذ بيدها لينهضها وهي مقعدة فاذا بها تنهض على ساقيها، وتبصر أحسن ما يكون الابصار،
وتأملت في وجه وقالت: أشهد أنك عزير، اني أراك الآن كما رأيتك آخر مرة شاهدتك فيها منذ مائة عام..
وجاءت عجوز أخرى يقرب عمرها من مائة وأربعين عاما وقالت: وأنا أتعرفني يا عزير؟
فقال: أنت زوجتي ولن أجهلك أبدا.
وكان عند خروجه قد أعطاها خاتمه وقال: لعلك تذكرينني به، وكذلك هي فقد أعطته خاتمها كي يذكرها به، فقالت له: أتذكر ماذا تبادلنا ليلة خروجك؟
قال: تبادلنا خاتمي وخاتمك، فقد أعطيتك خاتمي وقلت لك: لعلك تذكرينني به.. وأعطيتني خاتمك وقلت لي: لعلك تذكرني به.. وها هو ذا خاتمك، وخلعه من اصبعه، وقدّمه لها.

فرحت العجوز زوجة عزير وقالت: وها هو ذا خاتمك يا عزير ولطالما ذكرتك به.
في هذه الأثناء خرجت خادمته التي أبصرت واستعادة عافيتها وانصرفت عنها آلام قدميها، مسرعة الى مكان هي تعرف ارتباطه بهذا الأمر وهذه الآية، التي انصرفت مشيئة الله أن يكون عزير بطلها، **لقد خرجت الى بني اسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم، وأخبرتهم بخبر وصوله، وكان على رأس المجلس شيخ وقور أخذ منه الدهر ما أخذ، انه ابن العزير الذي بلغ من العمر عتيّا. لقد بلغ مائة سنة وثماني عشرة، وجلس شيخا في مجلسهم..**
وجاءت تصرخ وتقول: هذا عزير قد جاءكم.
فقال ابن العزير الأكبر وقد رفع وجهه وفحص ببصره الضعيف هذه الفتاة: من هذه الجارية؟
فقالت: أنا جارية أبيك عزير.. أنا خادمته " أشتر"، لقد جاء أبوك ودعا لي ربه بالشفاء وردّ بصري عليّ فاستجاب الله له كما عرفناه منذ مائة عام، أتدري أن الله أماته مائة عام ثم أحياه وبعثه من جديد!
صمت الشيوخ جميعا وساد المجلس لحظات من الهول والصمت، وهم يسمعون كلاما يظنون أنه لا يصدق، ولكن ها هي جارية عزير ماثلة أمامهم وقد قصّت عليهم حقائق، فهي " اشتر" وهو اسمها، وعزير كان مستجاب الدعاء كما علموا وتعلموا من الآباء والأجداد، انها حقائق لا تكذب، وعزير خرج من بينهم منذ مائة عام كما تقول أيضا، وهي الآن تدعوهم لرؤيته رؤيا العين، كل هذا دعاهم الى الوقوف فردا فردا والتوجه الى خارج مجلسهم كي يرون بأعينهم ما سمعته آذانهم
تقدّم ابن العزير الجميع وهو يتكئ على عصاه وقد أهلكته الشيخوخة ولم يسعفه الكبر كي يسرع الخطى أكثر من هذا، لقد بلغ مائة وعشرين عاما، و"أشتر" تقول أن أباه هناك في سن الصبا وهو في سن الأربعين، يا له من أمر يعجب له الانسان المحدود بفكره وقدرته.
وعلى مشارف المنزل وعلى مقربة منه تمعّن ابن العزير ومسح عينيه كي ينقشع عنهما بعض ما تركه الزمن من غمامة، فرأى شابا في الأربعين قد وقف شامخا شديدا عظيم البنية وقد أضاء وجهه نور الايمان وتقوى القلب.
حيّا ابن العزير أباه وهو يتفحّص وجهه وقال في هدوء شديد موجها حديثه الى أبيه العزير: ان لي في أبي علامة.
فقال العزير: وما هي؟
قال الابن الشيخ: شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه.
صمت عزير عليه السلام قليلا ثم حرّك يديه وكشف لابنه عن كتفه فنظر الابن الى كتف أبيه فوجد الشامة السوداء مثل الهلال على كتفه..
هلل الابن الشيخ وقبّل أباه ورحّب به وقال: انه حقا أبي وأشهد أنه ابي.. وهلل معه بنو اسرائيل جميعا وفرحوا بمجيء العزبر ووجوده بينهم.
لكن أحد الأحبار **قال الحبر: ان لنا نحن بنو اسرائيل في العزير علامة**، غير التي شهدها ابنك وشهد أنك أباه.
قال: لم يكن فينا أحد يحفظ التوراة عن ظهر قلب كما حفظها عزير.
فقال العزير في ثقة واعتزاز، وصدق وكبرياء لهؤلاء الناس: وأنا أحفظ التوراة عن ظهر

قلب.
قام بعض شيوخ بني اسرائيل وانسحبوا من المجلس وجاؤوا بنسخة من التوراة وقالوا لعزير: اقرأ علينا التوراة، ونحن نراجع ان كنت تحفظها أم غير ذلك.
جلس عزير عليه السلام شابا وسط القوم وشرع يقرأ التوراة عن ظهر قلب وهم يراجعون عليه في صحف التوراة
شهد الجميع بأنه العزير، وفرحوا به، ونظر بعضهم في المجلس فوجد آية عظيمة من آيات الله، لقد جلس العزير في هذا المجلس وفيه بنوه وبنو بنيه وهم شيوخ وقد شاب شعرهم وشابت لحاهم، وقوّست السنون ظهورهم وأحنتها بشدة، بينما يجلس عزير شابا في الأربعين أسود الشعر، قوي البنية، منتصب القامة، { ولنجعلك آية للناس}.
ونقرأ قصة العزير في سورة البقرة. قال تعالى:
{ أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت، قال لبثت يوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلمّا تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} البقرة ٢٥٩.

٦- مريم
وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء فبينما هي يوما قد خرجت لبعض شئونها و **{ انتبذت }** أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذا بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام **{ فتمثل لها بشرا سويا }** فلما رأته **{ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا }** قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نهية وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه " تقي " فإن هذا قول باطل
{ قال إنما أنا رسول ربك } أي خاطبها الملك **{ قال إنما انا رسول ربك }** أي لست ببشر ولكني ملك بعثني الله عليك **{ لأهب لك غلاما زكيا }**
{ قالت أنى يكون لي غلام } أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد **{ ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا }** أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة { قال كذلك قال ربك هو علي هين } أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا : **{ كذلك قال ربك }** أي وعد

أنه سيخلق منك غلاما ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين **{ هو علي هين }** أي وهذا سهل عليك ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير

قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانا قصيا وقوله : **{ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة }** أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة

{ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا } فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أو لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت { نسيا منسيا } أي لم تخلق بالكلية

وقوله : **{ فناداها من تحتها }** وقرئ من { تحتها } على الخفض

وفي المضمر قولان أحدهما أنه جبريل عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم وبهذا قال سعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى

وقوله تعالى : **{ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا }** ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : **{ يا مريم لقد جئت شيئا فريا }**

٧- عيسى بن مريم عليه السلام

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم فكان أول ما تكلم به أن **{ قال إني عبد الله }** اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : **{ آتاني الكتاب وجعلني نبيا }** فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم وكما قال تعالى : **{ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما }** وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنى في زمن الحيض لعنهم الله فبأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبيا مرسلا أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال ك **{ وجعلني مباركا أين ما كنت }** وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس **{ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا }** وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخيقة بالزكاة وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاف الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقري الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات

ثم قال : **{ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا }** أي وجعلني برا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتحض جهتها إذ لا والد له سواها فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها

{ ولم يجعلني جبارا شقيا } أي لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته

{ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال : **{ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون }** كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : **{ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين }**

قال الله تعالى : **{ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم }** أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه

فمن قائل من اليهود : إنه ولد زنية واستمروا على كفرهم وعنادهم

وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله وقال آخرون : هو ابن الله

وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون وقد توعدهم العي العظيم الحكيم العليم بقوله : **{ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم }**

لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا

قال الله تعالى في سورة المائدة : **{ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير }**

*** ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون }**

ثم قال : **{ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد }** قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن على اختلافهم في ذلك ما بين المليكية واليعقوبية والنسطورية

{ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في يفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قتل لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنه عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم }

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتفريغ والتبويخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : **{ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك }** أي تعاليت أن يكون معك شريك **{ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق }** أي ليس هذا يستحقه أحد سواك **{ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب }** وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب **{ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به }** أي ما قلت غير ما أمرتني عليه حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم ثم فسر ما قاله لهم بقوله : **{ أن اعبدوا الله ربي وربكم }** أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم **{ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني }** أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه كان ذلك **{ كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد }**

وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبا من بيت المقدس

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار

عيسى فلما قدموا الشام سألهم ملكهم عما أقدمهم فذكروا له ذلك فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله

إذا رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره

عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى : **{ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما }**

عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاما من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى : **{ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين }**

مائدة من السماء

مضمون ذلك : أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوما فلما أتموها سالوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز و جل

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحا من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا
فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إلها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنوا قليلا قليلا وكلما دنت سأل عيسى ربه عز و جل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة فلم تزل تدنوا حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مفطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : " بسم الله خير الرازقين " فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة ويقال : وخل ويقال : ورمان وثمار ولها رائحة عظيمة جدا قال الله كوني فكانت

ذكر رفع عيسى

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهة فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له وسلم لليهود عامة النصاري الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا
عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ثم قال : أيكم يلقى علي شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ فقال شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا فقال : أنت هو ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك قال : إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير وإن هذا شيء شبه لهم فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر
وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام وهي تحسب أنه ابنها أن ينزل جسده فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ قال : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحدا فرجت مريم أن يكون جبريل وكان قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهدا به فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ولكن هذا الفتى الذي ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح

قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة فما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل وقال : يا أمه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريبا فاصبري واذكري الله كثيرا ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها

عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عيها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهي تنظر وألقي إليها عيسى بردا له وقال : هذه علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها وكانت تحبه حبا شديدا لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفرا ولا حضرا

٨-أيوب عليه السلام

كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير

سلب منه ذلك جميعه وابتلى في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز و جل بهما وهو في ذلك صابر محتسب ذاكر الله عز و جل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه

وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته

وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون

وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص

وقال أنس : ابتلي سبع سنين وأشهرا

وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتي فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه وقال حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة وقال السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب

فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت : يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحا فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفا أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحدا يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدي ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال : من أين لك هذا ؟ وأنكره فقالت : خدمت به أناسا فلما كان الغد لم تجد أحدا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقا قال في دعائه **{ رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين }**

كان لأيوب أخوان فجاءا يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع مثله من شيء قط فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان

جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصا قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم بعزتك وخر ساجدا فقال اللهم : بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه

قال : وكان يخرج في حاجته فإذا قفاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : **أن { اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب }** فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذا كان صحيحا قال : فإني أنا هو قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض]

عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية فجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ها هنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك أنا أيوب ! قالت : أتسخر منى يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي

قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم

وقال وهب بن منبه : أوحي الله إليه : " قد رددرت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب من صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك " وقوله**{ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب }** هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من خلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها وقيل لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها مائة سوط فلما عافاه الله عز و جل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث

٩-زكريا ويحي

زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولدا على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقرا في حال شبيبتها وقد أسنت أيضا حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى :

{ ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا } قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضرا عنده مخافته فقال : يا رب يا رب يا رب فقال الله : لبيك لبيك لبيك **{ قال رب إني وهن العظم مني }** أي ضعف وخار من الكبر **{ واشتعل الرأس شيبا }**

{ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء } وقوله : **{ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا }** قيل المراد بالموالي العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برا تقيا مرضيا ولهذا قال : **{ فهب لي من لدنك }** أي من عندك بحولك وقوتك **{ وليا * يرثني }** أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل **{ ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا }** يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي

أن زكريا عليه السلام كان نجارا بعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهادا يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده

وقوله : **{ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا }** وهذا مفسر بقوله : **{ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين }**

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه **{ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا }** أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسد من ذلك **{ وكانت امرأتي عاقرا }** يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقرا لا تلد والله أعلم

وقال تعالى : **{ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين }** ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت وقيل كان في لسانها شيء أي بذاءة

{ قال رب اجعل لي آية } أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به

{ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا } يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزا وأنت في ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورا بها على قومه من محرابه **{ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا }** والوحي هاهنا هو الأمر الخفي إما بكتابة: اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد

وقوله تعالى : **{ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا }** يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرا ونهيا وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال : **{ وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا }** **ثم قال { وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا }** هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الأخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ! وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار وصار بعد الدور والصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير

[أين الشهيد بن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب] قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا

عن أبي حصين عن خيثمة قال : كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه أين ما جنهما الليل أويا فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى : أوصني قال : لا تغضب قال : لا أستطيع إلا أن أغضب قال : لا تقتن مالا قال : أما هذه فعسى

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ويقول : من أنعم منك يا يحيى ؟

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز و جل

وقال ابن وهب كان طعام يحيى بن زكريا العشب وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه

وقال محمد بن يحيى الذهلي : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاما ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاما ؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشتهم

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرا وأقام فيه يبكي على نفسه فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بيت الجنة ، والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين فقال له : ابك يا بني فبكيا جميعا وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه

<u>وذكروا في قتله أسبابا من أشهرها</u>

أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه فلما كان بينها وبين الملك ما

يجب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء براسه ودمه في طست إلى عندها فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها
قال : فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا قال : فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم علي فلما تخوفت ألا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت : إلي إلي وانصدعت لي ودخلت فيها
وقال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجا من الشجرة وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره فقال : نحرق هذه الشجرة فقال إبليس : شقوها بالمنشار شقا قال : فشققت مع الشجرة بالمنشار
قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : ايها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقا كثيرا لا يحصون كثرة وسبى منهم ثم رجع عنهم

١٠- صالح عليه السلام

نبي ثمود
نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر
وقال لهم أيضا : **{ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها }** أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه **{ فاستغفروه ثم تبوا إليه }** أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل ويتجاوز عنكم **{ إن ربي قريب مجيب }**
{ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا } أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين

الآباء والأجداد ولهذا قالوا : **{ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب }**

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير }

وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ ما عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته ؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحسن منكم ولا من غير أن يجيرني منه ولا ينصرني فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم

وقالوا له أيضا : **{ إنما أنت من المسحرين }** أي من المسحورين يعنون مسحورا لا تدري ما تقوم في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور وهو أن المراد بالمسحرين : المسحورين وقيل من المسحرين : أي ممن له سحر - وهو الرئي - كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر والأول أظهر قولهم بعد هذا : **{ ما أنت إلا بشر مثلنا }** وقولهم : **{ فأت بآية إن كنت من الصادقين }** سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به **{ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم }** كما قال : **{ وقد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم }** وقال تعالى : **{ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها }**

وقد ذكر المفسرون أن ثمودا اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم فأخذ عهدهم ومواثيقهم على ذلك

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز و جل ما قدر له ثم دعا ربه عز و جل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز و جل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال : **{ فظلموا بها }** أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : **{ هذه ناقة الله }** أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله : بيت الله وعبد الله { لكم آية } أي دليلا على صدق ما جئتكم به **{ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب }**

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترغي حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من

الماء في يومهم لغدهم ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال : { لها شرب ولكم شرب يوم معلوم }

ولهذا قال تعالى : **{ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم }** أي اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون **{ فارتقبهم }** أي انتظر ما يكون من أمرهم **{ واصطبر }** على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية **{ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر }**

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوافر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى : **{ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتينا بما تعدنا إن كنت من المرسلين }**

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما " صدوق " ابنة المحيا بن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له " مصرع " بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى " عنيزة " بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم غنمة وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء فانتدب هذا الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى : **{ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون }** وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها " مصرع " فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يذمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم في ذلك فأسرعهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها - وهو فصيلها - فصعد جبلا منيعا ورغا ثلاثا

وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال : يا رب أين أمي ؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال : بل اتبعوه فعقروه أيضا

قال الله تعالى : **{ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر }** **وقال تعالى : { إذا ابنعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها }** أي أحذروها **: { فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها }**

قال الإمام أحمد : قال : خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : [إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة]

عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لعلي : [ألا أحدثك بأشقى الناس] ؟ قال : بلى قال : [رجلان أحدهما أحمير ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك ياعلى هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته -]

وقال تعالى : **{ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين }** فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه :

منها : أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية

ومنها : أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين : أحدهما الشرط عليهم في قوله : **{ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب }** وفي آية **{ يوم عظيم }** وفي الأخرى **{ أليم }** والكل حق والثاني استعجالهم على ذلك

ومنها : أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى : **{ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب }**

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها - شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات

فلهذا قال لهم صالح : **{ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام }** أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا في هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة : **{ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله }** أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طلبنا أولياؤه بدمه ولهذا قالوا : **{ ثم لنقولن لوليه لويه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون }**

قال الله تعالى : **{ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون }**

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذي قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوهم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوهم محمرة فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى يومان من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة فلما أمسو نادوا : ألا قد مضى الأجل

فلكما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها قالوا ولم يبق منهم أحد إلى جارية كانت مقعدة واسمها " كلبة " بنت السلف - ويقال لها : الذريعة - وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستقتهم ماء فلما شربت ماتت

قال الله تعالى : **{ كأن لم يغنوا فيها }** أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء **{ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود }** أي نادى عليهم لسان القدر بهذا

وقوله تعالى : **{ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين }** إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب

عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم : **{ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم }** أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي

{ ولكن لا تحبون الناصحين } أي لم تكن سجايكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لي فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد

١١-لوط عليه السلام

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعله لبئس ما كانوا يفعلون

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بن آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله عن النسوان لعباده الصالحين

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسابهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها العالمين

وذلك أن لوطا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا : { أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون } فجعلوا غاية المدح ذما يقتضي الإخراج ! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج

فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين لكن بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج ماؤها ملح أجاج

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحون من مجالسيهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا

وقالوا له فيما قالوا : { ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين } فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين

فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم : **{ قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين }** وقال : **{ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين } وقال الله تعالى : { فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط }** وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا ولهذا قال تعالى : **{ إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود }** أي أعرض عن هذا وتكلم غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم **{ إنه قد جاء أمر ربك }** أي قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه **{ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود }**

قال الله تعالى : **{ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب }** قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس و **{ سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب }** قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه

وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان ؟ اسم الكبرى " ريثا " والصغرى " زغرتا " فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم شفقة عليهم من قومها فأتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت : إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه

وقوله : **{ ومن قبل كانوا يعملون السيئات }** أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة **{ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم }** يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى : **{ النبي أولى**

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم } وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم وهذا كقوله : **{ أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون }**

فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد : **{ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد }** يقولون - عليهم لعائن الله - لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم ولهذا قال عليه السلام : **{ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد }** ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب

وقال تعالى : **{ وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين }** فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الإستمرار على طريقتهم وسيآتهم

ذكر المفسرون وغيرهم : أن نبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم الباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في إلحاح فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : **{ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد }** لأحللت بكم النكال

قالت الملائكة : **{ يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك }** وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن !

قال الله تعالى : **{ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر }**

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل **{ ولا يلتفت منكم أحد }** يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم

وقوله : { إلا امرأتك } على قراءة النصب : يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : { فأسر بأهلك } كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها ويحتمل أن يكون من قوله : **{ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك }** أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم ويقوي هذا الإحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم

قال السهيلي واسم امرأة لوط " والهة " واسم امرأة نوح " والغة "

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب : **{ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب }**

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه لم يتبعه منهم رجل واحد ويقال إن امرأته خرجت معه والله أعلم

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد

قال الله تعالى : **{ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد }**

قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن - وكن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم فقالوا : إنهم كانوا أربعمائة نسمة وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها

{ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل } والسجيل فارسي معرب : وهو الشديد الصلب القوي

{ منضود } أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء

{ مسومة } أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه

كما قال : **{ مسومة عند ربك للمسرفين }** وكما قال تعالى : **{ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين }**

وقال تعالى : **{ والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاء ربك تتمارى }** يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل : متتابعة مسومة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا وقالت : واقوماه ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذا كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان

١٢-يوسف عليه السلام

رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكبا وهم إشارة إلى بقية إخوته والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك

فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أن سينال منزلة عالية ورفعة عضيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر

حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين { إن أبانا لفي ضلال مبين } أي بتقديمه حبهما علينا

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلوا لهم وجه أبيهم : أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك
فلما تمالئوا على ذلك وتوافقوا عليه : { قال قائل منهم } قال مجاهد : هو شمعون وقال السدي : هو يهوذا وقال قتادة ومحمد بن إسحاق : هو أكبرهم روبيل : { لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة } أي المارة من المسافرين { إن كنتم فاعلين } ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه
فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك { قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون } طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم
فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه
{ قالوا لئن أكله الذئب ونحن غصبة إنا إذا لخاسرون } أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذن لخاسرون أي عاجزون هالكون ، لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلا أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب أي في قعره على راعونته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها " الماتح " وهو الذي ينزل لميلأ الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى " الماتح "

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أي على أخيهم ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك ! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم
{ وجاءوا علي قميصه بدم كذب } أي مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموه أنه أكله الذئب قالوا : ونسوا أن يحرقوه وآفة الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له
يخبر الله تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيارة أي مسافرون قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف
فلما رآه ذلك الرجل { قال يا بشرى } أي يا بشارتي { هذا غلام وأسروه بضاعة } أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم { والله عليم بما يعملون } أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم

لما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم بثمن بخس أي قليل نزر وقيل هو الزيف:{ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين }

{ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه } أي أحسني إليه { عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا } وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة

قالوا : وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي الخزائن مسلمة إليه قال ابن إسحاق : واسمه أطفير بن روحيب قال : وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال : واسم امرأة العزيز : " راعيل " بنت رماييل وقال غيره : كان اسمها " زليخا "

{ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين } فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهي مع هذا كله امرأة الوزير قال ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريان ابن الوليد صاحب مصر

وهذا كله من أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء فعصمه ربه عن الفحشاء وحماه عن مكر النساء

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال { معاذ الله إنه ربي } يعنى زوجها صاحب المنزل سيدي { أحسن مثواي } أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده { إنه لا يفلح الظالمون }

{ واستبقا الباب } أي هرب منها طالبا الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته في أثره { وألفيا } أي وجدا { سيدها } أي زوجها { لدى الباب } فبدرته بالكلام وحرضته عليه { قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم } اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام : { هي راودتني عن نفسي } احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة

{ وشهد شاهد من أهلها } قيل كان صغيرا في المهد وقيل كان رجلا قريبا إلى " وقطفير " بعلها وقيل قريبا إليها

فقال : { إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين } أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه { وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين } أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان ولهذا قال تعالى : { فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم } أي هذا الذي جرى من مكركن أنت راودتيه عن نفسه ثم اتهمتيه بالباطل

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحا فقال : { يوسف أعرض عن هذا } أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالإستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها وحبها الشديد له وهو لا يساوي هذا لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلا لهذا ولهذا قلن : { إنا لنراها في ضلال مبين } أي في وضعها الشيء في غير محله

{ فلما سمعت بمكرهن } أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها فأظهرن ذما وهي معذورة في نفس الأمر فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتي ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها وأعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه وآتت كل واحدة منهن سكينا وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة

{ فلما رأينه أكبرنه } أي أعظمنه وأجللنه وهبنه وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح { وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم }

{ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه } ثم مدحته بالعفة التامة فقالت : { ولقد راودته عن نفسه فاستعصم } أي امتنع { ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين }

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبي أشد الإباء ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : { رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين } يعنى إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وحطتني بحولك وقوتك

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية وأحمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلما وعدوانا

وهذا مما قدر الله له ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهن ومخالطتهم

ومن هاهنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي : أن من العصمة ألا تجد !

قال الله : { ودخل معه السجن فتيان } قيل : كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل " بنوا " والآخر خبازه يعنى الذي يلي طعامه وهو الذي يقوله له الترك " الجاشنكير " واسمه فيما قيل " مجلث " وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما فلما رأيا يوسف في السجن أعجبتهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه

قال أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة أما الساقي فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السلة الأعلى

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا : { إنا نراك من المحسنين } فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها { قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما } قيل : معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول وقيل معناه أني أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا وحامضا كما قال عيسى : { وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم }

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : { يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا } قالوا وهو الساقي { وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه } قالوا وهو الخباز { قضي الأمر الذي فيه تستفتيان } أي وقع هذا لا محالة ووحب كونه على كل حالة ولهذا جاء في الحديث : [الرؤيا على رجل طائر على ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت]

يخبر تعالى أن يوسف قال للذي ظنه ناجيا منهما وهو الساقي : { اذكرني عند ربك } يعنى اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب

وقوله : { فأنساه الشيطان ذكر ربه } أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام

{ فلبثت } يوسف { في السجن بضع سنين } والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع وقيل إلى السبع وقيل إلى الخمس وقيل ما دون العشرة

[رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها { اذكرني عند ربك } ما لبث في السجن ما لبث ورحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه : { لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد } قال : فما بعث الله نبيا بعده إلا في ثروة من قومه]

قال أهل الكتاب : رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن فاستيقظ مذعورا ثم نام فرأي سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن فاستيقظ مذعورا

فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل { قالوا أضغاث أحلام } أي أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا : { وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين } فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا وذلك عن تقدير الله عز و جل وله الحكمة في ذلك فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار

ولهذا قال تعالى : { وقال الذي نجا منهما وادكر } أي تذكر { بعد أمة } أي بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين

فقال لقومه وللملك : { أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون } أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال : { يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون }

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعا بل أجابهم إلى ما سألوه وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب

ويعقبها سبع جدب { ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس } يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية { وفيه يعصرون } يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقطاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة و السلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسول بذلك أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا { قال ارجع إلى ربك } يعني الملك { فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم } قيل معناه : إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي أي فمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي ؟ وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد ؟

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد { قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء }

فعند ذلك { قالت امرأة العزيز } وهي زليخا { الآن حصحص الحق } أي ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع { أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين } أي فيما يقوله ومنه أنه برىء وأنه لم يراودني وأنه حبس ظلما وعدوانا وزورا وبهتانا

وقوله : { ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين } قيل إنه من كلام يوسف أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب وقيل إنه من تمام كلام زليخا أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة

{ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم } قيل إنه من كلام يوسف وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم

لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه { قال ائتوني به أستخلصه لنفسي } أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله { قال إنك اليوم لدينا مكين أمين } أي ذو مكانة وأمانة { قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم }

في هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة

حكي أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وفي كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنة والله أعلم

قال الله تعالى : { وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء } أي بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب

بديار مصر { يتبوأ منها حيث يشاء } أي أين شاء حل منها مكرما محسودا معظما

{ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين } من أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل

ولهذا قال : { ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون }

ويقال : إن قطفير زوج زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدق

{ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون *

وكان يوسف عليه السلام إذا ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينا ودنيا فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون

قال تعالى : { ولما جهزهم بجهازهم } أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه { قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم } وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلا فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم

{ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين } ؟ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : { فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون } أي فلست أعطيكم ميرة ولا أقريكم بالكلية عكس ما أسدي إليهم

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب

{ قالوا سنراود عنه أباه } أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن { وإنا لفاعلون } أي وإنا لقادرون على تحصيله

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها { لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون } قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم وقيل خشي ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة

{ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين * ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما تقول وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون }

ذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له : { منع منا الكيل } أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا

{ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالو يا أبانا ما نبغي } أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ { ونمير أهلنا } أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم { ونحفظ أخانا ونزداد } بسببه { كيل بعير }

قال الله تعالى : { ذلك كيل يسير } أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه
فلهذا قال : { لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم } أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به{ فلما آتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل }
أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم
ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة وقيل : أراد ألا يصيبهم أحد بالعين وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة
لهذاوقال تعالى : { ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنه من الله من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها إنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون }
وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأولى وعرضا آخر
{ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم * قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم * قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون * قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون }
قال : { وما أغني عنكم من الله من شيء }
ذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونها فأمر فتيانه بوضع سقايته وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرة في متاع بنيامين ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادي لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فذنبوه وهجنوه فيما قاله لهم : { قالوا تالله قد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين }
يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة
{ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين } وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه ولهذا قالوا : { كذلك نجزي الظالمين }

قال الله تعالى : { فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه } ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى : { كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك } أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر { إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء } أي في العلم : { وفوق كل ذي علم عليم }

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأيا وأقوى عزما وحزما وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين { قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل } يعنون يوسف

قيل كما قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره

وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقا كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له

وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء وقيل غير ذلك فلهذا : { قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه } وهي كلمته بعدها وقوله : { أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون } أجابهم سرا لا جهرا حلما وكرما وصفحا وعفوا فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا : { يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون } أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده

يقول تعالى مخبرا عنهم لما استيأسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل : { ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله } لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله فلم يبق لي وجه أقابله به { فلن أبرح الأرض } أي لا أزال مقيما هاهنا { حتى يأذن لي أبي } في القدوم عليه { أو يحكم الله لي } بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي { وهو خير الحاكمين }

{ ارجعوا إلي أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق } أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة { وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها } أي فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك { وإنا لصادقون }

{ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل } أي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقة وإنما { سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل }

قال ابن إسحاق وغيره : لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء السيئة السيئة بعدها !

ثم قال : { عسى الله أن يأتيني بهم جميعا } يعنى يوسف وبنيامين وروبيل : { إنه هو العليم } أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة { الحكيم } فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة

{ وتولى عنهم } أي أعرض عن بنيه : { وقال يا أسفى على يوسف } ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامنا

وقوله : { وابيضت عيناه من الحزن } أي من كثرة البكاء { فهو كظيم } أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق { قالوا } له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه : { تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين }

يقولون : لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك

{ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون } يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكوه إلى الله عز و جل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال : { وأعلم من الله ما لا تعلمون }

ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما : { يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون } أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيها لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم : { فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر } أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال { وجئنا ببضاعة مزجاة } أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا قيل كانت دراهم رديئة وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلا لهم عن أمر ربه وربهم وقد حسر عن جبينه الشريف وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه : { هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون }

{ قالوا } وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو { أئنك لأنت يوسف } ؟

{ قال أنا يوسف وهذا أخي } يعنى أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله { وهذا أخي } تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الإحتيال ولهذا قال : { قد من الله علينا } أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين }

{ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا } أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا { وإن كنا لخاطئين } أي فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك { قال لا تثريب عليكم اليوم } أي لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال : { يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين }

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلى جسده فيضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات، ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور

{ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم }

فقال : { إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون } قال : فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام

وقوله : { لولا أن تفندون } أي تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن { تفندون } تسفهون

{ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم } قال قتادة والسدي : قالوا له كلمة غليظة

قال الله تعالى : { فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا } أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرا بعد ما كان ضريرا وقال لبنيه عند ذلك : { ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون } أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وسيقر عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسرني

{ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبا فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوته يتمارون في السنة الأولي وحدهم وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين فجاءوا كلهم

لما أزف قدوم نبي الله يعقوب - وهو إسرائيل - أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيما لنبي الله " إسرائيل

قال الله تعالى : { ورفع أبويه على العرش } قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة وقال بعض المفسرين : أحياها الله تعالى وقال آخرون : بل كانت خالته " ليا " والخالة بمنزلة الأم

ورفعهما على العرش أي أجلسهما معه على سريره : { وخروا له سجدا } أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين

ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة

الدعاوى التي تجعل يوسف يستجيب لامراة العزيز:

الميل الطبيعى للرجل الى المراة
عزبا لا زوجة له تكسر الشهوة،و شابا وشهوة الشباب اقوى
غريبا وفرصة قضاء الوطر صعبة
المراة ذات جمال وذلك يضعف مقاومته
المراة ذات منصب وذلك يدعو الى موافقتها
المراة غير ممتنعة لان ما يزيل الرغبة الامتناع
ليس هناك ذل للنفس ولا خضوع ولا سؤال لها
انها طلبت وارادت وبذلت الجهد، فكفته جهد الطلب
هى الطالبة الذليلة وهو العزيز المرغوب اليه
انه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ،وان لم يطاوعها لا يسلم من اذاها
اجتمعت دواعى الرغبة والرهبة
لا يخشى ان تنم عليه فهى الطالبة والراغبة ولقد غلقت الابواب وغيبت الرقباء
كان الامن سابقا على الطلب فقد كان مملوكا لها فى الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه،
الزوج لم يظهرمن الغيرة ما يفرق به بينهما او يبعدهما

انها استعانت بالمكر والحيلة فاستعانت بالنسوة عليه
توعدته بالسجن فاجتمع داعى الشهوة وداعى حب السلامة من ضيق السجن والعذاب

١٣- يعقوب عليه السلام

المؤمن أولى الناس بذلك فإنه مهما كان المصاب فهو على غنم،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءصبر فكان خيراً له" رواه مسلم

بل مع الصبر على الضراء تراه يحمد الله أن جعل مصيبته في دنياه لا في دينه،

بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقام المنة، فيعلم أنه وإن أعسر شهراً فقد أيسر دهراً، وإن مارس الشدة أياماً، فقد لابس النعمة أعواماً، على ثقة من أن ساعة الضراء تزول، كما أن مدة السراء قد تحول، وكما لم تثبت نوبة المنحة، فلن تلبث نوبة المحنة،

فماأعظم طمأنينة قلب من كان هذه حاله، وهنيئاً له الفوز بالدرجات العلى يوم القيامة.

ويعقوب عليه السلام طراز فريد من أولئك، وقد جمع بين الصبر الجميل وبين التعلق بالله القدير،

ففر إلى من بيده مفاتيح الفرج سبحانه، لعلمه بأن من آوى إليه كفاه، فالفزع إلى الله -تعالى- عند نزول المصائب يربط على القلب، ويقرِّب من الرب، ويخفف من وطأة المصيبة على

النفس، وهو دأب الصالحين في كل زمان. ونبينا - صلى الله عليه وسلم- كان "إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة".

وأحسن من قال:

إذا أرهقتك هموم الحياة ومسك منها عظيم الضرر
و ُتقت الأمرين حتى بكيت وضج فؤادك حتى انفجر
وسُدت بوجهك كل الدروب و أوشكت تسقط بين الحفر
فيمِّم إلى الله في لهفة و بث الشكاة لرب البشر

ولا ينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها، فهذا يعقوب _عليه السلام_، صاحب الصبر الجميل، قال وهو الصادق فيما يقول: **"إنما أشكو بثي وحزني إلى الله"**، ومع ذلك لم يغفل قانون الأسباب، **"يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"**،

فأنت تراه يوجه بنيه كل بنيه: يا بَنيَّ، لا تيأسوا من روح الله، فكل عسير إذا يسره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، لا يقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فباحثوا عن أخبار من تلوموني في ذكره، وعن أخيه، وفي هذا بيان لقوة نفسه عليه السلام وثبات جنانه، ولك أن تقدر ما يقوله الناس له، وعظيم إنكارهم عليه، وما يتحدثون به في مجتمعه،

وخذ مقياساً لذلك كلمة بنيه: **"تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين"**

فإذا كان هذا قول الأبناء المقربين فكيف بالغرباء الأبعدين، بل كيف بمن لم يعرف له مقام نبوة؟

إنك ترى كثيراً من الناس ربما قال بحق في مسألة من المسائل التي بدت له أدلتها، وظهر له برهانها، فيلبث قليلاً فيعظم إنكار بعض الناس عليه، فيخنس**!**

أما الأنبياء ..أما من عرف قدر الحق من أصحاب النفوس القوية فلا، بل يثبتهم اليقين فيصبرون، وعندها يجعل الله منهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون. إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يبصر بنور الوحي أن رأيهم هو الرأي، إلاّ أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالمُنْكِر المخالفِ منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكر، لما رأى الصبر واليقين ماثلين أمامه.

ويعقوب _عليه السلام_ طراز فريد من أولئك، وقد جمع بين الصبر الجميل وبين التعلق بالله القدير، ففر إلى من بيده مفاتيح الفرج سبحانه، لعلمه بأن من آوى إليه كفاه

إننا بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ثم يبصرون بنور الله أهل العمى، ويثبتون فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنعت، عندها يجعل الله منهم أئمة وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسى الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة. بفضل اتباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمون.

١٤-داود عليه السلام

داود عليه السلام

نبذة:

آتاه الله العلم والحكمة وسخر له الجبال والطير يسبحن معه وألان له الحديد، كان عبدا خالصا لله شكورا يصوم يوما ويفطر يوما يقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه وأنزل الله عليه الزبور وقد أوتي ملكا عظيما وأمره الله أن يحكم بالعدل.

سيرته:

حال بنو إسرائيل قبل داود:

قبل البدء بقصة داود عليه السلام، لنرى الأوضاع التي عاشها بنو إسرائل في تلك الفترة.
لقد انفصل الحكم عن الدين..فآخر نبي ملك كان يوشع بن نون.. أما من بعده فكانت الملوك تسوس بني إسرائيل وكانت الأنبياء تهديهم. وزاد طغيان بني إسرائيل، فكانوا يقتلون الأنبياء، نبيا تلو نبي، فسلط الله عليهم ملوكا منهم ظلمة جبارين، ألوهم وطغوا عليهم.
وتتالت الهزائم على بني إسرائيل، حتى انهم أضاعوا التابوت. وكان في التابوت بقية مما ترك آل موسى وهارون، فقيل أن فيها بقية من الألواح التي أنزلها الله على موسى، وعصاه، وأمورا آخرى. كان بنو إسرائيل يأخذون التابوت معهم في معاركهم لتحل عليهم السكينة ويحققوا النصر. فتشروا وساءت حالهم.
في هذه الظروف الصعبة، كانت هنالك امرأة حامل تدعو الله كثيرا أن يرزقها ولدا ذكرا. فولدت غلاما فسمته أشموئيل.. ومعناه بالعبرانية إسماعيل.. أي سمع الله دعائي.. فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة. فكان عنده، فلما بلغ أشده، بينما هو ذات ليلة نائم :
إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورا ظانا أن الشيخ يدعوه. فهرع

أشموئيل إلى يسأله: أدعوتني..؟ فكره الشيخ أن يفزعه فقال: نعم.. نم ..
فنام..
ثم ناداه الصوت مرة ثانية.. وثالثة. وانتبه إلى جبريل عليه السلام يدعوه: إن ربك بعثك إلى قومك.

<u>اختيار طالوت ملكا:</u>

ذهب بنو إسرائيل لنبيهم يوما.. سألوه: ألسنا مظلومين؟
قال: بلى..
قالوا: ألسنا مشردين؟
قال: بلى..
قالوا: ابعث لنا ملكا يجمعنا تحت رايته كي نقاتل في سبيل الله ونستعيد أرضنا ومجدنا.
قال نبيهم وكان أعلم بهم: هل أنتم واثقون من القتال لو كتب عليكم القتال؟
قالوا: ولماذا لا نقاتل في سبيل الله، وقد طردنا من ديارنا، وتشرد أبناؤنا، وساء حالنا؟
قال نبيهم: إن الله اختار لكم طالوت ملكا عليكم.
قالوا: كيف يكون ملكا علينا وهو ليس من أبناء الأسرة التي يخرج منها الملوك -أبناء يهوذا- كما أنه ليس غنيا وفينا من هو أغنى منه؟
قال نبيهم: إن الله اختاره، وفضله عليكم بعلمه وقوة جسمه.
قالوا: ما هي آية ملكه؟
قال لهم نبيهم: يرجع لكم التابوت تحمله الملائكة.

<u>ووقعت هذه المعجزة</u>.. وعادت إليهم التوراة يوما.. ثم تجهز جيش طالوت، وسار الجيش طويلا حتى أحس الجنود بالعطش..
قال الملك طالوت لجنوده: سنصادف نهرا
في الطريق، فمن شرب منه فليخرج من الجيش، ومن لم يذقه وإنما بل ريقه فقط فليبق معي في الجيش..
وجاء النهر فشرب معظم الجنود، وخرجوا من الجيش، وكان طالوت قد أعد هذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصاه، وليعرف أيهم قوي الإرادة ويتحمل العطش، وأيهم ضعيف الإرادة ويستسلم بسرعة. لم يبق إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا، لكن جميعهم من الشجعان.
كان عدد أفراد جيش طالوت قليلا، وكان جيش العدو كبيرا وقويا.. فشعر بعض -هؤلاء الصفوة- أنهم أضعف من جالوت وجيشه وقالوا: كيف نهزم هذا الجيش الجبار..؟
قال المؤمنون من جيش طالوت: النصر ليس بالعدة والعتاد، إنما النصر من عند الله.. **﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾..** فثبّتوهم.
وبرز جالوت في دروعه الحديدية وسلاحه، وهو يطلب أحدا يبارزه.. وخاف منه جنود طالوت جميعا.. وهنا برز من جيش طالوت راعي غنم صغير هو داود.. كان داود مؤمنا بالله، وكان يعلم أن الإيمان بالله هو القوة الحقيقية في هذا

الكون، وأن العبرة ليست بكثرة السلاح، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل.
وكان الملك، قد قال: من يقتل جالوت يصير قائدا على الجيش ويتزوج ابنتي ..
ولم يكن داود يهتم كثيرا لهذا الإغراء.. كان يريد أن يقتل جالوت لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله.. وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت..
وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعه (وهو نبلة يستخدمها الرعاة).. تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع.. وسخر جالوت من داود وأهانه وضحك منه، ووضع داود حجرا قويا في مقلاعه وطوح به في الهواء وأطلق الحجر. فأصاب جالوت فقتله. وبدأت المعركة وانتصر جيش طالوت على جيش جالوت.
هو داود من نسل يهوذا بن يعقوب
تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في داود هذا
قال تعالى:{ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين }
أي لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم ولهذا جاء في بعض الأمثلة " السلطان ظل الله في أرضه "
قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليم داود وقيل إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضم إنه ولاه قبل الوقعة
وقال تعالى : { ولقد آيتنا دواد منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير }
وقال تعالى : { وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون }
أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : { وقدر في السرد } أي لا تدق المسماء فيفلق ولا تغلظه فيفصم
قال الحسن البصري: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يتفله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة
قال قتادة : فكان أول من عمر الدروع من زرد وإنما كان قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم
وقد ثبت في الحديد أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده
وقال تعالى : { واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب }
قال ابن عباس ومجاهد : الأيد القوة في الطاعة يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح
قال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقها في إسلام قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله (صلى الله عليه و سلم) قال : [أحب الصلاة إلي صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى]

وقوله : **{ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أواب }**

كما قال : **{ يا جبال أوبي معه والطير }** أي سبحي معه قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية **{ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق }** أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه

أعطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشا وجوعا وحتى إن الأنهار لتقف !

سمعت عبيد بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي

وقوله : **{ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب }** أي أعطيناه ملكأ عظيما وحكما نافذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود في بني إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما

قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : { وشددنا ملكه } وقوله تعالى : { وآتيناه الحكمة } أي النبوة { وفصل الخطاب }:

فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك : " البينة على المدعي واليمين على من أنكر "

وقال وهب بن منبه : لم كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل إليها

{ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب }

جمع الله الملك والنبوة لداود:

بعد فترة أصبح داود -عليه السلم- ملكا لبني إسرائيل، فجمع الله على يديه النبوة والملك مرة أخرى.

لقد أكرم الله نبيه الكريم بعدة معجزات. لقد أنزل عليه الزبور **(وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)**، وآتاه جمال الصوت، فكان عندما يسبّح، تسبح الجبال والطيور معه، والناس ينظرون. وألان الله في يديه الحديد، حتى قيل أنه كان يتعامل مع الحديد كما كان الناس يتعاملون مع الطين والشمع، وقد تكون هذه الإلانة بمعنى أنه أول من عرف أن الحديد ينصهر بالحرارة. فكان يصنع منه الدروع

القضايا التي عرضت على داود:

يروي لنا القرآن الكريم بعضا من القضايا التي وردت على داود -عليه السلام.

١.فلقد جلس داود كعادته يوما يحكم بين الناس في مشكلاتهم.. وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر..

وقال له صاحب الحقل: سيدي النبي.. إن غنم هذا الرجل نزلت حقلي أثناء الليل، وأكلت كل عناقيد العنب التي كانت فيه.. وقد جئت إليك لتحكم لي بالتعويض..

قال داود لصاحب الغنم: هل صحيح أن غنمك أكلت حقل هذا الرجل؟

قال صاحب الغنم: نعم يا سيدي..

قال داود: لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذي أكلته.

قال سليمان.. وكان الله قد علمه حكمة تضاف إلى ما ورث من والده: عندي حكم آخر يا أبي..

قال داود: قله يا سليمان..

قال سليمان: أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذي أكلته الغنم .. ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب، وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه، فإذا كبرت عناقيد الغنم وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه..

قال داود: هذا حكم عظيم يا سليمان.. الحمد لله الذي وهبك الحكمة..

٢.وقد ورد في الصحيح قصة أخرى:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ «

بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا .فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ وَقَالَتِ الأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ .فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ع يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا .فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى ». قَالَ لَيْهِمَا السَّلاَمُ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِى بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا .فَقَالَتِ الصُّغْرَى لاَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ مَا كُنَّا نَقُولُ إِلاَّ الْمُدْيَةَ.

٣.فتنة داود:

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له، يتعلم دائما من الله، وقد علمه الله يوما ألا يحكم أبدا إلا إذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين.. فيذكر لنا المولى في كتابه الكريم قضية أخرى عرضت على داود عليه السلام.

جلس داود يوما في محرابه الذي يصلي لله ويتعبد فيه، وكان إذا دخل حجرته أمر حراسه ألا يسمحوا لأحد بالدخول عليه أو إزعاجه وهو يصلي.. ثم فوجئ يوما في

محرابه بأنه أمام اثنين من الرجال.. وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم أنه أمر ألا يدخل عليه أحد. سألهما داود: من أنتما؟

قال أحد الرجلين: لا تخف يا سيدي.. بيني وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق.

سأل داود: ما هي القضية؟ قال الرجل الأول:إ(نَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ). وقد أخذها مني. قال أعطها لي وأخذها مني..

وقال داود بغير أن يسمع رأي الطرف الآخر وحجته: (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ).. وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا إلا الذين آمنوا..

وفوجئ داود باختفاء الرجلين من أمامه.. اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت في الجو وأدرك داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله إليه ليعلماه درسا.. فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعا، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق.. وخر داود راكعا، وسجد لله، واستغفر ربه..

٤.**نسجت أساطير اليهود قصصا مريبة حول فتنة داود عليه السلام،** وقيل أنه اشتهى امرأة أحد قواد جيشه فأرسله في معركة يعرف من البداية نهايتها، واستولى على امرأته.. وليس أبعد عن تصرفات داود من هذه القصة المختلقة.. إن إنسانا يتصل قلبه بالله، ويتصل تسبيحه بتسبيح الكائنات والجمادات، يستحيل عليه أن يرى أو يلاحظ جمالا بشريا محصورا في وجه امرأة أو جسدها..

وفاته عليه السلام:

عاد داود يعبد الله ويسبحه حتى مات... كان داود يصوم يوما ويفطر يوما.. قال رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عن داود: "**أفضل الصيام صيام** داود. كان يصوم يوما ويفطر يوما. وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويشفي بصوته المهموم والمحموم.."

جاء في الحديث الصحيح أن داود عليه السلام كان شديد الغيرة على نساءه، فكانت نساءه في قصر، وحول القصر أسوار، حتى لا يقترب أحد من نساءه. وفي أحد الأيام رأى النسوة رجلا في صحن القصر، فقالوا: من هذا والله لن رآه داود ليبطشنّ به. فبلغ الخبر داود -عليه السلام- فقال للرجل: من أنت؟ وكيف دخلت؟ قال: أنا من لا يقف أمامه حاجز. قال: أنت ملك الموت. فأذن له فأخذ ملك الموت روحه.

مات داود عليه السلام وعمره مئة سنة. وشيع جنازته عشرات الآلاف، فكان محبوبا جدا بين الناس، حتى قيل لم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كان بنو إسرائيل أشد جزعا عليه.. منهم على داود.. وآذت الشمس الناس فدعا

سليمان الطير قال: أظلي على داود. فأظلته حتى أظلمت عليه الأرض. وسكنت الريح. وقال سليمان للطير: أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي من ناحية الريح. وأطاعت الطير. فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان عليه السلام

عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه و سلم) سجد في " ص " وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكرا تفرد به أحمد ورجاله ثقات
قال الله تعالى : { فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب } أي إن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها
{ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب } هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل بغير ذلك وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلا ونهارا
كما قال تعالى : { اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور }
عن وهب ابن منبه قال : إن في حكمة آل داود : حق على العقل ألا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذي يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه وحق على العاقل ألا يظعن إلا في إحدي ثلاث : زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة في غير محرم

: قالت يهود لما رأت رسول الله (صلى الله عليه و سلم) يتزوج النساء **!** انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء : حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا : لو كان نبيا ما رغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيى بن أخطب
فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال : { أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله } يعني بالناس رسول الله (صلى الله عليه و سلم)
{ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما } يعني ما آتي الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلاثمائة سرية وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أرويا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد (صلى الله عليه و سلم) وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية
أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث مخزونا إن شئت **أنبأتك بصوم داود** فإنه كان صواما قواما وكان شجاعا لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوما ويفطر يوما وقال رسول الله (صلى الله عليه و سلم) : [أفضل الصيام صيام داود] وكان

يقرأ الزبور بسبعين صوتا يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهموم والمحموم

جنازة داود عليه السلام

إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غما فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحي الريح ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأواه من ملك سليمان

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله (صلى الله عليه و سلم) : [لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة]

١٥-سليمان عليه السلام

قال الحافظ ابن عساكر : وهو سليمان بن داود من نسل يهوذا بن يعقوب

قال الله تعالى : { وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين } أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم

وقال : { يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء } يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها

حدثني أبو مالك قال : مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها إلى نفسه ويقول زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئث ! قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب !

وكذلك ماعداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هذه قوله بعد هذا من الآيات : { وأوتينا من كل شيء } أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال : { إن هذا لهو الفضل المبين } أي من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات

كما قال تعالى : { وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسمم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين }

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور
والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأس السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، ولهذا قال : { رب أوزعني } أي ألهمني وأرشدني { أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين
والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال النبي (صلى الله عليه و سلم) قال : [قالت أم سليمان بن داود : يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة

أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها

الهدهد

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ماذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذأ أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة ألتي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته { فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين } { لأعذبنه عذابا شديدا } توعده بنوع من العذاب { أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين } أي بحجة تنجيه من هذه الورطة
قال الله تعالى : { فمكث غير بعيد } أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها { فقال } لسليمان : { أحطت بما لم تحط به } أي اطلعت على ما لم تطلع عليه { وجئتك من سبأ بنبأ يقين } أي بخبر صادق { إني وجدت امراة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم } وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليها بعد أبيها رجلا فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمرا ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس
عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه و سلم) أنه قال : كان أحد أبوي بلقيس جنيا وهذا حديث غرب وفي سنده ضعف
وقوله{ وأوتيت من كل شيء } أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك{ولها عرش عظيم }يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر
م ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما

يعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات : { الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم } أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ولهذا قال لهم : { ألا تعلوا علي } أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري { وأتوني مسلمين } فلما جاءها الكتاب مع الطير الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها { قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم } ثم قرأت عليهم عنوانه أولا { إنه من سليمان } ثم قرأته { وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين } ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون : { قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون } تعني ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون { قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد } يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين { و } مع هذا { الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين } فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع { قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون } { وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون }

ولهذا : { لما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون } ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : { ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون }

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها ، قيل معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك

وقيل قبل أن يصل إليك أبعد ما تراه من الناس

وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك

وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى ابعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل أو خلافه { ومن شكر فإنما يشكر لنفسه } أي إنما يعود نفع ذلك عليه { ومن كفر فإن ربي غني كريم } أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكر لها لتختبر فهمها وعقلها ولهذا قال : { ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو } وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب قال الله تعالى إخبارا عن

سليمان وقومه : { وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين } أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه { فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين }

وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفي الأول نظر والله أعلم

إلا أن سليمان قيل إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال : أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه كان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غمدان وسالحين وبيتون فالله أعلم

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك اليمن فبني لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر والله أعلم

وقال تعالى في سورة ص : { ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب }

ورغم كل هذه النعم العظيمة والمنح الخاصة، فقد فتن الله تعالى سليمان ..

اختبره وامتحنه، والفتنة امتحان دائم، وكلما كان العبد عظيما كان امتحانه عظيما. اختلف المفسرون في فتنة سليمان عليه السلام.

ولعل أشهر رواية عن هذه الفتنة

هي نفسها أكذب رواية.. قيل إن سليمان عزم على الطواف على نسائه السبعمائة في ليلة واحدة، وممارسة الحب معهن حتى تلد كل امرأة منهن ولدا يجاهد في سبيل الله، ولم يقل سليمان إن شاء الله، فطاف على نسائه فلم تلد منهن غير امرأة واحدة.. ولدت طفلا مشوها ألقوه على كرسيه.. والقصة مختلقة من بدايتها لنهايتها، وهي من الإسرائيليات الخرافية.

وحقيقة هذه الفتنة ما ذكره الفخر الرازي. قال: إن سليمان ابتلي بمرض شديد حار فيه الطب. مرض سليمان مرضا شديدا حار فيه أطباء الإنس والجن.. وأحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يشف، وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان إذا جلس على كرسيه كأنه جسد بلا روح.. كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض.. واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وحبه.. وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان، وشفي سليمان.. عادت إليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظمته لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه.. هذا هو الرأي الذي نرتاح إليه، ونراه لائقا بعصمة نبي حكيم وكريم كسليمان..

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله تعالى عليه فقال : { نعم العبد إنه أواب } أي رجاع مطيع لله ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة الجياد وهي المضمرة السراع

والذي عليه أكثر السلف الأول فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس وروى هذا عن علي بن أبي طالب وغيره والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدا من غير عذر اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغا في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك

قال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر كما سيأتي الكلام عليها

وقوله تعالى: { ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب } ص٣٤

ومضمون ما ذكره أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوما ثم عاد إليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من تجعله مسجدا إسرائيل عليه السلام

١-(ولقد فتنا سليمان } أي ابتليناه ، وذلك أنه كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لأطأن الليل مائة جارية تلد كل جارية ولداً يصبح فارساً يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله أي لم يستثن ووطئ نساءه في تلك الليلة فعوقب لعدم استثنائه فلم يلدن إلا واحدة جاءت بولد مشلول بالشلل النصفي فلما وضعته أمه أتوا به إلى سليمان ووضعوه على كرسيه . وهو قوله تعالى {وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب } سليمان إلى ربه فاستغفر وتاب فتاب الله عليه

٢-فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا

امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره ، فوالذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون » فذلك قوله : { وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان }
قوله : { وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان } بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، { وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيّهِ } منه { جَسَداً } وذلك لشدة المرض . والعرب تقول في الضعيف جسم بلا روح { ثُمَّ أَنَابَ } أي رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة ألبتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة
أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتلسيط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب
قال رسول الله (صلى الله عليه و سلم) : [بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال : آتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها]
ولعل كل من الحكمين كان سائغا في شريعتهم وكلن ما قاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك إياه فقال : { وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون }
ثم قال : { ولسليمان الريح عاصفة } أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة { تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين }

وقال في صورة ص : { فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب }
لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيرا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها { تجري بأمره رخاء حيث أصاب } أي حيث أراد من أي البلاد كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور الخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفرا أو مستنزها أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء فإن حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى : { ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور }

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، قيل : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس قال قتادة وكانت باليمن أنبعها الله له قال السدي : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها وقوله : { ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير } أي وسخر الله له من الجن عمالا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به { يعملون له ما يشاء من محاريب } وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس { وتماثيل } وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغا في شريعتهم وملتهم { وجفان كالجواب } قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه ، وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيها منها يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى : { اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور }

وقال تعالى : { والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد } أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن أيضا لمن كان قبله

وقد قال البخاري عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه و سلم) قال : [إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان : { رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي } فردته خاسئا]

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سرارى وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا عظيما جدا

قال البخاري : عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه و سلم) قال : [قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه : إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه] فقال النبي (صلى الله عليه و سلم) : [لو قالها لجاهدوا في سبيل الله]

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : { هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب } أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه ألا يعطي أحدا إلا بإذن الله له في ذلك

وقد خير نبينا محمد (ص) بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدا رسولا

قال الله تبارك وتعالى : { فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين }

عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : [كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه يقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كنت لغرس غرست وإن كات لدواء أنبتت فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت فقال سليمان : اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين وقال السدي:

فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق فلم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتا فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته - وهي العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة

وقال أبو داود في كتاب القدر : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني قال : ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب يلقي علي فيها تسمية من يموت

: قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي قال : فبعث الله دابة الأرض - يعني إلى منسأته - فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة

وفي سنة أربع من ملكه ابتداء ببناء المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة

١٦-يونس عليه السلام

كان يونس بن متى نبيا كريما أرسله الله إلى قومه فراح يعظهم، وينصحهم، ويرشدهم إلى الخير، ويذكرهم بيوم القيامة، ويخوفهم من النار، ويحببهم إلى الجنة، ويأمرهم بالمعروف، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده. وظل ذو النون -يونس عليه السلام- ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد.

وجاء يوم عليه فأحس باليأس من قومه.. وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون، وخرج غاضبا وقرر هجرهم ووعدهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام .

ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس. ولكن المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر. وقال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل. فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة. ولم يكن الأمر الإلهي قد صدر له بأن يترك قومه أو ييأس منهم. فلما خرج من قريته، وتأكد أهل القرية من نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم وصرخوا وتضرعوا إلى الله عز وجل، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وكانوا مائة ألف يزيدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعين. فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي استحقوه بتكذيبهم.

أمر السفينة:

أما السفينة التي ركبها يونس، فقد هاج بها البحر، وارتفع من حولها الموج .

وكان هذا علامة عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة. وأنه لا بد أن يلقى في الماء لتنجو السفينة من الغرق .

فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس -وكان معروفاً عندهم بالصلاح- فأعادوا القرعة، فخرج سهمه ثانية، فأعادواها ثالثة، ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه في البحر -أو ألقى هو نفسه. فالتقمه الحوت لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها،وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له. وأحى الله للحوت أن لا يخدش ليونس لحما ولا يكسر له عظما. واختلف المفسرون في مدة بقاء يونس في بطن الحوت، فمنهم من قال أن الحوت التقمه عند الضحى، وأخرجه عند العشاء. ومنهم من قال انه لبث في بطنه ثلاثة أيام، ومنهم من قال سبعة.

يونس في بطن الحوت:

عندما أحس بالضيق في بطن الحوت، في الظلمات -ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل- سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين. وقال: (لَّا

إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). فسمع الله دعاءه واستجاب له. فلفظه الحوت. (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون).وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء . وأنبت الله عليه شجرة القرع. قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حِكَم جمة. منها أن ورقه في غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نياً ومطبوخاً، وبقشره وببزره أيضاً. وكان هذا من تدبير الله ولطفه. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك. فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً.

ذنب يونس عليه السلام:

نريد الآن أن ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس. هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقي للذنب؟ وهل يذنب الأنبياء. الجواب أن الأنبياء معصومون .. غير أن هذه العصمة لا تعني أنهم لا يرتكبون أشياء هي عند الله أمور تستوجب العتاب. المسألة نسبية إذن.

يقول العارفون بالله: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.. وهذا صحيح. فلننظر إلى فرار يونس من قريته الجاحدة المعاندة. لو صدر هذا التصرف من أي إنسان صالح غير يونس.. لكان ذلك منه حسنة يثاب عليها. فهو قد فر بدينه من قوم مجرمين.

ولكن يونس نبي أرسله الله إليهم.. والمفروض أن يبلغ عن الله ولا يعبأ بنهاية التبليغ أو ينتظر نتائج الدعوة.. ليس عليه إلا البلاغ.

خروجه من القرية إذن.. في ميزان الأنبياء.. أمر يستوجب تعليم الله تعالى له وعقابه.

إن الله يلقن يونس درسا في الدعوة إليه، ليدعو النبي إلى الله فقط. هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوزها ببصره أو قلبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون.

ولقد خرج يونس بغير إذن فانظر ماذا وقع لقومه. لقد آمنوا به بعد خروجه .. ولو أنه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمأن قلبه وذهب غضبه.. غير أنه كان متسرعا.. وليس تسرعه هذا سوى فيض في رغبته أن يؤمن الناس، وإنما اندفع إلى الخروج كراهية لهم لعدم إيمانهم.. فعاقبه الله وعلمه أن على النبي أن يدعو لله فحسب. والله يهدي من يشاء

١٧-شعيب عليه السلام

تحدي وتهديد القوم لشعيب:

لكن قوم شعيب أعرضوا عنه قائلين: (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) إنه ضعيف بمقياسهم. ضعيف لأن الفقراء والمساكيهم فقط اتبعوه، أما علية القوم فاستكبروا وأصروا على طغيانهم. إنه مقياس بشري خاطئ، فالقوة بيد الله، والله مع أنبياءه. ويستمر الكفرة في تهديهم قائلين: (وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضربا بالحجارة .

نرى أنه عندما أقام شعيب -عليه السلام- الحجة على قومه، غيروا أسلوبهم، فتحولوا من السخرية إلى التهديد. وأظهروا حقيقة كرههم له. لكن شعيب تلطف معهم.. تجاوز عن إساءتهم إليه وسألهم سؤالا كان هدفه إيقاظ عقولهم: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ) يا لسذاجة هؤلاء .

إنهم يسيئون تقدير حقيقة القوى التي تتحكم في الوجود.. إن الله هو وحده العزيز.. والمفروض أن يدركوا ذلك.. المفروض ألا يقيم الإنسان وزنا في الوجود لغير الله.. ولا يخشى في الوجود غير الله.. ولا يعمل حسابا في الوجود لقوة غير الله .. إن الله هو القاهر فوق عباده.

ويبدو أن قوم شعيب ضاقوا ذرعا بشعيب. فاجتمع رؤساء قومه. ودخلوا مرحلة جديدة من التهديد.. هددوه أولا بالقتل، وها هم أولاء يهددونه بالطرد من قريتهم.. خيروه بين التشريد، والعودة إلى ديانتهم وملتهم التي تعبد الأشجار والجمادات.. وأفهمهم شعيب أن مسألة عودته في ملتهم مسألة لا يمكن حتى التفكير بها فكيف بهم يسألونه تنفيذها. لقد نجاه الله من ملتهم، فكيف يعود إليها؟ أنه هو الذي يدعوهم إلى ملة التوحيد.. فكيف يدعونه إلى الشرك والكفر؟ ثم أين تكافؤ الفرص؟ أنه يدعوهم برفق ولين وحب.. وهم يهددونه بالقوة .

واستمر الصراع بين قوم شعيب ونبيهم.. حمل الدعوة ضده الرؤساء والكبراء والحكام.. وبدا واضحا أن لا أمل فيهم.. لقد أعرضوا عن الله.. أداروا ظهورهم لله. فنفض شعيب يديه منهم. لقد هجروا الله، وكذبوا نبيه، واتهموه بأنه مسحور وكاذب.. فليعمل كل واحد.. ولينتظروا جميعا أمر الله .

هلاك قوم شعيب:

وانتقل الصراع إلى تحد من لون جديد. راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء إن كان من الصادقين.. راحوا يسألونه عن عذاب الله.. أين هو..؟ وكيف هو..؟ ولماذا تأخر..؟ سخروا منه.. وانتظر شعيب أمر الله.

أوحى الله إليه أن يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية.. وخرج شعيب.. وجاء أمره تعالى:

وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ
فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٤) (هود(

هي صيحة واحدة.. صوت جاءهم من غمامة أظلتهم.. ولعلهم فرحوا بما تصوروا أنها تحمله من المطر.. ثم فوجئوا أنهم أمام عذاب عظيم ليوم عظيم.. انتهى الأمر.
أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجثم على وجهه في مكانه الذي كان فيه في داره.. صعقت الصيحة كل مخلوق حي.. لم يستطع أن يتحرك أو يجري أو يختبئ أو ينقذ نفسه.. جثم في مكانه مصروعا بصيحة.

<u>الياس-ال ياسين-اليسع-ذا الكفل</u>

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) الصافات

قول عكرمة : إن إلياس هو إدريس ،
وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين ، من ولد هارون أخي موسى عليهم السلام
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو عم اليسع عليهم السلام

البقاعي
وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: كَانَ الْقَيِّمُ بِأَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ يُوشَعَ كَالِبَ بْنَ يُوقِنَا ثُمَّ حِزْقِيلَ، ثُمَّ لَمَّا قَبَضَ اللَّهُ حِزْقِيلَ النَّبِيَّ عَظُمَتِ الْأَحْدَاثُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَسُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَبَدُوا الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ،
فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ إِلْيَاسَ نَبِيًّا وَتَبِعَهُ الْيَسَعُ وَآمَنَ بِهِ،
فَلَمَّا عَتَا عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يُرِيحَهُ مِنْهُمْ فَقِيلَ لَهُ: اخْرُجْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا إِلَى مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا فَمَا استقبلك من شي فَارْكَبْهُ وَلَا تَهَبْهُ. فَخَرَجَ وَمَعَهُ الْيَسَعُ فَقَالَ يَا إِلْيَاسُ مَا تَأْمُرُنِي.
فَقَذَفَ إِلَيْهِ بِكِسَائِهِ مِنَ الْجَوِّ الْأَعْلَى، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ اسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ. وَقَطَعَ اللَّهُ عَلَى إِلْيَاسَ لَذَّةَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَكَسَاهُ الرِّيشَ وَأَلْبَسَهُ النُّورَ، فَطَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ إِنْسِيًّا مَلَكِيًّا سَمَاوِيًّا أَرْضِيًّا.

الرازى
ثم قال : **<u>{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين *سلام على إِلْ يَاسِينَ }</u>**
١- ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين
٢- (آل ياسين) آل محمد صلى الله عليه وسلم
٣- أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين ، يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين

قيل وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ،
(بعل) قولان
أحدهما : أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به ،
القول الثاني : أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أي من ربها ، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى ،
قال تعالى : {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ } [البقرة : ٢٢٨]
وقال تعالى : { وهذا بَعْلِى شَيْخًا } [هود : ٧٢]
فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله .
{ وإدريس } أي ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذي احييناه بعد موته ورفعناه مكاناً علياً ، وهو أول نبي بعث من بني آدم عليهما السلام
قيل : إنه ليس بنبي وعن الحسن أنه نبي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إلياس ، وقيل : هو يوشع بن نون ،
وقيل : زكريا - عليهم السلام .
{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى} اللذين قتلهما اليهود عليهم اللعنة {وَإِلْيَاسَ} وهو غير {إِلْيَاسَ} جد النبي عليه الصلاة والسلام - بسكون الهمز - لأنه أول من ابتلى باليأس، وهو السل؛ سمي بذلك لليأس من شفائه
وَالْيَسَعَ هو ابن أخطوب بن العجوز وَيُونُسَ هو ابن متى وَلُوطاً هو ابن أخي إبراهيم: وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ يعني على عالمي زمانهم. و

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)الانعام

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)ص
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)الانبياء
وأما ذوا الكفل
الكفل في اللغة الكساء الذي يجعل على عجز البعير ،
والكفل أيضاً النصيب
واختلفوا في أنه لم سمي بهذا الاسم على وجوه .
١- وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم .
٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية : «إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه أني أريد قبض روحك ، فأعرض ملكك على بني إسرائيل ، فمن

تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ، ويقضي بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك إليه ، فقام ذلك النبي في بني إسرائيل وأخبرهم بذلك ، فقام شاب وقال : أنا أتكفل لك بهذا ، فسمي ذا الكفل» . وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة .
فسمي ذا الكفل لأنه قد وفى بما تكفل به .

١-أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً وأن يكون اسماً ، والأقرب أن يكون مفيداً ، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب .

إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم ، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء .

٢- أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته .

٣-أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي .

٤- قيل إن ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل إلياس ، ثم قالوا خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس وذو النون ، محمد وأحمد .

<u>البقاعي</u>

{ وذا الكفل } الذي قدرناه على النوم الذي هو الموت الأصغر ، فكان يغلبه فلا ينام أو إلا قليلاً ، يقوم الليل ولا يفتر ، ويصوم النهار ولا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب فقدره الله على الحياة الكاملة في الدنيا التي هي سبب الحياة الكاملة في الأخرى وهو خليفة اليسع عليه السلام تخلفه على أن يتكفل له بصيام النهار وقيام الليل وأن لا يغضب ،

الباب السابع

ابتلاء الصحابة

فقد روى عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حديث طويل مع يهودي، قال فيه: ولقد كنت عاهدت الله تعالى ورسوله أنا وعمي حمزة وأخي جعفر وابن عمي عبيدة على أمر وفينا به لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله، فتقدمني أصحابي وتخلفت بعدهم لما أراد الله تعالى، فأنزل الله فينا: (مِنَ المؤمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَليه فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَه وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلوا تَبْديلا(حمزة وجعفر وعبيدة، وأنا والله المنتظر يا أخا اليهود، وما بدلت تبديلا". وبهذا بقي الإمام عليّ ينتظر الشهادة على أحرّ من الجمر، ولن يبدل أو يخلف في انتظاره أو يتراجع عمّا يعتقده ويؤمن به، ولو بمقدار أنملة واحدة.

الصحابة والابتلاء:

علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يصحو في الصباح الباكر فيبحث هو وفاطمة عن شيء من طعام فلا يجدانه، فيرتدي فروًا على جسمه من شدة البرد ويخرج، ويتلمَّس ويذهب في أطراف المدينة، ويتذكر يهوديًا عنده مزرعة، فيقتحم عليٌّ عليه باب المزرعة الضيق الصغير ويدخل، ويقول اليهودي: يا أعرابيُّ، تعال وأخرج كل غَرْبٍ بتمرة (والغرب هَو الدلو الكبير)، أي يخرجه من البئر معاونة للجمل، فيشتغل على رضي الله عنه معه برهة من الزمن حتى تَرِمَ يداه ويكلَّ جسمه، فيعطيه بعدد الغروب تمرات ويذهب بها ويمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعطيه منها، ويبقى هو وفاطمة يأكلان من هذا التمر القليل طيلة النهار.

عتبة بن غزوان رضي الله عنه، يستغرب وهو يخطب الناس الجمعة، كيف يكون في حالة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع سيد البشر يأكل معه ورق الشجر مجاهدًا في سبيل الله، في أرضى ساعات عمره وأحلى أيامه، ثم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون أميرًا على إقليم؟ إن الحياة التي تقبل بعد وفاة الرسول حياة رخيصة حقًا.

فلا ينبغي للمرء أن يذل نفسه، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

"لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: كيف يذل نفسه؟ قال: يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق" لكن إذا وقع البلاء فنحن مأمورون بالصبر اقتداءً بالأنبياء، قال تعالى:

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم {الأحقاف:٣٥}.

قال عمر رضي الله عنه: بالصبر أدركنا حسن العيش.

قال ابن كثير رحمه الله : (أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن وراءهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأعظم)

. . وكما ابتلي الأنبياء وأقوامهم الذين لم يستجيبوا لهم كذلك ابتلي أتباع الأنبياء ،

فقد ورد عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

كما أن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لاقوا من الابتلاء والمحن ما الله به عليم ، حتى أن أول سورة العنكبوت نزل بهم ،

وهو قوله تعالى بسورة العنكبوت الآية أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .

قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وأبيه وسمية أمه ، وعدة من بني مخزوم وغيرهم

كما فتن بعض الصحابة بأحبابه وذويه ،

مثل سعد بن أبي وقاص حيث نزل بسببه قوله سبحانه : سورة العنكبوت الآية ٨ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . فعن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال :

حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك ، وأنا أمك ، وأنا آمرك بهذا ، قال : مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة ، فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : سورة لقمان الآية ١٥ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وفيها : سورة لقمان الآية ١٥ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا الحديث . قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذاك أنه لما أسلم قالت له أمه حمنة : يا سعد بلغني

أنك صبوت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح الضح : الشمس وقيل ضوؤها وقيل ضوؤها إذا استمكن من الأرض
. والريح ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، فأبى سعد ، وصبرت هي ثلاثة أيام ولم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى غشي عليها ، فأتى سعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وشكا ذلك إليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي في سورتي لقمان والأحقاف

وقد ابتلي صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما حصل لهم من فراق الأهل والوطن والمال ، حينما أمروا بالهجرة .

قال تعالى : سورة العنكبوت الآية ٥٦ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون .

ومن سنة الابتلاء والفتنة استمراره في هذه الدنيا ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، ففي سورة العنكبوت دلالة واضحة على استمراره إلى يوم المعاد .

قال تعالى : الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) سورة العنكبوت

قال ابن عطية وهذه الآية نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك

. وقوله تعالى : سورة العنكبوت الآية ١٠ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ.

و عانى الصحابة مع نبيهم أشد أنواع الابتلاء ، فقُتِّلوا ، و شُرِّدوا ، و أخرجوا من ديارهم ، حتى قال رسول الله (ما أوذي أحد ما أوذيت في الله)

و اختص الله تعالى المجاهدين و المرابطين في سبيله بأصناف البلاء ، و لم يذكر غيرهم على سبيل التخصيص رغم عموم سنة الابتلاء لعموم البشر.

قال تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ { محمد : ٣١

و قال سبحانه : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } التوبة : ١٦.

تحمل عمّار بن ياسر وأهل بيته رضي الله عنهم الشدائد

عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّ بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِأَهْلِهِ يُعَذَّبُونَ فِي اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَقَالَ : "أَبْشِرُوا آلَ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ "

تحمل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الشدائد

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما قَالَ لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ لأَخِيهِ ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِى ، فَاعْلَمْ لِى عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ ، يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ ائْتِنِى . فَانْطَلَقَ الأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِى ذَرٍّ ، فَقَالَ لَهُ رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، وَكَلاَمًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ . فَقَالَ مَا شَفَيْتَنِى مِمَّا أَرَدْتُ ، فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ ، فَالْتَمَسَ النَّبِىَّ - صلى الله

عليه وسلم-وَلاَ يَعْرِفُهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ ، فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ ،فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أَصْبَحَ ، ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلاَ يَرَاهُ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - حَتَّى أَمْسَى ، فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِىٌّ فَقَالَ أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ فَأَقَامَهُ ، فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ لاَ يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَىْءٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ الثَّالِثِ ، فَعَادَ عَلِىٌّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَأَقَامَ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ أَلاَ تُحَدِّثُنِى مَا الَّذِى أَقْدَمَكَ قَالَ إِنْ أَعْطَيْتَنِى عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنَّنِى فَعَلْتُ فَفَعَلَ فَأَخْبَرَهُ .

قَالَ فَإِنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتَّبِعْنِى ، فَإِنِّى إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّى أُرِيقُ الْمَاءَ ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتَّبِعْنِى حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِى . فَفَعَلَ ، فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - وَدَخَلَ مَعَهُ ، فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم -« ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِى »قَالَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ ، وَأَتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ قَالَ وَيْلَكُمْ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّأْمِ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا ، فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ ، فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ

غزوة ذات الرِّقاع وما لقيه عليه السلام وأصحابه من الأذى

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ ، بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا فَنَقِبَتْ قَدَمَايَ ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي ، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ ، قَالَ : فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِمَّا كُنَّا نَعْصِبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْخِرَقِ

تحمل الجوع في الدعوة إلى الله ورسوله

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَيْتُهُ يُصَلِّي جَالِسًا ، فَقُلْتُ لَهُ : تُصَلِّي جَالِسًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَمَا أَصَابَكَ ؟ قَالَ : " الْجُوعُ " ، قَالَ : فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : " لا تَبْكِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا تُصِيبُ الْجَائِعَ إِذَا احْتَسَبَ فِي دَارِ الدُّنْيَا

قَالَتْ عَائِشَةُ إِنَّهُ لَيَأْتِى عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً وَلاَ يَطْبُخُونَ قِدْراً. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَبِيتُ اللَّيَالِىَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ فَاطِمَةَ نَاوَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كِسْرَةً مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ فَقَالَ « هَذَا أَوَّلُ طَعَامٍ أَكَلَهُ أَبُوكِ مِنْ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ».

وضعه عليه السلام والصحابة الحجر على بطونهم من الجوع

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِى طَلْحَةَ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- الْجُوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَنْ حَجَرَيْنِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْجُوعِ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ أَبْشِرُوا ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُغْدَى عَلَى أَحَدِكُمْ بِالْقَصْعَةِ مِنَ الثَّرِيدِ وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِمِثْلِهَا ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ ، قَالَ : بَلْ ، أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ.

تحمل أصحاب الصفة قلة الثياب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ ، كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ .(٨)

و عَنْ وَاثِلَةَ بْن الأَسْقَعِ قَالَ : " كُنْتُ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ ،وَمَا مِنَّا إِنْسَانٌ عَلَيْهِ ثَوْبٌ تَامٌّ ، وَقَدِ اتَّخَذَ الْعَرَقُ فِي جُلُودِنَا طُرُقًا مِنَ الْغُبَارِ وَالْوَسَخِ "

عثمان بن عفان رضي الله عنه: عن عُثْمَانُ بن مَوْهَبٍ قَالَ :جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتَ، فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ ؟ فَقَالُوا : هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ قَالَ: فَمَنْ الشَّيْخُ فِيهِمْ قَالُوا : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ

قَالَ :يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ :تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ قَالَ : نَعَمْ قَالَ :تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا قَالَ : نَعَمْ قَالَ :اللَّهُ أَكْبَرُ

قَالَ ابْنُ عُمَرَ :تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ

وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :[إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ]

وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى : [هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ فَقَالَ : هَذِهِ لِعُثْمَانَ] فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ .رواه البخاري ,والترمذي،و أحمد. وعن سعد بن عبيدة كذلك بقية الموالي مثل حمامة والدة بلال وعامر بن فهيرة، وأم عبيس ، وامرأة اسمها زنيرة، وأخرى اسمها النهدية ، وجارية بني عدي، التي كان يعذبها عمر قبل أن يسلم، وقد أعتق هؤلاء أبو بكر رضي الله تعالى عنه ،

يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر بالأمة كلها، إلى يوم القيامة، وما طلعت الشمس على أفضل بعد النبيين من أبي بكر)

وانظروا إلى أعماله، فمن ضمن من دخل على يديه في الإسلام سبعة من العشرة المبشرين بالجنة،

كلما سمع أن أحداً من المسلمين يعذب اشتراه، وأعتقه لوجه الله. ولما رآه أبوه وهو أبو قحافة يشتري هذه الرقاب العظيمة، وهذه الأنفس الأبية التي تعذب في الله، ويعتقها، قال: يا بني! إني أراك تعتق رقاباً ضعيفة، فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالاً يمنعونك ويقومون دونك، فقال له أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد بذلك وجه الله عز وجل،

فأنزل الله فيه قوله سبحانه وتعالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل:٥-٧] إلى أن قال عز وجل: وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ

رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى [الليل:١٩-٢١] هذه نزلت في أبي بكر وعده الله أنه سوف يرضى يوم القيامة.
ولما أسلمت زنيرة وأعتقها أبو بكر، أصيبت بمرض في عينها فعميت، فقال كفار قريش: والله ما أعماها إلا اللات والعزى، فبلغ الخبر أبا بكر الذي أعتقها، فقال: كذبوا والله، والله لا تضرها اللات والعزى ولا تنفعها، اللهم رد بصرها فرد الله بصرها وأخزى هؤلاء الكفرة،
قال تعالى: قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [الشعراء:٧٢-٧٤] فكانوا يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؛ لأن من مقتضيات الإله الذي يعبد أنه قادر على الضر والنفع، أما إله لا يضرك ولا ينفعك، بل بعضهم يبول عليه، وبعضهم يأكله، فكيف تعبده؟!
<u>وممن أوذي أيضاً وناله قسط كبير من الأذى والابتلاء في سبيل الله بلال بن رباح الحبشي ، وأمه اسمها حمامة</u> رضي الله عن الجميع، كان طاهر القلب، صادق اللسان، قوي الإيمان، عميق الإسلام، وكان سيده أمية بن خلف ، يخرجه إذا حميت الظهيرة -وكانت مكة من أشد البلاد حرارة، حتى يتحاشا الناس المشي فيها حفاة؛ لأنها تحرق أرجلهم- ثم يجرده من ثيابه، ثم يضعه على البطحاء التي هي مثل النار، ثم يؤتى بصخرة عظيمة قد حميت مثل حمى الأرض فيضعها على صدره، ثم يقال له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فكان وهو في هذا البلاء العظيم يردد: أحدٌ أحد.. أحدٌ أحد.. أحدٌ أحد، لا يهمه أن يناله ما ناله في سبيل الله، ولذلك بلغ رضي الله عنه وأرضاه منزلة عظيمة من الإسلام، كان يحبه النبي صلى الله عليه وسلم،

وكان عمر بن الخطاب يقول: [أبو بكر سيدنا، وأعتق بلالاً سيدنا].
عمر المخزوميجعل بلالاً سيداً ، رغم أنه في ميزان الناس عبد، لكنه في ميزان الإسلام والإيمانوالدين سيد، بلغ درجة جعلت عمر المخزومي يجعله سيداً من سادات المسلمين رضي الله عنه وأرضاه،
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له) :إيه بلال ، ما الذي تصنع؟ فوالذي نفسي بيده، إني لأسمع خشخشة نعليك في الجنة قال: لا شيء يا رسول الله، غير أني كلما أحدثت توضأت، وكلما توضأت صليت لله ركعتين.) لأن الوضوء سلاح المؤمن، وأنت مخلوق للعبادة، وما دام أنك مخلوق للعبادة، فيجب أن تكون مستعداً باستمرار للعبادة، وتكون مستعداًباستمرار للعبادة بالوضوء، بحيث إذا أردت تصلي إذا بك متوضئاً ، وإذا دخلتفريضة إذا بك متوضئاً ، المهم أنك دائماً على طهارة، وبعد ذلك إذا توضأت وصليت ركعتين، صار نور على نور، فالصلاة نور والوضوء نور، ولهذا كان هذا العمل العظيم الذي يفعله هذا الرجل العظيم، وأقره النبي صلى الله عليه وسلم فيعتبر من سننه صلى الله عليه وسلم بالإقرار.
يقول بلال أعطشوني يوماً و ليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار. وعندما رآه أبو بكر في هذه الحالة، ساوم سيده على شرائه، فاشتراه وأعتقه رضي الله عنه وأرضاه.

<u>مثل من ثبات الصحابة على دينهم واعتزازهم به</u>
<u>(خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)</u>

قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وسلم إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب فاستَخْفَوْا بصلاتهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم مايصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير فشجّه ، فكان أولَ دم هُريق في الإسلام

هذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضي الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشعاب النائية ، ومع ذلك وصل إليهم المشركون فناكروهم وعابوهم وقاتلوهم

إن محافظة هؤلاء الصحابة على دينهم وحماسهم في الدعوة إليه مع ذلك الاضطهاد الشديد من أعدائهم دليل على قوة إيمانهم وهو موقف جليل يكتب في سجلهم الحافل بالمواقف العالية .

ففي هذا الخبر موقف يذكر لعمرو بن عبسة حيث آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم في أوائل دعوة الإسلام وفي حال قلة المسلمين وكثرة أعدائهم ، ولم يقتصر على ذلك ، بل أبدى رغبته في مصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم والبقاء معه في ذلك الظرف العصيب ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل منه إسلامه ، وأبان له بأنه لايستطيع أن يتحمل مشقة الصحبة والاتباع في ذلك الوقت ، لما سيتعرض له من الأذى الشديد على يد الكفار ولكون النبي صلى الله عليه وسلم لايستطيع حمايته .

وقد جاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام بعد أن علم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : وبأي شيء أرسلك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شيء " وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام ، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد .

وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب ، وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية ، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر إلا بزوال هذه المعالم .

وفي اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم المبكر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالة على أن أمور الدين لايجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة على تطبيقها ، فالذين يبينون للناس من أمور الدين مايستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن ، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد .. هؤلاء دعوتهم ناقصة ، ولم يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره ، والسيادة في بلده لأعدائه .

وجاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أتباعه فقال " حر وعبد" وقد فسر ذلك عمرو بأن المراد أبو بكر وبلال، وهذا يحتمل أمرين :

<u>الأول : أن الكلام على ظاهره وأنه لم يسلم في ذلك الوقت خارج بيت النبي</u> صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وبلال، وبناء على ماسبق من أن أبا بكر هو أول من أسلم يكون بلال ثاني رجل أسلم خارج البيت النبوي .

الثاني : أن هناك مسلمين آخرين ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أخفى ذكرهم لكونهم يخفون إسلامهم عن قومهم، بينما كان أبو بكر ظاهر الإسلام ، وبلال قد ظهر إسلامه ، فذكرهما لكونهما لايتضرران بهذا الذكر ، وهذا هو الظاهر لأن عمرو بن عبسة علم عن الإسلام وهو في بلاده ، وظهور الإسلام خارج مكة وعلم القبائل به كان بعد الجهر بالدعوة بينما كان المسلمون الأوائل قد دخلوا في الإسلام قبل الجهر بالدعوة كما سبق في إسلام الخمسة على يد أبي بكر .

ومما يدل على تأخر وفادة عمرو بن عبسة قوله في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "جُرءاء عليه قومه" ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " ألا ترى حالي وحال الناس؟ " فهذا يدل على أن وفادته كانت بعد حدوث الخلاف والعداء من المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن جهر بنقد الجاهلية التي كان عليها قومه ، وهذا النقد كان بعد الجهر بالدعوة ، بل إنه قد جاء في هذا الخبر التصريح بكسر الأوثان وهذا كان بعد الجهر بالدعوة .

كان الصحابة أعظم القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل كانوا يبدءون بأنفسهم **ولذلك لما جاء رسول كسرى إلى المدينة يريد أن يرى قصورها** ، فلم يرَ إلا مبانٍ عادية جدا،ووجد عمر نائماً في ظل الشجرة متوسداً حجرا ، أهذا عمر الذي دوخ العالم ؟لماذا أوقع الله

هيبته في قلوب العالمين ؟ إنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [١١٠][آل عمران , جاء عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قال : من يشترى مني تركة آل عاد بدرهمين يا أهل دمشق يا أهل دمشق ما لي أراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون يا أهل دمشق أنه قد بلغنا أن عاد قد بنوا لبنة من ذهب و لبنة من فضة.

فلنصبر على ذلك ،ولنحتسب عند الله في كل ما يصبنا من الأذى؛ لأن العاقبة للمتقين]وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ[١٠٥][سورة الأنبياء.

وعادةً يكون انبلاج الفجر عند اشتداد الظلمة، وإذا رأيت الحق يحارب فاستبشر بأن النصر قريب ؛لأن الحق دين الله ؛ وهو مُتكفّل به، ولن يُضيع عباده الصالحين أبدا ،كذلك لابد أن نعلم أن هذا الدين سيقوم ، فإن لم يقم على يديك فعلى يدي غيرك ،وإن لم تقم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسيخرج الله من أبناء المترفين وأبناء المجرمين أنفسهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر]وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ[٣٨] سورة محمد.

هذا دين الله لا يستطيع أحد أن يضره؛ ولكن هي فترات ابتلاء وامتحان لابد أن تمر كما ابتلي النبي r وهل أحد أكرم وأحظى عند الله من محمد r يحاصر في الشعب هو وبنو هاشم إلى حد أنهم أكلوا ما يدب على الأرض من الجوع، وماذا كان يوم أحد ويوم الأحزاب من الفتن والأهوال التي ذللت قلوب المؤمنين؛ ولكن في النهاية كان ذلك النصر المبين ، فالصبر هو أساس النصر، والإنسان لا يدرى متى يموت فيصبر إذا على هذه الساعة يحفظها ويتقي الله فيها]لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[١٨٦][سورة آل عمران ، فالمؤمنون يمتحنون ويؤذون و يصبرون، وقد لا يرون شيئا من النصر ،

فهذا مصعب بن عمر رضى الله عنه ذاك الفتى الذي كان مترفا في مكة ذهب إلى المدينة، ودعى إلى الله ،وأسلم الأنصار حتى ما بقى بيت في المدينة إلا ودخله الإسلام ،وتلي فيه القرآن يُقتل يوم أحد رضى الله عنه، ولما أردوا أن يكفنوه لم يجدوا إلا رداءه ، فإن غطوا رأسه بدت رجلاه ، وإن غطوا رجليه بدا رأسه.

من شريط الصبر على الابتلاء، للشيخ سفر الحوالي

ابتلاء الصحابة رضي الله عنهم وتعرضهم للأذى...

١. **ومنهم أبو بكر** قام خطيباً في المسجد الحرام، فضربه المشركونضرباً عنيفاً وممن ضربه عتبة بن ربيعة ، جعل يضربه بالنعل على وجهه، حتى سال الدم فلم يعرف وجهه من كثرة الدماء.

٢. وممن ضُرب من الصحابة **عبد الله بن مسعود** ، وكان أول من جهر بالقرآن بين أظهر المشركين، وحذره النبي صلى الله عليه وسلم من عدوان المشركين عليه، وعندما فعل ذلك ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه، فقال له الصحابة: هذا ما خشينا عليك، فقال: ما كان أهون أعداء الله عز وجل منهمالآن، والله لئن شئتم لآتينهم غداً بمثلها.

٣.وممن أوذي أيضاً **عثمان بن مظعون** ، وقصته يا إخواني تبعث على العجب وتبين لنا قوة إيمان هؤلاء الرجال، عثمان بن مظعون رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة ولكن قريشاً رفضت أن يدخل أحدٌ إلا في جوار أحد، فدخل في جوار الوليد بن المغيرة ، وهو من كبار قريش، ولما رأى عثمان بن مظعون الأذى الذي يقع على الذين دخلوا في غير جوار، ورأى نفسه لا أحد يؤذيه لأنه في جوار رجل عظيم، فقدم إلى مجلس قريش ولما قدم إلى مجلس قريش في مكة وفيهم لبيد بن الأبرص شاعر جاهلي، يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان: صدقت، فلما جاء بالشطر الثاني:

وكل نعيم لا محالة زائل

ابتلاء الائمة

الإمام البخاري: صاحب الصحيح، يتهم في عقيدته ودينه؛ فقد اتهم بأنه يقول: بخلق القرآن في مسألة اللفظ المشهورة، فاتهمه محمد بن يحيى، فقال :قد أظهر هذا البخاري قول اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية.وحين قدم بخارى استقبله الناس، فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى: إن هذا الرجل _ يعني : البخاري _ قد أظهر خلاف السنة، فقرأ كتابه على أهل بخارى فقالوا: لانفارقه، فأمره الأمير بالخروج من البلد ,فأخرج رحمه الله .

يقول:كان سبب منافرة أبي عبدالله أن خالد بن أحمد الذهلي الأمير، خليفة الطاهرية ببخارى سأله أن يحضر منزله، فيقرأ الجامع والتاريخ على أولاده، فامتنع عن الحضور عنده، فراسله بأن يعقدمجلساً لأولاده، لايحضره غيرهم، فامتنع وقال:لاأخص أحداً، فاستعان الأمير بحريث

بن أبي الورقاء وغيره، حتى تكلموا في مذهبه، ونفاه عن البلد، فدعا عليهم، فلم يأت إلا شهر، حتى ورد أمر الطاهرية، بأن ينادى على خالد في البلد، فنودي عليه على أتان، وأما حريث فإنه ابتلي بأهله، فرأى فيهم مايجل عن الوصف، وأما فلان، فابتلي بأولاده وأراه الله فيهم البلايا.
وبقيالإمام البخاري بعد ذلك إماماً عالماً يترحم الناس عليه.
الإمام الشافعي: المجدد، اتهم بالتشيع لذا قال هذه الأبيات المشهورة التي حكاها عنه الربيع بن سليمان، قال:حججنا مع الشافعي، فما ارتقى شرفاً، ولاهبطواديا ً، إلا وهو يبكي وينشد-:

ياراكبا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفنا والناهض
سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

قال الذهبي:لو كان شيعياً _ وحاشاه من ذلك _ لما قال: الخلفاء الراشدون خمسة، بدأ بالصديق، وختم بعمر بن عبدالعزيز. وقال أحمد عن ذلك: اعلموا رحمكم الله أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحرمه قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم. ولما دخلمصر أتاه جلة أصحاب مالك، وأقبلوا عليه، فلما رأوه يخالف مالكاً، وينقض عليه جفوه وتنكروا له، حتى حدث أبو عبدالله بن منده قال: حدثت عن الربيع أنه قال: رأيت أشهب بن عبدالعزيز ساجداً يقول في سجوده: اللهم أمت الشافعي لايذهب علم مالك، فبلغ الشافعي فأنشأ يقول-:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ولهذا كان الشافعي يقول:رضى الناس غاية لاتدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل.
الإمام أحمد بن حنبل : ومحنته مشهورة، ابتلي واتهم بأنه: قد ابتدع في دين الله ما ليس فيه، وضرب وأوذي، وكانت تهمته في دينه، وأنه يفتري ،ويبتدع ويتجرأ على الله وقضيته مشهورة نتجاوزها.
ابن أبي عاصم : وممن اتهم في دينه الإمام : ابن أبي عاصم رحمه الله، قال عنه الذهبي: حافظ كبير، إمام بارع، متبع للآثار، كثير التصانيف . اتهم بالنصب، وأرسل له ليلى الديلمي غلاماً لهومخلاة وسيفاً، وأمره أن يأتيه برأسه فأتاه وهو في مسجده يحدث، فقال: إن الأمير قد أمرني أن آتي برأسك، فوضع الكتاب الذي كان يقرأ فيه على رأسه ,ثم أتاه آت، فقال: إن الأمير ينهاك عن ذلك.... والشاهد أن الإمام ابن أبي عاصم، إمام من أئمة أهل السنة، و يتهم بأنه ناصبي يبغض آل البيت.
بقي بن مخلد : قال عنه الذهبي: الإمام القدوة، شيخ الإسلام، أبو عبدالرحمن الأندلسي القرطبي، الحافظ صاحب التفسير والمسند اللذين لانظير لهما . وكانإماماً مجتهداً صالحاً، ربانياً صادقاً مخلصاً، رأساً في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، يفتي بالأثر، ولايقلد أحداً، قدم إلى الأندلس ,فأحيا فيها مذهب أهل الحديث، فشرق به أولئك. قال ابن حزم: وكان حمد بنعبدالرحمن الأموي صاحب الأندلس محباً للعلوم عارفاً، فلما دخل بقي الأندلس بمصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وقريء عليه أنكر جماعة من أهل الرأي مافيه من الخلاف واستبشعوه، ونشطوا العامة عليه، ومنعوا من قراءته، فاستحضره صاحب الأندلس محمد

وإياهم، وتصفح الكتاب كله جزءاً جزءاً، حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن الكتب: هذا كتاب لاتستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، ثم قال لبقي: انشر علمك، وارو ما عندك، ونهاهم أن يتعرضوا له.

بن قتيبة : اتهمه سبط ابن الجوزي بأنه يميل إلى التشبيه، وأن كلامه يدل عليه، وأنه يرى رأي الكرامية.... قال عنه شيخ الإسلام:'ابن قتيبة من أهل السنة... وهو من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة، وله في ذلك مصنفات متعددة . قال فيه صاحب التحديث بمناقب أهل الحديث: هو أحد أعلام الأئمة والعلماء الفضلاء، أجودهم تصنيفاً وأحسنهم ترصيفاً... وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون: من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة، ويقولون: كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه، قلت -أي شيخ الإسلام-: ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة' . هذه هي حال ابن قتيبة كما حكى شيخ الإسلام ومع ذلك يتهمه سبط ابن الجوزي في عقيدته بالتشبيه، وبأنه يرى رأي الكرامية.

محمد بن الفضل : قال السلمي في محن الصوفية: لما تكلم محمد بن الفضل ببلخ في فهم القرآن وأحوال الأئمة، أنكر عليه فقهاء بلخ، وقالوا: مبتدع، وإنما ذاك بسبب اعتقاده مذهب أهل الحديث.

الإمام البربهاري : قال أبو الحسين الفراء: كان للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين، وكان المخالفون يغلظون قلب السلطان عليه، ففي سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة: أرادوا حبسه فاختفى، وأخذ كبار أصحابه، وحملوا إلى البصرة، فعاقب الله الوزير ابن مقلة، وأعاد الله البربهاري إلى حشمته وزادت، وكثر أصحابه، فبلغنا أنه اجتاز الجانب الغربي، فعطس فشمته أصحابه، فارتفعت ضجتهم، حتى سمعها الخليفة، فأخبر بالحال فاستهولها، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي حتى نودي في بغداد: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري؛ فاختفى وتوفي مستتراً في رجب سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة.

أبو عثمان المغربي : قال عنه الذهبي :الإمام القدوة شيخ الصوفية أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني نزيل نيسابور. قال السلمي: كان أوحد المشايخ في طريقته، لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت، امتحن بسبب زور نسب إليه، حتى ضرب وشهر على جمل ففارق الحرم.

الخطيب البغدادي : قال محمد بن طاهر: حدثنا مكي بن عبدالسلام الرميلي، قال: كان سبب خروج الخطيب من دمشق إلى صور: أنه كان يختلف إليه صبي مليح، فتكلم الناس في ذلك، وكان أميرالبلاد رافضياً متعصباً، فبلغته القصة، فجعل ذلك سبباً إلى الفتك به، فأمر صاحب شرطته أن يأخذ الخطيب بالليل فيقتله، وكان صاحب الشرطة سنياً، فقصده تلك الليلة في جماعة ولم يمكنه أن يخالف الأمير، فأخذه وقال: قد أمرت فيك بكذا وكذا، ولا أجد لك حيلة إلا أني أعبر بك عند دار الشريف ابن أبي الحسن، فإذا حاذيت الدار اقفز وادخل فإني لا أطلبك، وأرجع إلى الأمير فأخبره بالقصة، ففعل ذلك، ودخل دار الشريف ابن أبي الحسن، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به، فقال: أيها الأمير، أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله، وليس في قتله مصلحة، هذا مشهور بالعراق، إن قتلته قتل به جماعة من الشيعة وخربت المشاهد،

قال: فما ترى؟ قال: أرى أن ينزح من بلدك، فأمر بإخراجه، فراح إلى صور وبقي فيها مدة . وقال أبو القاسم بن عساكر: سعى بالخطيب حسين بن علي الدمنشي إلى أمير الجيوش، فقال: هو ناصبي يروي فضائل الصحابة وفضائل العباس في الجامع.... وليست هذه التهمة نهاية ما تعرض له الخطيب من التهم، فمن عجائب ذلك : ما اتهمه به النخشبي، فقال في معجم شيوخه: ومنهم أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب... حافظ فهم، ولكنه كان يتهم بشرب الخمر، كنت كلما لقيته بدأني بالسلام، فلقيته في بعض الأيام فلم يسلم علي، ولقيته شبه المتغير، فلما جاز عني لحقني بعض أصحابنا، وقال لي :لقيت أبابكر الخطيب سكران! فقلت له قد لقيته متغيراً واستنكرت حاله، ولم أعلم أنه سكران.

قال ابن السمعاني: ولم يذكر من الخطيب رحمه الله هذا إلا النخشبي مع أني لحقت جماعة كثيرة من أصحابه.

الشاطبي : يقول عن نفسه مصوراً ما اتهم به:' فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه؛ كما يعزي إلى بعض الناس؛ بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء -وذلك أن هذه البدعة قد انتشرت عند الناس كانوا يلتزمون أن يدعو الناس بعد الصلاة بصوت عالٍ فأنكر الإمام الشاطبي هذه البدعة لأنها لم تكن واردة عن سلف الأمة، فاتهموه بأنه يرى أن الدعاء لا ينفع- ثم قال :وتارة نسبت إلى الرفض وبغض الصحابة -رضي الله عنهم - بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولاذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب. وتارة أضيف إليّ القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إليّ إلا من عدم ذكرهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم '.ثم ذكر جوانب أخرى اتهم فيها رحمه الله.

ابن الجوزي : قال الذهبي:' وقد نالته محنة في أواخر عمره، وشوا به إلى الخليفة الناصر عنه بأمر اختلف في حقيقته.'

ابتلاء الصالحين شيخ الإسلام ابن تيمية : فقد امتحن في عقيدته،

فاتهم بأنه ينتقص النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين حين أفتى بتحريم شد الرحال إلى زيارة القبور وأصابه في ذلك ما أصابه،
واتهم أيضاً -حين أفتى في مسألة الطلاق- بخروجه عن إجماع الأئمة الأربعة وشذوذه،

واتهم في عقيدته حين صنف العقيدة الواسطية، وعقدوا له مجالس للمناظرة حكى أجزاء منها وهي موجودة في كتابه :مجموع الفتاوى.

المراجع:

- القرآن الكريم
- تفسير الشيخ متولى الشعراوى
- موسوعة فقه الابتلاء٠٠على ابن نايف الشحود
- قصص الانبياء
- مواقع من النت